

مجلة
كلية الآداب
جامعة الإسكندرية



المجلدان السادس والسابع

١٩٥٢ - ١٩٥٣

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة الاسكندرية بالشاطبي

وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية

الى الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

هيئة تحرير المجلة:

- | | |
|----------------------------|---|
| الاستاذ محمد خلف الله احمد | عميد الكلية واستاذ الادب العربي |
| الدكتور ابو العلا عفيفي | استاذ الفلسفة الاسلامية |
| الدكتور جمال الدين الشيال | استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
وسكرتير التحرير |
| الدكتور عبد المحسن الحسيني | الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية |

مجلة
كلية الآداب
جامعة الإسكندرية



الجلدان السادس والسابع

١٩٥٢ - ١٩٥٢

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة الاسكندرية بالشاطبي

وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية

الى الدكتور جمال الدين الشيال سكرتير التحرير

فهرس القسم العربى

صفحة

- ١ - الفولكور فى ضوء علم الاجتماع
(محاولة فى المناهج) } للدكتور م. ث. الفندى ... ١
- ٢ - تخرج نصوص ارسططالية فى
كتاب الحيوان للجاحظ } للدكتور طه الحاجرى ١٥
- ٣ - علاقات فرنسا بشمال افريقية
فى النصف الثانى للقرن التاسع
عشر } للدكتور محمد مصطفى صفوت ٣٦
- ٤ - تاريخ صناعة النسيج فى
الاسكندرية فى عصر البطالة } للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق ٦٨
- ٥ - العلاقة بين صلاح الدين وأبى
يوسف يعقوب المنصور يوسف
بن عبد المؤمن الموحدى } للدكتور سمير زغلول عبد الحميد ٨٤
- ٦ - الاقسام الجغرافية لجزيرة
العرب كما تصورها المصادر
العربية } للدكتور عبد الحسن الحسينى ١٠١
- ٧ - مشكلات الرى فى دلتا النيل
تطور نظام الرى فى الدلتا } للدكتور محمد ابراهيم حسن ١٢٨
- ٨ - الدين والدولة فى عهد النبى
٩ - العمل والمجتمع } للدكتور محمد عبد العزيز نصر ١٦٢
- ١٨١ } للدكتور حسن الساعاتى ١٨١

النقد والكتب

- ١٠ - نقد كتاب
Catalogue of dated Fabrics
للدكتور Ernest Kuhncl } للدكتور عبد العزيز مرزوق ١٩٧

- ١١ - المكانة الادبية لفيرجيل شاعر
اللاتينية كما نراها نحن وكما
يرأها النقاد
للدكتور حسن عون ٢٠٢
- ١٢ - اميل برهيه وكتابه الاخير في
الفلسفة المعاصرة
للدكتور نجيب بلدي ٢١١
- ١٣ - وليام بير المستشرق الامريكى
للدكتور عزيز سوربال عطية ٢١٦
- ١٤ - تعليقات على بعض الاشارات
الفارسية في الاشعار العربية
للدكتور طه ندا ٢٢٥
- ١٥ - تقرير عن اعمال الحفروالتنقيب
في موسم ١٩٥٠-١٩٥١ بمنطقة
حفائر جامعة الاسكندرية
بأهرام الجيزة
الدكتور عبد المنعم أبو بكر ... ٢٢٢
- ١٦ - تقرير عن بعثة معهد فؤاد الاول
للصحراء الى شمال سينا (١٥)
اغسطس - ٩ سبتمبر ١٩٥١
للدكتور محمد السيد غلاب ... ٢٢٩

الفولكلور في ضوء علم الاجتماع (محاولة في المناهج)

للدكتور م . ث . الفندى

« ان الخرافات والاساطير اكثر حقيقة من التاريخ » . وليس في ذلك ادنى مغالطة اذ يتوقف الامر هنا على معنى « الحقيقة » من الوجهة الاجتماعية . ففند علماء الاجتماع ببدو الخرافة ان الاسطورة اكثر حقيقة من التاريخ لانها منتشرة في المجتمع وتكون واقعة اجتماعية ربما كان لها خطرهما ، وكمن من الاساطير المأخوذة ، وحطم دولا ، وكمن منها المنتظم في صورة اديان لها اتباع كثيرون » .

في محاولة الانسان لفهم ذاته تناول « بالبحث العلمي » جميع آثاره الفكرية حتى البسيط التافه منها كالاساطير والقصص الخرافية الشائعة عند الشعوب جميعها قديما وحديثا : فلقد امتدت المناهج العلمية أخيرا الى عالم الخرافات بعد عالم الواقع ، فتألف من الاساطير القديمة والقصص الخرافية المعاصرة المنتشرة علم « الفولكلور » الذي يشق في عصر شديد طريقه بين العلوم الانسانية الاخرى . وسبب العسر هو أنه لم يهتد بعد الى تنويع أبحاثه ونتائجه بالمبدأ القويم الذي يفسرها ، وبالنظرية العامة التي تلقى ضوءا ناصعا على تلك المادة الفلكورية الكثيفة التي أخذت تنمو على مر الايام ، فالنقص أذن يبدو أنه قص في طرائق هذا العلم وعسر في استكمال مناهجه الخاصة . وذلك لان الناظر في أحدث المؤلفات في هذا

الموضوع لا يسمعه الا أن يلحظ أنها دراسات مازالت تمر بمرحلتين
تنقصهما مرحلة ثالثة وضرورية .

أما المرحلة الاولى ونقطة البداية فهي جمع القصص الخرافية والاساطير
في القديم أو الحديث حسب البلاد أو العصور ووصفها وتحصيلها . وتلك
هي المرحلة التي تشبه مرحلة جمع الوثائق التاريخية في التاريخ ، أو الوقائع
العلمية في العلوم الطبيعية والانسانية .

أما المرحلة الثانية فهي دراسة تلك القصص الشعبية على أساس
التشابه والاختلاف ، والارتداد بها الى « نماذج » عامة مهما اختلفت
تفاصيلها وعصورها . وتلك هي مرحلة « التصنيف » المعروفة بصفة خاصة
في علوم الحياة حين ترد الكائنات الحية المختلفة الى أنواع وفصائل
مختلفة . ولقد نجحت للدهشة الشديدة تلك المرحلة في الدراسات الفلكورية
بحيث أصبحت هناك أصناف أو نماذج معينة يدور البحث في كل نموذج
منها على حدة : كنموذج « ألسست » (Alceste) الذي درسه ليسكى
Lesky بصفة خاصة ، ونموذج « أوديب » (Edipe) الذي درسه
الكثيرون واشتهر بصفة خاصة في الأبحاث الفرويدية ، ونموذج نزال
الاب والابن الذي أفرد له فان جنيب Van Gennep بحثا طريفا

أما ما بعد هاتين المرحلتين من مراحل المنهج في الأبحاث الفلكورية ،
فيشعر الناظر بخيبة أمل شديدة ، ونقص ذريع ، حين لا يجد الا النذر
اليسير من المحاولات الجادة في تفسير تلك « النماذج » العامة وفي فهم مغايزها
وظائفها . ذلك لان العلم والفهم العلمي ليسا مجرد جمع للوقائع وتصنيف
لها ، بل لابد من « تفسير » الوقائع المصنفة ، أي ادراك سبب كونها على
هذا النحو وليست على نحو آخر . فالادراك « بالسبب » أو القانون أو العلة
هو الادراك العلمي في أكمل درجاته ولا يوجد علم جدير بصفة العلمية الا
بعد أن يستوفي التعليل . تلك هي المرحلة الثالثة للمنهج العلمي التي تبدو
أنها غير مستوفاة في أغلب الدراسات الفلكلورية ، ويترك عدم استيفائها
شعورا بخيبة أمل في قيمة تلك الدراسات وأهميتها ومغزاها . ويلوح أن

السبب في عدم استيفائها هو تخطيط علماء الفولكلور في الاتجاه الصحيح نحو العلم أو النظرية التي تكون بمثابة المفتاح الذي يفضي الى سر تلك الوقائع المصنفة : أهى الميتافيزيقا أم علم الفلك أم علم النفس أم علم الاجتماع أم غير ذلك من العلوم التي هي أثبت قدما وأكثر استقرارا. بيد أن هذا التخطيط ليس هو السبب الوحيد ، اذ لابد من الاعتراف أيضا بأن علم الاجتماع لم ينضج بعد كل النضج ولم يستطع أن يقدم من جهته كل ما يضمن نجاح ولوج تلك الاسرار في وضوح النهار . ومع ذلك يبدو أن فيما خطاه علم الاجتماع المعاصر من خطوات موفقة ما يمكنه من اماطة اللثام عن تلك الوقائع الفلكلورية ويوفر مغزاها تفسيراً مرضياً ويحدد لها وظيفة في حياة الانسان . وبهذا التوجيه نحو علم الاجتماع تستوفى - فيما يبدو - المرحلة المنهجية الثالثة في الدراسات الفلكلورية على نحو علمى سديد كما سيتضح مما نعرضه الآن فيما يختص بفهم بعض الاساطير القديمة على ضوء علم الاجتماع وينبغي أولاً أن نستبعد كل تلك التأويلات الهينة الشائعة في الكتب الادبية والفلسفية فيما يختص بتفسير الاساطير :

فليست الاساطير مجرد ابداع شعري تفتق عنه الخيال الخصب والاحساس بالجمال في الاوساط الشعبية . فالاسطورة لا تولد كما تولد القصيدة وليست من وحى فرد عبقرى .

كذلك ليست الاسطورة تعويضا عن النقائص التي جبل عليها الانسان ، وتنقيسا عن رغباته المكبوتة في ليل الوجدان كما يؤخذ من آراء فرويد فيما أسماه « عقدة أوديب » مثلا . ذلك لان الحب المنحرف الذي يمكن أن يستخلص من أسطورة اوديب ليس تفسيره الممكن الوحيد الغريزة الجنسية المكبوتة .

وأخيرا ليست الاسطورة رمزا معنويا أو ميتافيزيقيا لبقا قصد بها أن تخفى بمهارة وراء صورها تعاليم خلقية أو دينية أو ميتافيزيقية ، كما يؤخذ مثلا من كتابات باشوفن Bachoven التي حملت بعض الاساطير المشهورة

تطورا ميزينيا ابتداء مما أسماه المبدأ الارضى الى المبدأ الشمسى ، أو من
المادة الى الروح ، أو من الشيوعية الى الفردية ، مما استغله كارل ماركس
وتلميذه انجلز في اثبات قدم الشيوعية عند الانسان . ومن هذا القبيل أيضا ما
حمله يرديايف Berdyaev من معان فلسفية عميقة لاسطورة أندروجين
Androgyne التى نجدها فى أفلاطون وعند الفيلسوف يعقوب بوهم
Jacob Boehme . فالاسطورة لاتحمل معنى ميتا فيزيقيا مقصودا أو
غير مقصود ولا يصح فلسفيا أن تبنى عليها فلسفة ما .

مثل هذه التفسيرات الهينة الشائعة فى الدراسات الادبية والفلسفية
أضحت بالية عتيقة منذ أن جدد علم الاجتماع طرقه ومناهجه بعد تردد
طويل فى الاهتمام الى أوثقها وأقومها . لقد تعثر علم الاجتماع طويلا
فاستند فى حلول مسائله تارة الى علوم الحياة وتارة الى البيئة الجغرافية
وتارة الى علم النفس وتارة الى غير ذلك من العلوم . ولم يستقم كعلم
مستقل الا عندما أخذ يفسر الظواهر الاجتماعية بالمجتمع نفسه ، أعنى
بمادات وتقاليده وتصورات المجتمع . فأصبح هناك نوع من « الحتمية
الاجتماعية » البحتة ترتبط فى داخلها الظواهر الاجتماعية المختلفة برابط العلة
والمعلول ، أعنى برابط القانون . ويبدو الآن أن الاساطير الشائعة فى
المجتمعات لاتشد على مثل هذا التفسير الاجتماعى ، وأنهما خاضعة للحتمية
الاجتماعية لانها فى صميمها انعكاس لحالات اجتماعية بحتة ليس لشاعرية
الفرد ، أو لاحلامه المنطلقة عن كبت الغريزة الجنسية ، أو لقدرته على الرمز
والابداع الميتافيزيقى الا أقل أثر ونصيب فى ابرازها .

وقبل نضوج علم الاجتماع حاول مؤلفون كثيرون فى القرن التاسع
عشر تفسير الاساطير تفسيراً مصطنعاً وان دل على ذكاء وفير عندما ربطوا
بين صورها وخيالاتها الرمزية وبين الظواهر الفلكية . والتفسير الفلكى
للأشياء التى تبدو غير مفهومة لغرابتها كان مألوفاً فى القرن التاسع عشر :
مثلاً نشأة الاديان والآلهة البدائية كانت تعزى بسهولة الى الكواكب
السماوية وما تتركه من رهبة فى نفوس الناس . ففى أسطورة أوديب التى

تمثل ميل الابن (أوديب) عن أبيه الى أمه رأى
 باشوفن السابق الذكر أن أوديب يمثل الشمس التي تنصرف على
 القمر (الاب) . وفي أسطورة أليست Alceste بطللة الوفاء لزوجها ،
 التي قبلت التضحية بالذهاب الى الجحيم لكي تطيل في حياته لان حياته
 ما كانت تطول في الجحيم الا بتضحية واحد من أقاربه ، رأى مؤلفون
 أمثال البرت كونت Albert Kunnt وروشييه Rocher ودوشادم
 Decharme أن الزوج (أدميته Admète) يرمز الى الشمس التي تتحد
 عند طلوعها بالفجر وهو « أليست » نفسها كما أن هذه الاخيرة هي
 أيضا الاصيل الذي يودع كل يوم الشمس الغاربة ويموت من أجلها لكي
 تطلع من جديد . تلك التفسيرات تتم عن ذكاء وقاد وتخريج ماهر فحسب
 لا عن علم يربط الوقائع المختلفة برباط العلة والمعلول ولذلك فهي غير
 جذيرة بالنقد .

وفي القرن التاسع عشر أيضا عندما كانت طرق علم الاجتماع دون
 الغاية فسر الاجتماعيون الاساطير في ضوء الحياة الزراعية للانسان ،
 أو على نحو أدق ربطوا بينها وبين فصول الزراعة . وفريزر Frazer
 صاحب « الفصحى الذهبى » المشهور هو القائل بتلك النظرية ، وعلى
 غراره درس كل من ايفانز Evans وبرسون Person اديان جزيرة
 كريت وأديان ما قبل الحضارة اليونانية وقالوا أنها تعبر باختلاف شعائرها
 عن تعاقب الفصول : ففي الشتاء مثلا تقام شعائر البكاء والنواح لآلهة
 الطبيعة النائمة الجرداء . وفي الربيع تقام مسابقات الثيران الشهيرة
 استنهاضا لآلهة الحياة والنمو وتنشيطا للقوة الحيوية في الاحياء . ولقد
 امكن لهؤلاء المؤلفين وعلى رأسهم فريزر تفسير الاديان الشرقية القديمة
 كلها على هذا النحو الزراعى : فأسطورة أوزوريس ، وأسطورة اتيس ،
 وأسطورة أدونيس ، وأسطورة ديمتروبرسفون ، ليس لها عند فريزر من
 معنى على اختلافها الشديد غير هذا التعاقب الدائم بين استعادة الطبيعة
 لشبابها وقوتها في الربيع وبين شيخوختها ووهنها في الشتاء .

وإذا كانت الاساطير في هذه النظرية أصبحت مسألة اجتماعية تعبر عن
 صلة المجتمع ببيئته الزراعية . فإن النظرية نفسها ما زالت بعيدة كل البعد
 عن جادة الصواب . حقيقة لقد نجحت النظرية كل النجاح في ايجاد تفسير
 عام لكل تلك الاساطير ، ومفتاح موحد يؤدي الى سرها المعلق . ولكنها
 مع ذلك نظرية غير علمية بكل معانى الكلمة لانها لم تحسب حساب الفوارق
 الكثيرة المعقدة التي لا توجد بين الاساطير المختلفة فحسب . بل أيضا بين
 الصور المختلفة التي تروى بها اسطوره بعينها . فالتقص الملحوظ في هذه
 النظرية أنها أغفلت الفوارق بين « النماذج » المختلفة للأساطير كما أغفلت
 الفوارق في داخل كل نموذج على حدة بين صوره العديدة المتغيرة . ولا بد
 من طريقة أخرى لتفسير تلك الفوارق الكثيرة وهى الطريقة التى تضع
 موضع الاعتبار الاول أن الاساطير انما هى انعكاس لحالة اجتماعية
 وتحمل طابع المجتمع الذى تنبت منه وتعيش فيه كأن تعبر عن نظمه العائلية
 أو الدينية أو الاقتصادية أو الخلقية أو الحربية أو الطبقة أو الصنونة
 أو غير ذلك مما يكون مجموع التصورات الجماعية لذلك المجتمع على حد
 تعبير أميل دوركيم * Durkheim . فاذا قدر لهذه الطريقة النجاح فإن علم
 الاجتماع يصبح بدون شك العلم الذى يلقي الضوء كله على حقيقة
 الاساطير وينقل في الوقت ذاته علم الفولكلور من مجرد علم يصف وفائمه
 ويصنفها الى علم « تفسرى » يربط بين الوقائع وأسبابها من وجهة نظر
 علم الاجتماع انما الاسطورة مجرد انعكاس لحالة اجتماعية معينة في صورة
 قصة شعبية . وهنا ينبغي تبرير ذلك الحكم : فالدراسات المقارنة للأساطير
 دلت على أن شعوبا متباعدة في حضاراتها زمانا ومكانا عبرت — رغم تباعدها —
 عن عواطفها ونظمتها بأساطير مقاربة ومنشابهة . وهذا مما يدل على أن
 الانسان أينما كان انما يعبر تعبيرا متشابها عن عواطف ومعانٍ دائمة ثابتة .
 ولكن مهما تشابهت التعبيرات الاسطورية بسبب وحدة العواطف في النوع
 الانسانى فانه مما لا شك فيه لا بد أن يبقى دائما فارق ولو بسيط يشير
 الى ما يميز مجتمعا عن غيره ويحمل طابعه الخاص . وهذا ما يدعوا دائما

الى ربط كل أسطورة بمجتمعها أكثر مما فعلت النظرية السابقة بحيث تبدو الاساطير انعكاسا حقيقيا لنظم المجتمعات •

يبد أن هذا التبرير أولى أو «قبلى» كما يقول الفلاسفة . وهو لكى يصبح « بعديا » كما يقول الفلاسفة أيضا لابد من استخلاصه من الوقائع والامثلة ولذلك تناول فما يلى بعض النماذج الاسطورية بالتعليين •

وأول ما نساوله من تلك النماذج أسطورة « ألسست » التى عنى ليسكى السابق الذكر بجمع رواياتها المختلفة • وتلك اسطورة لا يخلو منها فولكلور شعب من الشعوب :

فقى المانبا الشمالية نجد فتاة تتوسل الى بحار مجهول ألا يبحر بها فى سفينة • وبعد أن أعياها الوسيل لجأت الى ابويها ظنا منها بأنهما يفندينها بكل ما يملكان ولما خاب ظنها ظهر فجأة حبيبها الذى شق عليه رؤيتها تحضر بالسفر الى بحر مجهول وأثر أن يفنديها بشخصه فأخذ مكانها الى جوار البحار الذى هو بالطبع رمز الموت •

وفى أغنية يونانية حديثة بعض الشئ آتية من طرازون نجد فتى اسمه « ياس » يتأهب للزواج وعلى حين غرة بباغنه الموت ، فبفترح ياس مبارزته فرفض الموت ، ثم يتوسل يانس الى فديس أن يدعو الله أن يصرف الموت عنه وبطل فى عمره فقبل الله الدعاء بشرط أن يتنازل أبود أو أمه عن نصف ماتبقى له أولها من حياة • وهنا يرفض الابوان التصحية المريرة على حين تقبلها عن طيب خاطر حبيبته لتتخذ حياته • وتنتهى الاغنية بزواجهما •

وتوجد أسطورة ألسست فى صور مختلفة أيضا فى امريكا وفى الهند وعند السلافيين وفى الصين ، ويمكن استخلاص العنصر الثابت فيها كما يأتى : يحضر الموت فردا فى ريعان الشباب يطلب حياته أو حياة أخرى بدلا عنها • ويرفض أقرب الناس اليه وهما الابوان أدنى تصحية ، ويقبل الحبيب وحده تلك التصحية •

لقد نبعت تلك الاقصوصة عن عواطف أولية في الانسان ولكنها اختلفت في تفاصيلها وألوانها باختلاف المجتمعات . وعبرت عن نظمها الاجتماعية المختلفة : فعند الجرمانيين والسلافيين والشعوب الشمالية يضحي الفتى في سبيل محبوبته ، أما عند شعوب البحر الابيض المتوسط فتضحي الفتاة في سبيل حبيبها . لماذا هذا الاختلاف ؟ لان النظم الاجتماعية مختلفة وهي التي تنعكس على الاسطورة وتلونها بلونها الخاص :

وفي الواقع ليست المرأة عند شعوب البحر الابيض المتوسط شخصا هاما . أما الرجل فهو الذي يكون الاسرة بمعناها الروماني « *genos* » وعليه تقع تبعة بدائها خلال التاريخ . وهو كاهنها الديني الذي تحل فيه أرواح الاسلاف . وهو من جهة أخرى سيد الاسرة مع عبيدها . والمحارب في سبيلهم جميعا اذ ما شنت الدولة حربا . واذن فحياته تهم الاسرة والدين والدولة معا في حين أن حياة المرأة لاتهم المجتمع أو الالهة ولذلك تقع عليها التضحية أو القداء .

أما الحضارات السلافية والجرمانية والشمالية على وجه العموم فقد كانت على العكس من ذلك ضعيفة البنين الديني والاجتماعي . ولم يكن فيها للرجل غير قوة زراعة فحسب : فلم يكن كاهنا ولم تحل فيه روح الاسلاف . فكان بذلك مجردا عن كل قيمة عليا ترفعه فوق مستوى المرأة ، على حين أن المرأة تمتاز بسحرها ودلالها ومن ثم وجب على الرجل التضحية في سبيلها . واذن فالنظم الاجتماعية وحدها هي التي تلقى ضوئا على الاسطورة .

وهناك أسطورة عالمية أخرى هي أسطورة قتال الابن والاب التي درسها فان جنيب السابق الذكر . ومؤداها أن بطلا كثير الاسفار تسوفه قدماه الى بلد فتصل شهرته الى ملكها الذي يستضيفه في بيته . فتراه ابنته الجميلة وتطلب اليه أن تلد منه بطلا مثله . ويغادرها البطل بعد أن يترك علامة لابنه (غير الشرعي) . وعندما يبلغ الابن رشده ينشد معرفة أبيه فيجوب

بدوره البلاد ويشتبك في نزال مع بطل مثله هو أبوه ولكنه لا يعرف ذلك
الا عند احتضارهما أو احتضار أحدهما بسبب ذلك القتال .

تلك أسطورة لها نظيرها في أفاسيستا المصرية ، وهي عالمية
فيما يختص بالفتال بين الاب والابن على الأقل . ومثل هذا القتال في دانه
أمر ممكن في كل المجتمعات والحضارات وخاصة في الاوساط الحربية
والاقطاعية التجارية ، وقد سجل التاريخ انفصال ملوك تربط بينهم رباط
الابوة والبنوة . ولكن الامر الذي ليس عاما أو شائعا هو أنه حول تلك
السواة البسيطة يوجد الكثير من التفاصيل الدالة على نظم جماعة بعينها
دون أخرى . مثلاً طلب الفتاة ابنا غير شرعى وسفر البطل مباشرة بعد
معاشرته لها انما يعبر عن حالة اجتماعية كانت المرأة فيها سيدة متصرفة ومستقلة
بحسب تختار من تشاء من الرجال . وتلك حالة معروفة في كل الحضارات
التي كانت فيها البنوة « أمية » (نسبة الى الام) . لقد أثبت علم الاجتماع
منذ أواسط القرن التاسع عشر بما لا يدع مجالا للشك أن نقطه البداية في
أنساب الابناء هو النسب الامى . ولا يزال مثل ذلك النسب مشاهدا عند
بعض الشعوب البدائية العائشة الآن . وفي بعض شعوب أفريقيا ليس
الزواج تابسا بل مؤقتا ، أعنى أن الرجل يعيش في قبيلة امرأته خادما في
بيتها حتى اذا سئم الخدمة والعبودية عاد الى قبيلته دون أولاده وزوجه .
واذن فحدث عودة البطل بعد معاشرته زوجية مؤقتة دون مطاردته وتعقبه
لايدائه وهو الحادث الذي يتكرر في مختلف صور هذه الاسطورة ليس
اختراعا شعريا ولا تهجما على التقاليد وانما هو تراث وذكرى متخلفة عن
نظم وعادات قديمة يمكن أن تشاهد حاليا في بعض الشعوب .

لقد انقلت الاسرة بفصل ثبات الشعوب فوق الارض وتدهور النظام
الطوطمى وقيام الرجل بوظائف دينية واجتماعية هامة من « البنوة الامية » الى
« البنوة الابوية » . وهذا ما يشاهد بوضوح محكم في روما القديمة . ومنذ
هذا التحول الى النسب الابوى أصبح الرجل هو الذى يختار زوجه ، كما
أصبح الزواج وخاصة اذا اعترفت به الهنة الدينية ثابتا لا تنقسم عراه

بسهولة • ولقد فرض القانون الرومانى فوق هذا المساكنة الزوجية فى منزل واحد • ولكن يجب ألا ننسى أن هذا التحول لم يكن مفاجئاً ولا سريعاً ، بل كان لا بد من وجود فترة طويلة تداخل فيها النظامان القديم والحديث ، والنسب الامى والنسب الابوى • وهذا ما يفسر لنا كيف أنه فى الكثير من روايات هذه الاسطورة حيث تؤكد البنوة الامية وحيث يجهل الابن أباه لا يرضى الابن أن يظل مجهول الاب معروف الام وحدها ، فيبحث جاهداً عن أبيه • بل نجد أحياناً فى بعض روايات هذه الاسطورة أن الابن يخنق على أمه ويخنقها • مما يدل على أن هذه الاسطورة على اختلاف رواياتها إنما نبتت فى عصر انتقل من البوة الامية الى البنوة الابوية • أما افتتال الابن مع أبيه فيكون حينئذ مجرد رمز للصراع بين النظم الامية التى فى طريقها الى الزوال • والنظم الابوية الآخذة فى الاستمرار فى المشاعر والاذواق • على كل حال يبدو أن ما وصل اليه علماء الاجتماع من أنظار فى تطور نظام الاسرة أو نظام البنوة يلقى ضوءاً ناصعاً على هذا النموذج من الاساطير •

هناك نموذج آخر من الاساطير يسمى باسم « أوديب » لأن هذه القصة أشهر ما ينتمى اليه وهى قصة مختلفة الروايات اختلافاً كبيراً فى فولكلور السلافيين وسكان البحر الابيض المتوسط وفيها يولد الابن عن زواج مستقر ثابت وليس عن مجرد لقاء عابر بين ذكر وأنثى كما فى النموذج السابق ، ومن ثم يمكن القول بأن الحالة الاجتماعية التى تنتمى اليها هذه الاسطورة وتعكسها لنا إنما هى حالة البنوة الابوية التى انتقلت اليها المجتمعات الانسانية فى مرحلة متأخرة من مراحل تطورها •

لقد استغلت هذه الاسطورة فى دراسات متنوعة ، ميتافيزيقية ونفسية ، منذ كتابات باشوفن فى القرن الماضى الى كتابات فرويد المعاصرة • ولقد تناولها أيضاً علماء الاجتماع فدرسها هاريسون (Harisson) فى (The Social Origin of Greek Religion) فى محيط الحضارة اليونانية كما درسها جورج دوميزيل (Jupiter, Mars, Quirinus, Harace et les Curiaces) فى محيط

الحضارة الرومانية ، وفسرها كل منهما تفسيراً مختلفاً باختلاف الحضارتين ولكنه اجتماعى على كل حال .

يبدأ هاريسون من فكرة الموازنة التامة بين تطور الديانة اليونانية وتطور المجتمع اليونانى . ولقد مرت الديانة اليونانية بدورين : أولهما الديانة البدائية المتصلة اتصالاً وثيقاً بالنسب الامى ، والثانى الديانة الاولمبية القائمة على النسب الابوى . أما أن الديانة البدائية كانت أمية فتشبه نقوش فى جدران معبد الكايتول حيث نرى الام ثم الابن الالهى (Hermis) تلده أمه ، ثم تعذيه عزرة هى طوطم الام . ثم هو يمتطى العنزة كما اوكار فوى عرش . أما الاب (Kronos) فلا أثر له فى هذه الاسرة . ويستخلص هاريسون أن هذه القصة تمثل عصراً لم تكن للابوه فيه اعتبار اجتماعى وكان المجتمع العائلى يقوم على البنوة الامية وحدها . وعند بداية ظهور دور الاب (كرونوس) فى ذلك المجتمع الامى كان دوره مضحكا : فهو رغم كونه أبا كان يقوم بوظيفة أم لأن صورته الاولى كانت ذات طابع نسائى ، فجسمه نسائى ، وكان يحمل بين ذراعيه الابن الالهى ويعنى بشئونه عناية أم حقیقة ، وبالعجالة هو لا يشبه زيوس (Zeus) فى الديانة الاولمبية .

وعلى العكس من ذلك كانت الديانة الاولمبية معبرة عن أسرة أبوية . فزيوس يمثل الاب والسيد والاله . وهو فاتح جاء من الشمال ليأخذ عنوة « هيرا » (Hera) أميرة البلاد . كان مستبداً وقويا وغضوباً وشجاعاً ، وهو حارس القوانين وكاهن المعبد وحامى الاولمب ورب الاسرة .

كيف تفهم اجتماعياً هذين الوضعين المختلفين للاب ومكاته فى الاسرة؟ هنا يلجأ هاريسون الى أعياد اليونان : أعياد Tripatores وأعياد Apatouria التى تمثل نظم اجتماعية مختلفة فيبين أنه فى الأعياد الاولى يصلى الرجال لكى يلدوا هم أنفسهم أولاداً . لقد كان يهولهم أنهم لا يشاركون النساء فى الولادة ويتمنون لو استطاعوا أن يلدوا كما تلد النساء . فكأنهم بذلك

كانوا يشعرون هم أنفسهم بعدم أهميتهم بالنسبة الى المرأة في أحضان الاسرة ، وبذلك لم يكونوا ركنا من أركانها . أما الاعياد الثانية فتمثل انتصار الاب والبنوة الابوية ، وغرضها الوحيد الاحتفال بالبنوة الابوية : ففيها تمجد عشيرة الاب أعنى قرابة الدم الابوى . وتحرق البخور لزوس وابنته أثينا Athena وابنه ابولون Apolon الذين يؤلفون ثلاثتهم فقط (دون الام) نموذج الاسرة الباتمة السعيدة . ويؤيد هاريسون رأيه بما كتبه المؤلف اليونانى القديم ايشيل Eschyle في (Eurmerides) حيث يقول أن الام لامرأة لها بأولادها وإذا كانت بلاد اليونان كلها لاتفصل أثينا عن أخوها ابولون فما ذلك الا لكونهما من أب واحد فحسب . وكأنما الام بذلك غير موجوده . وفي الواقع تذهب الحرافد اليونانية الى أن أثينا انما نبتت من رأس زيوس وحده دون حاجة الى أم .

فأسطورة أوديب تعكس لنا اذن هذا المجمع الابوى الذى تطورت اليه بلاد اليونان واستأثر الاب فيه بكل شيء في الاسرة بحيث يحس فيه الابن أوديب حيننا ملحوظ الى أمه المبعدة عن نطاق الاسرة مما قرره فرويد تفسيراً جنسياً فحسب في حين أن الحياة الاجتماعية وحدها هى التى تلقى الضوء كله على هذا التعلق الخفى بالام كما رأينا .

وفيما يختص بروما جاء دوميزيل بتفسير لقصة « هوراس » (التى تقابل أوديب اليونانية) على نحو يختلف عما تقدم . فعنده أن الاساطير الرومانية ليست الا صدى لحالة اجتماعية « هندو أوروية » ، وهى حالة انقسام المجتمعات الهندو أوروية الى طبقات ثلاث : (١) رجال الدين (٢) المحاربون (٣) الزراع والرعاة . وهو انقسام له أثره الواضح أيضا في ثلاثية الالهة الرومانية : جوبتر ، ومارس ، وكويرينوس ، الذين يمثلون الطبقات الثلاثة على الترتيب ، كما له أثره أيضا في تسابع ملوك روما القديمة : فروميلوس (Romulus) يمثل الطبقة الاولى ، وتولوس (Tullus) الثانية ، وتاتبوس (Tatius) الثالثة . وعلى ضوء هذا الانقسام الطبقي الذى يهيمن على كل النظم الرومانية يرى دوميزيل أن قصة هوراس انما

هى ابراز أهمية الوظيفة الحربية التى يقوم بها الابن (هوراس) وبالنسبة
الطبقة الثانية ودورها فى انشاء المجتمع الرومانى .

ويبدو أن مثل هذا التفسير الاجتماعى فيه تحريج بعيد ، ولربما كان
من البسيط أن تضاء قصة هوراس كما اضيئت قصة أوديب اليونانية
بفكرة انتصار المجتمع الابوى انتصارا حاسما فترى حينئذ ما قد يدفع
الابن الى مقاومة أبيه المستبد حنايا بأمه التى لم تعد لها مكانة ما فى أحضان
الاسرة .

يمكن أن نشير أخيرا الى نموذج أسطورة ايروس (Eros أو الحب)
وبسكه (Psyche أو النفس وهو أيضا سم فتاة) الموجودة عند كل الشعوب
والتي أبدع ريش الرسامين فى ابرازها على لوحات خالدة . ومؤدى
القصة اليونانية أن بسكه تحترق حبا لزوجها المنحفى الذى لا يزورها الا فى
ظلام الليل وتود لو أنها عرفت فى وضوح النهار . وعندما استبد بها حب
الطلع ودفعها اختها الحاسدة لها على حبها وأقدمت على سؤال زوجها عن
اسمه فان زوجها - وهو الحب بعينه - هجرها نهائيا وتركها فى آلام
مبرحة .

تلك هى أيضا القصة التى سمعناها مرارا فى أعماق الصعيد عن
الزواج « بجنية » أو « جنى » والتي ترد أيضا فى أقاصيصنا الشعبية
القديمة .

فقصة بسكه وقصة الزواج بجنية أو جنى التى تشابهها كثيرا ، يمكن
تفسيرها أيضا على ضوء ماكشفه لنا علم الاجتماع عن فكرة « المحرمات »
أو « التابو » Tabous عند الشعوب البدائية . والواقع أنه لا توجد
محرمات أكثر عددا وتعقيدا عند الشعوب البدائية من تلك التى تخص
تحديد العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة . فعند بعض الشعوب يحرم
على الرجل والمرأة الحديثى الزواج أن يتلاقيا فى وضوح النهار . وأحيانا
كثيرة ليس للمرأة حق النطق باسم زوجها . وعند قبائل الزولو تتحاشى

المرأة بأعجوبة فائقة أن تنطق حتى بالمقاطع التي يتألف منها اسم زوجها .
 وفي قبائل أخرى لا يصح للرجال الذهاب الى أكواخ نسايتهم الا في جنح
 الظلام . مثل تلك المحرمات وغيرها انما يراعى أداؤها حرفيا في المجتمعات
 البدائية ، واذا خرج عليها الانسان حلت به لعنة الطوطم (Totem) وهذا
 هو ما حل بيسيكه عندما خرجت على المحرمات وأرادت أن تنطق بالاسم .
 تلك أمثلة يسيرة من نماذج الاساطير التي صنفها الفولكلوريون . أردنا
 أن نبين بصدد هذا أن الاقاصيص الشعبية منظومة أو منشورة ليست من
 اختراع خيال شعري ، وليس رموزا لتعاليم يراد اخفاؤها . وليس
 أيضا مجرد أحلام تعرض عن النقائص المحتومة على الانسان . ولا يمكن
 تفسيرها تفسيراً علمياً سليماً على ضوء علم النفس أو علم الفلك أو غير ذلك
 مما لجأ اليه بعض المفكرين . وان الوسيلة العلمية السديده الى فص
 أسرارها وادراك وظيفتها انما هو علم الاجتماع . لقد بنا بمناسبة كل
 نموذج أسطوري أى النظم أو الحالات الاجتماعية يشف عنه النموذج
 ويرتبط النموذج به ارتباط النتيجة بمقدمتها أو المعلول بعلمه . فثرت من
 علم الاجتماع بعض المسائل (كالنسب الامى والنسب الابوى والطبقات
 والتابو والمحرمات وغير ذلك) وأومأنا اليها عابرين دون الوقوف عندها لان
 هنا فى غير موضعه ، ولاننا انما هدفنا قبل كل شىء الى بيان ضرورة استكمال
 مناهج الفولكلور بمرحلة « تفسيرية » تتوج تلك المناهج وتلقى ضوءاً على
 ظلام الاساطير . واعتقدنا أننا وجدنا تلك المرحلة التفسيرية فى ما يقدمه
 لنا علم الاجتماع المعاصر من حلول ومسائل . وهذا هو الطريق القويم
 الذى سلكه كل من هاريسون ودوميزيل بصفة خاصة ويتحتم على
 الفولكلوريين اتباعه منذ الآن . كذلك هدفنا من وراء هذا كله التنبيه الى
 العناية بجمع الفولكلور المصرى على ضوء المبادئ المنهجية التى ذكرناها .

م . ث . العندى

تخريج نصوص أرسططاليتة

في كتاب الحيوان للجاحظ

للدكتور طه الحاجري

إذا كان الجاحظ يعد . بحق ، من أكبر شخصيات عصره نمثلا لنفاة هذا العصر واحاطة بها وتمثيلا لها في وجوهها المختلفة ، فإن كتابه الحيوان يعد من أول آثاره وفاء بهذه الناحية . حتى لنعد دراسته ونبين مصادره من أهم ما يكشف لنا عن صور هذه الثقافة واتجاهاتها وبياباتها . ومدى ما تأثر به العقل الاسلامي في هذه المرحلة من تاريخه .

ومن بين المصادر التي صدر الجاحظ عنها في وضع كتابه هذا كتاب الحيوان لأرسطو . وكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي نقلت الى العربية ، وقد ظفر غير مرة بعناية المترجمين به . ذكر ذلك ابن النديم في الفصل الذي عقده لأخبار أرسططاليس وترتيب كتبه ، قال : « الكلام على كتاب الحيوان ، وهو تسع عشرة مقالة نقله ابن البطريق . وقد يوجد سريانيا نقلًا قديما أجود من العربي . وله جوامع قديمة ، كذا قرأت بخط يحيى بن عدي في فهرست كتبه . ولنيقولاوس اختصار لهذا الكتاب ... وقد ابتدأ أبو علي بن زرعة بنقله الى العربي وتصحيحه » (١) .

(١) الفهرست ص ٣٥٢ ط مصر ، وهو نص ما ذكره القفطي عنه (اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢١ ط مصر ، ١٣٢٦ هـ) ، الا ان عبارة ابن النديم تدل على ان ابن زرعة لم يكن قد اتم ترجمته بعد ، ولذلك لانجد لهذه الترجمة ذكرا في بيان كتبه كما أورده ، فاما القفطي فتدل عبارته على انه اتمها ، ويختم نصه بقوله : « وملكت منه نسخة والحمد لله تعالى » . وكذلك يذكر هذه الترجمة بين كتبه التي ترجمها عن أرسططاليس ، كما يذكر بينها أيضا كتاب مناقع اعضاء الحيوان بتفسير يحيى النحوي (ص ١٦٤) .

أما أبو علي بن زرعة هذا فهو عيسى بن اسحاق بن زرعة . أحد المتقدمين في علم المنطق وعلوم الفلسفة والفظة المجودين . كما يذكر في نفسه القفطى وابن أبي أصيبعة ، وكان من أهل القرن الرابع «^١» . فلم تكن ترجمته اذن لكتاب الحيوان هي الترجمة التي عرف بها الجاحظ هذا الكتاب وصدر بها عنه ، فاذا لم يكن لحيوان أرسطو ترجمة أخرى غير ما ذكر ابن النديم تمين أنه لم يكن هناك وقت أن كتب الجاحظ كتابه غير ترجمة ابن البطريق .

وأما ابن البطريق المقصود هنا فهو أبو زكريا ، يحيى (أويوحنا) بن البطريق . كان أبوه أحد النقلة في أيام المنصور ، وكان هو في جملة الحسن بن سهل . كما يقول صاحب الفهرست . «^٢» أما القفطى فيذكر انه مولى المؤمن . ولا تعارض . وأنه «^٣» كان أميناً على الترجمة ، حسن الذاكرة للمعاني ، الكن اللسان في العربية ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، وهو تولى ترجمة كتب أرسططاليس خاصة . وترجم من كتب بقراط . مثل حنين وغيره «^٤» . وأما ابن أبي أصيبعة فيقول في صفته انه «^٥» كان لا يعرف العربية حق معرفتها . ولا اليونانية . وإنما كان لطيفاً يعرف لغة الروم اليوم وكتابتها . وهي الحروف المصلة لا المفصلة اليونانية القديمة «^٦» . ولا ندري مبلغ ما في هذا القول من الصحة أو الدقة .

وبذكره الجاحظ في بعض الفصول التي صدر بها كتاب الحيوان أول من يذكر من مترجمي أرسططاليس . اذ يقول : «^٧» فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمه وأبو قره وابن فهرز وتيوفيلي وابن المفتح مثل

(١) يخلف القفطى وابن أصيبعة في تاريخ مولده ووفاته . فبينما يذكر القفطى ان مولده سنة ٢٢١ ووفاته سنة ٢٩٨ يذكر ابن أبي أصيبعة انه ولد سنة ٣٧١ ومات سنة ٤٤٨ ، وهو يقول في سياق ترجمته له انه كان كثير الصبغة والملازمة ليحيى بن عدي (عيون الالباء ١ : ٢٣٥) ، ويحيى بن عدي توفي سنة ٣٦٤ . فالصحيح اذن هو ما ذكره القفطى .

(٢) اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤٨ - (٣) عيون الالباء ١ : ٢٠٥

أرسططاليس « ١ » . وكل هؤلاء يذكرون بترجمتهم لأرسطو خاصة ، وينفرد ابن البطريق منهم بأنه هو الذى ترجم كتاب الحيوان . مما يظاهر افتراض القول بأن الترجمة التى كانت بين يدى الجاحظ لحيوان أرسطو هى ترجمة أبى زكريا ابن البطريق هذا

ولم يكن موقف الجاحظ من هذه الترجمة موقف التسليم لها ، فقد كان يحول دون ذلك رأيه فى الترجمة عامة . ومبلغ ما تستطيع أن تؤديه عن الاصل . وكان يعرف أسباب النقص التى تعور هذا العمل . وتقف به دون العناية المرجو لها . من قصور المعرفة . وضعف الآلة . ثم ما يعرض للكتب القديمة من أسباب المسخ والتشويه

فعنده « ان الترجمة لا يؤدى ابداً مافال الحكيم . على خصائص معانيه . وحقائق مذاهبه . ودقائق اختصاراته . وخفوت حدوده . ولا يقدر أن يوفى بها حقوقها . ويؤدى الامانة فيها . ويقوم بما يلزم الوكيل . ويجب على الجرى . وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها . والاخبار عنها على حقها وصدقها ، الا ان يكون فى العلم بمعانيها . واستعمال تضاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه فى نفس الترجمة فى وزن علمه فى نفس المعرفة ، وينبغى أن يكون العلم الساس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية . ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم لسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما وكلما كان الباب من العلم أعمر وأضيق ، والعلماء به أقل . كان أشد على المترجم ، وأجدر أن يخطئ فيه ، ولن تجد البتة مترجماً يفى بواحد من هؤلاء العلماء « ٢ » .

فهذه هى شرائط الترجمة الصحيحة المؤدية لحقائق الاصل المنقول : معرفة دقيقة أصيلة محيططة بالموضوع ، وعلم تام بالغ باللغة المنقولة والمنقول اليها ، وهذا ما لا سبيل عند الجاحظ اليه ، فادا أضيف الى ذلك أن الكتاب

(١) الحيوان ١ : ٧٦ - (٢) المصدر نفسه ١ : ٧٥ - ٧٧ .

القديم «قد تداولته اللغات واختلاف الافلام وأجناس خطوط المال والامم»
فصار لا يؤمن عليه ضروب التبديل والفساد . « ولا يرال الكتاب تتداوله
الايدي الجانية ، والاعراض المفسدة ، حتى يصير غلظا صرفا وكذبا مقصدا .
فما ظنكم بكتاب تنعاقبه المترجمون بالفساد ، وتعاوده انحطاط بشر من
ذلك أو بشئه » (١) كما يقول الجاحظ . فقد أصبح هذا كسب المترجمة
عنده معمورة الريب . لا يسكن اليها . ولا تطمئ الى صحتها .

وكذلك كان رأيه في مترجم حيوان أرسطو خاصة . نجد هذا في سياق
كلامه عن بعض الدعاوى في السمك مما جاء عن أرسطو وعمره . وذلك في
تعليقه على خبر من هذا القمل محكى عن يدس بن معاذ . « مطلقا في الخطأ
البيان ، اذ يقول في هذا العلنى : كيف أسكن بعد هذا الى أخبار
البحرين وأحاديث السماكين ، والى ما في كتاب رجل عنه أن وجد هذا
المترجم أن يقيمه على المنصبه . ويرى الى الناس من كذبه عليه ومن أسدده
معانيه بسوء ترجمته » (٢) .

ولعل هذا هو وجه قوله في موضع آخر : « وقد سمعنا من من صاحب
المنطق من قبل (يعنى : في الخلق المركب) . وما نطق بمثله أن يخلد على
نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صيدها أشباهه
من العلماء » (٣) .

ولكن ارتياب الجاحظ في هذه الصورة التي من يده من كتاب أرسطو
لم تمنعه من الرجوع اليها في تأليف كتابه فقد أراد أن يكون كتابه هذا
صورة مجتمعة للمعارف المحلفة في الحيوان . ما مسح منها عسده وما لم
يصح . وحسبه أن ينقد ما يراه خطأ ، ويذكر الشبهة حين تعرض له

وقد تتبعنا في هذا البحث النصوص التي أخذها الجاحظ من كتب
الحيوان لأرسطو . وتعرفنا مواضعها من هذا الكتاب . وأخذنا في المقارنة

(١) المصدر نفسه ١ : ٧٩ - (٢) المصدر نفسه ٦ : ١٩ - (٣) المصدر
نفسه ١ : ١٨٥

بين كل منها في الصورة التي أوردتها الجاحظ والصورة التي جاءت في كتاب
أرسطو ، تلى النحو الذي وصل إلينا . وكان من حق البحث العلمي
الرجوع الى الاصل اليوناني . ولكننا لم نجد بدا من الاكتفاء في هذا
بالترجمة الفرنسية التي دام لها العلامة ساليير Barthélemy Saint Hilaire ^(١)
وسنرى أن هذه المقارنة تكشف لنا عن كثير من المسائل الجديرة بالبحث .
وأنه تسجح كثيرا من الأخطاء التي وقعت في الشترتين اللتين بين أيدينا من
حيوان الجاحظ ^(٢) . كما أنها تتضمن فوق هذا ما يفيد الباحث في نص
أرسطو . وما قد يجد فيه أداة جديدة لتحرير عبارته . والموازنة بين قراءاته
المختلفة في النص اليوناني

وهامى دي زونوس أرسطو مرتبة حسب مواعيدها في كتاب الحيوان
للجاحظ :

الجزء الاول :

هل الجاحظ عن أرسطو في الجزء الاول من الحيوان غير مرة : وان
نكس الطبعة الثانية لا تقدم لنا الا قطعة مبسورة . هي هذا النص الذي أوردته
عنه في سياق كلامه عن الخلق المركب :

١ - « وزعم صاحب المطلق أن أصناف آخر من السباع المتزاوجات
المختلفات : مع اختلاف الجنس والصورة . معروفة النساج ،
مثل الدئاب التي تسفد الكلاب في أرض رومية . فال : وتولد أيضا كلاب
سلوقية من ثعالب وكلاب . فال : وبين الحيوان الذي يسمى باليونانية

(١) تقع حيوان أرسطو كما ترجمه ساليير في هذه الكتب الثلاثة :
Histoire des animaux ; Traité des parties des animaux et
de la marche des animaux ; Traité de la génération des
animaux

ورد طبع في باريس في سنة ١٨٨٢ . ١٨٨٥ . ١٨٨٧ - ٢ . الطبعة الاولى بين
سنة ١٢٢٢ وسنة ١٣٢٥ هـ ، والطبعة الثانية بحقيق وشرح الاسناد عبد
السلام هرون ، ط مصطفى البابي الحلبي بين سنة ١٣٥٦ (١٩٢٨ م) وسنة
١٣٦٤ (١٩٤٥ م)

(طاغريس) وبين الكلب تحدث هذه الكلاب الهدية • قال : وليس يكون ذلك من الولادة الاولى « ١ » •

وينتهي النقل عن أرسطو في هذه الطبعة سد هذا الحد • أما في الطبعة الاولى فيسقى النص محكيا عن أرسطو هكذا : « ورعم أن نتاج الاولى يخرج صعبا وحشيا لا يألف ولا يؤلف : وزعم أن الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلفح • ثم تعرض لمثله مرارا • حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين • وأنهم يأخذون انثى الكلاب ويربطونها في تلك البرارى • فتجىء هذه السباع وتسفدها • ولبس في الارض انثى يجتمع على حب سفادها • ولذا ذكر يجمع له من الزرع انثى سفاد الاجناس المختلفة • أكثر في ذلك من الكلب والكلبة • قال : وإذا رابطوا هذه الكلاب الانثى في تلك البرارى فاذا كانت هذه السباع هائجة سفدنّها • وإن لم يكن السبع هائجا فالكلبة مأكولة « ٢ » •

وهذا الجزء الثانى من النص فصلت الطبعة اثنائه بنه وبين الجزء الاول • اعتمادا على احدى المخطوطات الى اعتبارها المشر أجود النسخ وأصحها • وهى مخطوطة كوبريلى • بما يجعل الجزء الاول هو وحده المروى عن أرسطو • أما الجزء الثانى فقد صدر القول بأن نتاج الاولى يخرج صعبا وحشيا الخ بهذه العبارة : « فل أبو عثمان عن بعض البصريين عن أصحابه ، قال : وزعموا • • • » • كما وضع بين يدى سائر النص بعد ذلك هذه العبارة : « وزعم لى بعضهم عن رجل من أهل الكوفة من بنى تميم • • »

ويقابل هذا النص من حيوان أرسطو ما جاء في الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان • وهما هو ذا منقول الى العربية عن الترجمة الفرنسية لساتيلير :

(١) ١٨٣ : ١ - ١٨٤

(٢) ٨٥ : ١

« وهناك حيوانات تتولد من اختلاط جنسين مختلفين ، ففي قورينا (Cyrènes) تتسافد الذئاب وأبناث الكلاب فتنتج ، وكلات لكونا (Laconie) تجيء من ثعلب وكلب ، ويؤكدون أيضا أن كلاب الهند تتولد بين النمر والكلبة ، ولكن ذلك لا يكون في أول نواج ، بل في الجيل الثالث ، لأن نتاج الجيل الاول ما يزال بعد حيوانا أشقر اللون . وهم لذلك يذهبون بأبناث الكلاب الى البرية . ويربطونها هنالك ، وكثيرا ما تفترسها النمر قبل أن تجد واحدا منها تدفعه اليها الرغبة الملحة في السفاد » « ١ » .

وأول ما يبدو من المقارنة بين نص أرسطو كما أورده الجاحظ . ونصه كما نقله ساتييار أنه في العربية مبسوط وفي اليونانية موجز . ولكن مهما يكن من أمر هذا الخلاف . فإن النص كما جاء في حيوان أرسطو لا يدع شكاً في أن حق النص الذي يرويه الجاحظ أن يكون كما جاء في الطبعة الاولى وأن مازادته الطبعة الثابتة عن مخطوطة كبريلي مقحم لوجه له .

والشيء الآخر الذي تدل عليه المقارنة هو أن كلمة « رومية » ليست الا تصحيحاً لكلمة « قورية » كما أن كلمة سلوقية انما هي كذلك تصحيف لكلمة « لقونة »

على أن هنالك في هذا الجزء الاول مواضع يبدو أن الجاحظ صدر بمعارفه فيه عن حيوان أرسطو ، وإن لم تجيء مسبوقة بالنسبة اليه ، كما هو شأنه . من ذلك بعض حديثه عن الخصاء . كقوله :

٢ - « ومتى خصى قبل الانبات لم ينبت . وإذا خصى بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه تساقط كالأشعر العانة ، فانه وإن نقص من غلظه ومقدار عدده فإن الباقي كثير ، ولا يعرض ذلك لشعر الرأس ، فإن شعر الرأس والحاجبين وأشعار العينين يكون مع الولادة » « ٢ » .

فقارئ هذا النص ، وإن لم يكن مسبوقاً بما يدل على حكايته عن
 أرسطو ، لا يملك إلا أن يتقف أمام الشبه القوي بين قول أرسطو في
 الفصل السابع والثلاثين من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان . إذ يقول
 في سياق الكلام عن الظواهر التي تنشأ عن خصاء بعض أنواع الحيوان :
 « ومثل هذا يحدث حتى الرجال . فإذا برت أعضاؤهم التناسلية في
 طفولتهم ، فإن الشعر الذي ينبت بعد الولادة لا ينمو ، وكذلك الصوت
 لا يتغير . بل يبقى له رائحة الحاد ، أما إذا خصى الرجال عند البلوغ ، فإن
 هذا الشعر يسقط ، إلا شعر العانة ، فإنه يبقى ، وإن يكن نضاً ويضعف .
 أما شعر الولادة فلا يختفى . إذ أن الخصى لا يصيبه الصلع مطلقاً » (١) .

وهكذا نرى أن النص يكاد يكون واحداً في حيوان الجحظ وحيوان
 أرسطو ، إلى الحد الذي يبعد فيه لدينا أن يكون شذوذاً من ضمن الموارد .
 ويحتمل معه عندنا احتمالاً دوناً أن يكون لفظ السبب قد سقط من النسخة
 التي صدرت عنها النسخة التي بين أيدينا . ذلك أمر غير قليل .

الجزء الثاني :

وفي الجزء الثاني من حيوان الجحظ كثير من المسموسات المأخوذة من
 حيوان أرسطو

٣- قال : « وزعم صاحب المطلق أن الكلاب إذا كان في أحواضها دود
 أكلت منبل القمح فتبرأ » . وزعم أن الكلاب تأتي حشيشة تعرفها بعينها ،
 فتأكل منها فتبرأ » (٢) .

وهذا النص مؤلف — كما نرى — من جريء . وكلاهما يقع في القسم
 السابع من الكتاب التاسع . من تاريخ الحيوان . ولكن غير متجاورين

فأما الجزء الأول فتقع في الفقرة السادسة من ذلك الفصل ، كما هو في هذه الترجمة العربية التي أوردها الجاحظ ، حتى لتلتقي الترجمتان البقاء تاما :
 « Quand les chiens ont des vers, ils mangent du blé en herbe »
 وأما الجزء الثاني فيقع في الفقرة الثانية من هذا الفصل في تطابق يكاد يكون تاما :
 « Les chiens malades savent se faire vomir en allant manger de certaine herbe » : (٢)

لولا أن النص العربي لم يتضمن معنى القيء . وليس يبعد عندي أن تكون كلمة « بعينها » فيه مصحفة عن : « تقيئها »

ويلى هذه الفقرة في حيوان الجاحظ فصل عقده عن عداوة بعض الحيوان لبعض ، وتقل معظمه عن حيوان أرسطو . قال :

« ... ورعم صاحب الملق أن العقاب تأكل الحيات . وإن بسوء اعدارة . لأن الحية ليس طلب بضها ومراحها . بل : والغداف يسبل البومة . لأن الغداف تحطف ببض البومة نهارا . وتشد البومة على بيض الغداف لئلا يأكله . لأن البومة دليلة بالهار ردية اسطر . وإذا كن الليل لم يقو عليها شيء من الطير . والطيور كلها تعرف البومة بذلك ومنبعها بالليل . فهي تطير حول البومة وتضربها وتنقب ريشها . ومن أجل ذلك صار الصيادون يسحبونها للصيد . والغداف يستل من عرس لتأكل بضه ومراحه . قال : ومن الحداد والغداف قتال . لأن الحداد تحطف ببيض الغداف ، لأنها أشد محانب وأسرع طيرانا . وبين الامرعة واشتقراق قتال . لأنه يقتل الامرغة ويطلبها . وبين العنكبوت والعظاية عداوة . والعظاية تأكل العنكبوت . وعصفور الشوك يبعث بالحمار . وعينه ذلك قتال له . لأن الحمار إذا مر بالشوك وكان به ديرة أو جرب ، تحكك به ، ولذلك متى نهق الحمار

(١) v. 3, p. 158

(٢) v. 3, p. 156 وقد ورد هذا المعنى في موضع آخر ، في الفصل السابع

من الكتاب الثامن ، في سياق الحديث عن الحيوان آكل اللحم (v. 3, p. 40)

سقط بيض عصفور الشوك . وجعلت فراخه تخرج من عشها . ولهذه العلة يطير العصفور وراء الحمار ويقر رأسه . والذئب محالف للثور والحمار والثعلب جميعا ، لانه يأكل اللحم النيى ، ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب . وبين الثعالب والزرق خلاف لهذه العلة . لانهما جميعا يكران اللحم . والغراب يحالف الثور ويخالف الحمار جميعا . ويطير حولهما وربما نقر عيونهما . . . قال : والحية تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عرس وانما تقاتل ابن عرس اذ كان مأواهما فى بيت واحد ، وتقاتل الخنزير لان الخنزير يأكل الحيات . ويزعمون أن الذى يأكل الحيات القنافذ والاولع والحنزير والعقبان . قال : فالحبة تعرف هذا من الخنزير . فهى تطالبه . قال : والغراب مصادق الثعلب . والثعلب مصادق الحية ، والاسد والسر محلفان . قال : وبين القيلة اختلاف شديد . وكذلك ذكورها وأنثاها . وهى تستعمل الاراب اذا قاتل بعضها بعضا ، وتعتمد بها على الجبان فتهدمها . وتزحم النخلة بجنبها فتصرعها . وادا صعب من ذكورها شىء احتلوا له حتى يكومه آخر فاذا كامه خضع أبدا . واذا اشتد خلقه وصعب عصبوا رجله فسكن . « ١ »

وهذا الفصل مأخوذ من الفصل الثانى من الكتاب التاسع من تاريخ الحيوان . حيث تحدث أرسطو عن أسباب اعداوة بين الحيوان . ثم انص الى عرض طائفة من مظاهر هذه العداوة ، فقال :

« والعقاب والحية عدوان . لان العقاب تفتدى بالحيات . . . والغداف يقاتل البومة ، فاذا كانت البومة لا ترى جيدا وسط النهار . فان الغداف يأخذ بيضها ويأكله ، فاما بالليل فان البومة هى التى تأكل بيض الغداف ، فأحدهما أقوى من الآخر أثناء النهار ، والثانى أقوى أثناء الليل . . . وفى النهار تطير كل صغار الطير حول البومة . ويقال أن ذلك من أجل الاعجاب بها ، ولكها وهى تطير حولها تنتف ريشها ، وهكذا يصطاد الصادون صغار المصافير من كل نوع بواسطة البومة التى تجذبها اليها . وبين الطائر

الملقب بالشيخ (le sénateur) والغداف وابن عرس عداوة ، لان الشيخ وابن عرس يأكلان بيض الغداف وصغاره ... وبين النقار (le bic vert) واللبى والحدأة والغراب قتال ، لان الحدأة تخطف من الغراب كل ما يفترسه لنفسه ، ولأن الحدأة أشد مخالب وأسرع طيرانا .. والحرب سائدة أيضا بين العظاية (le stellion) والعنكبوت ، لان العظاية تأكله .. وبين الأجيث (l'ægithé) والحمار قتال . واليك السبب : فالحمار يمر بالشوك يحك به قروحه . فادا أخذ في النمرغ فيه ورعيه . اسقط البيض ، وتفرع الصغار فتخرج من أعشاشها . فيطير الأجيث فوق الحمار ينقر قروحه ، ليدفع ذلك الحيران . وبين الذئب وبين الحمار والثور والثعلب عداوة . وادا كان من أكلة اللحم فهو يعدو على البقر والحبر والثعلب ، وذلك هو سبب ما بين الثعلب والزرق من عداوة ، فالزرق من أكلة اللحم وله مخالب ، فينقض على الثعلب . ويضربه ، فيحدث له جروحا خطيرة . والغراب عدو الثور والحمار . يطير فوقهما ويضربهما وينقر عيونهما ... والحية تقاتل ابن عرس والخنزير . فهي تقاتل ابن عرس حين يكون كلاهما في جحر واحد . اذ يشتركان في طعام واحد . وأما الخنزير فهو يأكل الحيات ، وعلى العكس من ذلك يتوافق الغراب والثعلب في يسر ... والاسد والتوس (le thôs) عدوان لاتهدأ عداوتهما . والقبيلة تقتل فيما بينها فبالاعينما : مسعملة أنيابها ... ويستعمل الهنود القبيلة في الحرب ذكورها واناثها ، وان تكن الاناث أصغر جرما وأقل شجاعة ، وللفيل من القوة ما يهدم به الجدران اذ يضربها بأنيا به الضخمة ، كما يعتمد على النخيل بجيئته حتى تنحني ، وعندئذ يدوسها بأقدامه حتى تقع على الارض بطولها كله . وهامى ذى الطريقة التى يصطاد بها الفيل : يطارد جماعة من الناس يركبون فيلة مروضة جسورة فيلة أخرى ، حتى اذا لحقوا بها جعلوا القبيلة التى يركبونها تضربها ، حتى تخضع خضوعا تاما ، وحينئذ يركب سائق ويسوقها برمحه (sa faulx) فتذل وسرعان ما تخضع وتطبع ، وتظل القبيلة خاضعة مادام السائق راكبا ، فاذا وضع على الارض قدميه ، ظل بعضها طيعا ، ولكن الاخرى

ترك طواعيتها ، ولتذليل هذه توثق سوقها الامامية بحبال قوية ، فنظل ساكنة » (١)

فهذا هو نص كلام أرسطو كما تؤديه اليا ترجمة سانبلير ، وهو — كما نرى — يتفق مع ما جاء منسوباً اليه في حيوان الجاحظ الى حد غير قليل ، في جملة القول ، وفي كثير من التفاصيل ، ثم يقع بينهما بعض الخلاف الذي لا بد من وقوع مثله في مثل ما نحن فيه . والترجمة دائماً عرضة لخطأ الفهم وخطأ الرأي وخطأ التعبير ، والامر هنا ليس أمر الترجمة فحسب . ولكنه فوق ذلك أمر اختلاف النسخ في اليونانية والعربية جميعا في العهود المختلفة المتطاوله

وقد عرفنا من قبل سوء رأي الجاحظ في المترجمين عامة ، ومترجم حيوان أرسطو خاصة . وفي خلال هذا الفصل الذي وردناه نجد شاهداً جديداً على ذلك ، اذ نجدّه يعبر عن ربهته في الترجمة في التعليق على احدى فقرات ذلك الفصل ، وهي : « وبين الثعلب والزرق خلاف لهذه العلة لانهما جميعاً يأكلان اللحم » ، فيقول : « ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق . لان الثعلب لا يجوز أن يعادى من بين أحرار الضير وجوارحه ، الزرق وحده ، وغير الزرق آكل اللحم ، وان كان سبب عداوته له اجتماعهما على اكل اللحم . فلبعض العقاب من الطير . والذئب من ذوات الاربع . والثعلب الى أن يحسد ما هو كذلك أقرب وأولى في الفاس . فلو رعم أنه يعم أكلة اللحم بالعداوة . حتى يعطى الزرق من ذلك نصيبه كن ذلك أجوز ولعل المترجم قد اساء في الاخبار عنه »

وهكذا نصف الجاحظ أرسطو . اذ كبر عليه أن يعطى صاحب المنطق في القياس ، ورجح أن يكون مرد الامر الى اساءة المترجم في الاداء عنه . فاذا نحن قارنا هنا بين ترجمة هذا المترجم . والنص في هذه الترجمة الفرنسية ، وجدنا أن عداوة الثعلب للزرق لا ترجع الى اجتماعهما على اكل اللحم ، كما يؤخذ من قول الترجمة العربية ، مما جعل الجاحظ يتوقف ويعترض . فليس

في الترجمة الفرنسية ما يدل على هذا . وانما الامر بين الثعلب والزرق .
هو ما بين الذئب والثور . كما رأينا في الجملة السابقة . ولبس الثور من
أكلة اللحم .

ومن الخلاف الذي بلغت النظر بين الصين وضع الترجمة العربية كلمة
(عصفور الشوك) في المكان الذي وضعت فيه الترجمة الفرنسية كلمة
(apitlie) . وقد غلق سائقنا على هذه الكلمة بأنه رأى نفسه مضطرا
الى اراد هذه الكلمة اليونانية كما هي في الأصل ، اذ كان من غير الممكن
معرفة حقيقة الطائر الذي كان يدل بهذه الكلمة عليه . فأما الترجمة العربية
فقد رأت أن الأجيث هذا يقابله في العربية عصفور الشوك . فهل كان لهذه
الكلمة مدلول معين في البيئة التي كان المترجم يعيش فيها . أم أنه استنتج
هذا الاسم استنتاجا ووضعه وضعه من القصة التي وردت فيه ؟ على أن
أرسلو ذكر في فصل سابق على هذا الفصل . عقده للكلام على طعام
العصافير . عصفورا آخر سماه بما يمكن ترجمته في العربية بالشوكى أو
عصفور الشوك . وكذلك سماه سائقنا epinier . وقد ان هذه التسمية
هي ترجمة الكلمة اليونانية . وهو اما سمي بذلك لأنه يغذى بالشوك^(١) .
فهل كان ذلك مما سوغ لصاحب الترجمة العربية أن يتجاوز ويطلق بهذا
الاسم أيضا على الأجيث ؟

ومن هذا القبيل أيضا اطلاق الترجمة العربية كلمة (النمر) على ما أطلقت
عليه الترجمة الفرنسية كلمة thos . وهي الكلمة اليونانية نفسها
أوردها المترجم كما هي . وقال : انه لا يعرف بالضبط أى شيء هذا الحيوان .
ولعله ابن آوى أو شيء من فصيلة السنائير الموحشة (civette)^(٢) .

(١) Histoire des animaux, v. 3, p. 31

(٢) لا بلث سائقنا ان يعدل عن هذا الراى بعد ذلك . اذ يقول في بعض
تعليقاته : « حسبا زما طويلا ان التوس هو ابن آوى ، ولكن يجب العدول
عن هذا الفرض ، لان ابن آوى لا يتخذ فراء في الشتاء وقد يكون لنا ان نفترض
انه بهد الشمال le lynx du nord ، ولكن فهد الشمال ليس من
القوة بحيث يقاوم الاسد كما يقاوم الحيوان الذى يتحدث أرسطو عنه »
(.V 3, p. 279)

وهو على كل حال شيء غير النمر الذى أطلقته الترجمة العربية ، فهل يرجع هذا الى شيء من التسامح والمساهلة فى هذه الترجمة ، أم يرجع الى اختلاف الاصل الذى صدرت عنه ؟

على أنه يظهر لنا من مقارنة النصين ، فى هذا الفصل . ن الترجمة العربية موجرة مقنضبة ، تغفل الكثير اغفالا يحملها على الخطأ فى بعض الاحيان ، على النحو الذى نراه فى اجزاء الاخير من هذا الفصل . وهو الفقرة الخاصة بذليل الفيلة وترويضها . فالمدى بعيد — كما هو ظاهر — بين الترجمة العربية والترجمة الفرنسية . وكأنما كان صاحب هذه الترجمة العربية ينظر وهو يترجم ذلك الجزء الى ذلك المعنى المتداول بين الناس هنالك ، وهو الذى عقب به الجاحظ عليه اذ يقول : « ويدل ان البعير اذا صعب وخافه القوم . استعانوا عليه . فابركوه وعقلوه حتى يكومه فحل آخر . فاذا فعل به ذلك ذل » . فهو — فى أكبر الظن — اما يخنس المعنى تخميناً . متأثراً فى ذلك بمدركاته . أكثر من تأثره بال نص فى نفسه .

٥ — « قال صاحب المنطق (فى كتابه الذى يقال له الحيوان ، فى موضع ذكر فيه الاسد) . قال : اذا ضرب الاسد بمخالبه . رأيت موضع آثار مخالبه فى أقدار شرط الحجام أو أزيد قليلا . الا أنه من داخل أوسع خرزا . كأن الجلد ينضم على سم مخالبه ، فيأكل ما هنالك . فأما عضنه فان دواءها دواء عضه الكلب » (١) .

والذى يقابل هذا النص فى حيوان أرسطو هو هذه الفقرة التى وردت فى الفصل الحادى والثلاثين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، حيث جعل الكلام عن الاسد :

« وعضات الاسد أو تمزيق مخالبه تحدث جيروحا يخرج منها قيح شديد الصفرة ، لا يمكن حبسه ، لا بالاربطة ولا بالسفنج . ولكن دواءه

هو دواء الجروح التي تحدث عن عضه الكلب « ١ » .

والخلاف هنا يبدو أنه خلاف لا يرجع الى المسامحة والمساهلة أو شيء مما ذكرنا قبل . واذ كنا لانملك معرفة النص اليوناني الذي ترجم عنه ، فاننا لانملك أن نفسر هذا الخلاف .

٦ - وفي عقب هذه القطعة أورد الجاحظ قطعة أخرى عن أرسطو . وسياق الكلام عند الجاحظ هو ما أشبه فيه الكلب الاسد قال : « وما أشبه فيه الكلب الأسد انطبق أسنانه . ومما أشبه فيه الكلب الاسد النهم . فان الاسد يأكل أكلا شديدا . ويمضغ مضغا متداركا . ويتلع البضع الكبار من حاق الرغبة . ومن الحرص . وكالذي يحاف القوت » . . . « قال : والاسد وان كان مما لا يفارق الفياض ولا يفارق الماء فانه قليل الشرب للماء . وليس يلقي رجمه الا مرة في اليوم ، وربما كان في اليومين والثلاثة ، ورجعه يابس شديد اليبس متعلق ، شبه برجع الكلب . ويشبهه أيضا من جهة أخرى . وذلك أنهما اذا بالاً شغرا »^٢ .

ونظير هذا النص في كتاب أرسطو هو ما جاء في الفصل السابع من

الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان :

« والاسد من أكلة اللحم كجميع ذوات الاربع المتوحشة التي لها أسنان محددة (في هيئة المنشار) . وهو يأكل بشره ، ويتلع البضع كاملة دون أن يمزقها . وهو يبقى يومين أو ثلاثة أيام دون أن يأكل ، وهو يستطيع ذلك دون عناء . بعد أن يكون قد شبع غاية الشبع . والاسد قليل الشرب و لا يلقي رجمه الا على فترات قليلة ، كل ثلاثة أيام أو كلما وجد ذلك . ورجيعه جاف صلب كرجيع الكلاب ، وهو يطلق رياحا شديدة النتن ، ولبوله رائحة قوية جدا . وكذلك تعرف الكلاب الشجر التي يقف الاسد عندها ، لانه يبول رافعا رجله كما تصنع الكلاب تماما »^٢ .

(١) v.3, p. 279 - (٢) ٢ : ٥٥ - ٥٦ - (٣) v. 3, p. 42-43

وليس لنا ما نعلق به على المفارقة بين هذين الصين . الا ما يبدو من أن
الجاحظ تصرف دها شيت من التصرف . سائر ما هو بصدد تقريره من
من وجود المناسبة بين الكلب والاسد .

٧ - وقد عقد الجاحظ بعد ذلك نوعا من المناسبة بين الكلب والخنزير .
وقد بنى بعض ذلك فيما يبدو على ما أورده أرسطو في الفصل الثامن من
الكتاب الثامن من تاريخ الحيوان . حيث جعل يتكلم عن مبلغ استفادة
الخنزير من الغذاء .

قال الجاحظ : « والكلب يشبه الخنزير ، فان الحرير يسمن في أسبوع .
وان جاع أيما ثم شبع شبعة تبين ذلك بيت ظاهرا » « ١ » .

وفان أرسطو عن الحرير : « وهو أسوأ سرح الحوانات استفادة
من غذائه وسننا بالنسبة الى حجه ، فحسبه سنون يوما كي سمن . والذين
يصطعمون هذه العملية يعلمون حين يأخذونه هزيلا أي أي حد هو سريع
الاستفادة بغذائه . وهم يجيرونه ثلاثة أيام كاملة قبل أن يأخذوا في
تسمينه » « ٢ » .

ذكبر الظن عندما أن الجاحظ صدر عن ذلك بهذا الذي أورده عن
الخنزير . ولعل اختلاف عدد الايام بين « سبعة » و « سمين » يرجع الى
اختلاف القراءه أو اختلاف النسخ .

٨ - وفي سياق الكلام عن عظام الكلاب يقول الجاحظ :

« وزعم صاحب المنطق وغيره أن الذباب في ذلك كالكلب » « ٣ » .

وهو ذا ما يهوله أرسطو في هذا . في الفصل السابع من الكلب
الخامس . من تاريخ الحيوان اد يتحدث عن سقاء الحشرات :

(١) ٥٦:٢

(٢) v. 3, p. 46 - (٣) ٥٨:٢

« ويمكن أن يرى هذا واضحا في الفرق بين انذاب في حال السفاد .
فهو لا يفترق الا بعد لآى . ذلك أن سفاده يظل أمدا طويلا جدا » «^١»

٩ — ثم هانحن أولاء الآن بازاء نص يجىء في سياق الكلام عن عجائب
الحيوان وحسن تهديه والهم غريزته . حيث يسوق الجاحظ الكلام دون
أن تقدمه الاشارة الى أنه مأخوذ عن أرسطو . ولكن الصلة بينه وبين
حيوان أرسطو صلة واضحة قوية . كما سنرى في ايراد النصين .

يقول الجاحظ : « وأعجب من هذا الطائر الذى يقال له كسر العظام .
فانه يلع من بر الفراخ كلها ، بعد القيام بشأن فراخ نفسه . انه يتعاهد
فرخ العقاب الثالث . الذى تخرجه من شها . لابلها شره وأرغب بطشا .
وأقصى ولبا . وأسوأ خلفا . من أن تحصل سمعاً ثلاثة . وهى مع ذلك سريرة
الجزع . فتخرج ما فضل عن فرخين . فادا أخرجته قبله كاسر العظم وتطعمه .
لان العقاب من اللاتى تبيض ثلاث يصاب في كثر حالها » «^٢» .

ويقول أرسطو في الفئصل الثالث والعشرين من الكتاب التاسع . من
تاريخ الحيوان :

« والطائر الذى يسمى السر (orfraie) كثير الرعاية لصغاره . وهو
يحصل سبب عيشه في سر . ثم يحمل اليها طعاما وفيرا ، وهو وديع جدا ،
يرى — الى جانب تربيته صغاره — صغار العقاب . فيضمهم اليه . حين
يطردهم العقاب من وكره ، اذ كان يطردهم قبل الاوان ، حين يكونون
ما يزالون في حاجة الى من يطعمهم ، وما يزالون أضعف من أن يطيروا .
ويبدو أن العقاب لا يدفع صغاره هكذا الا بدافع من الغيرة والانانية ، فهو
غور بطبعه . شديد الشراسة . قوى الشره الى فريسته ، فحين يأخذ في الطعام
يلزمه منه القدر الضخم . وبذلك يصبح عدوا لصغاره حين يأخذون في
الكبر ، لانهم حينئذ بحيث يطعمون فيبعدهم بمخالبه . والصغار من جانبهم

يتنازعون مكانهم من الوكر ونصيبهم من الطعام ، فحينئذ يطردهم العقاب ضاربا لهم ، فبعضا يحون . واذ ذاك يجيء النسر فيضمهم اليه « ١ » .

ويقول في موضع آخر . في الفصل السادس من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان :

« والعقاب يبيض ثلاث بيضات . ولكنه لا يفقس الا اثنتين » ، كذلك يقول الشعر المنسوب الى موزيه Musée : « يبيض انعام ثلاث بيضات . ولكنه لا يفقس الا اثنتين ، ولا يربي الا واحدا » . وهذا في النواع ما يحدث في أكثر الاحوال . وحين يكبر أحد الفرخين يطرده العقاب : لانه يكلفه كثيرا من العناء في اطعامه « ٢ » .

فمن الظاهر الجلي أن نص الجاحظ الذي أوردها يرجع الى كلام أرسطو هذا .

وهناك نص آخر للجاحظ في هذا الموضوع . لا بأس من ايراده الى جاب النص الاول . دون أن نتظر به دوره . وان كان هذا النص يصور ما كان يدور حول العقاب من آراء مختلفة . قال :

« والعقاب يبيض ثلاث بيضات . فيخرج لها فرخان . واختلفوا فقال بعضهم : لانها لا تحضن الا بيضتين . وقال آخرون : قد تحضن ويخرج لها ثلاثة أفراخ . ولكنها ترمى بواحد استقلا للنكسب الى ثلاثة ، وقال آخرون : ليس ذلك الا بما يغريها من الضعف عن السد . كما يعتري الفسساء من الوهن والضعف ، وقال آخرون : العقاب طائر سيء الحلق . ردى التربية . وليس يستعان على تربية الاولاد الا بالصبر . وقال آخرون : لا ، ولكنها شديدة النهم والشه . واذ لم تكن أم الفراخ ذات اثر ضاعت . . . وقالوا : وأما الفرخ الذي يخرج منه العقاب . فان المكلفة . وهي طائر يقال لها كسر العظام . تمبله وترييه « ٣ » .

(١) v. 3, p. 209 - (٢) v. 2, p. 282 - (٣) ١٧٦ : ٢ - ١٨٠

والامر الذى يلفت النظر حقا ويشير فى النفس ألوانا من النساؤل وضع
كلمة « كاسر العظام » فى الترجمة العربية . بازاء ذلك النوع من النساؤل
الذى أطلق عليه فى النص اليونانى كلمة Phéné . وقد كانت ترجمة هذه
الكلمة موضع حيرة ساتيلير ، فكلمة نسر voutour لا تتفق فى شيء — كما
يقول فى تعليقه على النص الاول — مع التفصيلات التى ذكرها أرسطو عن
هذا الطائر . ثم يقول ان من الممكن أنه يعنى الطائر المسمى orfraie ،
وذلك على الاقل — كما يقول — هو ما وضعه بوفون Buffon (من علماء
القرن الثامن عشر) فى كتابه الضخم (التاريخ الطبيعى) بازاء كلمة Phéné
فى هذا النص .

وكلمة orfraie هذه ليست الا الكلمة اللاتينية ossifraga . واذا لم
تكر هذه الكلمة فى معنى كاسر العظام . المستعملة فى النص العربى . تماما .
فان بين الكلمتين صلة واضحة . واذن فكيف اتيح لصاحب الترجمة العربية
أن يضع هذه الكلمة بازاء الكلمة اليونانية ، وليس فى اشتقاقها — كما
يظهر — ما يدل على هذا المعنى ، ويشير الى هذا اللفظ ؟ مهما يكن من
أمر فلا ريب أن هذه الترجمة العربية كفيفة — الى حد ما — ترجيح مذهب
اليه بوفون ، وازالة الحيرة التى لا بدت ساتيلير .

وفى النص الثانى من نصى الجاحظ شيء آخر جدير بأن نقف عنده .
دبت أن احدى مخطوطات حيوان الجاحظ . وهى مخطوطة كبرى . وضعت
فى موضع كلمة « كاسر العظام » كلمة أخرى بدلا منها . رسمتها المخطوطة
بهذه الصورة (فنا) . وقد اعتبر الناشر هذه الكلمة لامعنى لها ، فأعرض
عنها . برغم من حسن رأيه فى السحرة التى جاءت بها . وظاهر أن هذه
الكلمة لا يمكن أن تكون تحريفا لكاسر العظام التى جاءت فى سائر
المخطوطات . فكيف جاءت اذن ؟ يبدو لى أن هذه الكلمة ليست الا كلمة
« فنا » التى هى الصورة العربية لكلمة Phéné اليونانية . وبذلك نرى
أن هذه الكلمة كانت تنقل الى العربية مرة من طريق تعريب اللفظ اليونانى
نفسه ، ومرة أخرى بوضع كلمة عربية بازائه .

١٠ - وهذا النص يجيء في حيوان الجاحظ غير مسبوق الا بكلمة « قال » مبهمة لافاعل لها . أهو صاحب الكلب ، اد كان مذكورا في سياق هذه المناظرة ، أم هو صاحب الحيوان أى الجاحظ نفسه ؟ أم هو لا هذا ولا ذاك ، بل هو صاحب المنطق ، وقد سقطت الإشارة اليه من النص . وذلك هو ما يرى . استثناس بما نلاحظ من شبه قريب بين هذا النص والنص الآخر الذى نورده بعد من كلام أرسطو .

قال الجاحظ : « قال : والكلبة كثيرة الاطباء . وكذلك الخنزيرة . وللفهدة أربعة أطباء من لدن صدرها وقرب ابطها الى رفقها . ولفيل حلمتان تصفران عن جثته . وهما مما يلي الصدر . مثل الانسان . والدكر فى ذلك يشبه بالرجل . لأن للرجل ثديين صغيرين عن جثته » (١) .

وقال أرسطو : « ولبعض الحيوانات أئداء على مقدم الصدر أو قريبا منه . فلها ثديان وحلمتان . كما هو عند الانسان وعند البيل . وهذا الحيوان الاخير تقع حلماء تحت ابطيه تقريبا . وحلمتا الاشي غاية فى الصغر ، وصغرها - بالقياس الى جثتها - تجعلهما بحيث لا يربن اذا نظر اليهما من جانب . ولذكورة اميالة أيضا حلمتان كما لا نراها . وليس أصغر من تلك ... وهناك حيوانات ليس لها أئداء لا على صدرها ولا على فخذها ، بل على بطنها كالكلبة والخنزيرة . فلهما عدد كبير من الائداء . غير متساوية ، ولكثر من الحيوانات أكثر من أربعة أئداء . غير أن الفهدة ليس لها الا أربعة على بطنها » (٢) .

فالصلة واضحة بين الصين . وان كان النص الاول موجزا . كأنه مختصر ما قال أرسطو . وهذا نراه كثيرا فيما هو منسوب صراحة الى صاحب المنطق .

١١ - وهذا نص آخر يعرض لنا مسبقا بهذه العبارة : « وقال

صاحب الكلب » . وانما ينبغي أن تكون : « وقال صاحب المطلق » ، كما يظهر ذلك صريحا قاطعا من مقارنة النصين .

قال الجاحظ : « قال صاحب الكلب (كذا) : يعرف فتاء الكلب وهرمه بالأسنان ، فإذا كانت سوداء ، كانت دليلا على كبره ، وإذا كانت بيضاء حادة . دلت على الفتاء والحدأة . وقال - أسنان الذكر أكثر » « ١ » .

وقال أرسطو : « انه بالأسنان يمكن معرفة ما اذا كانت الكلاب فتية أم هرمة . فالأسنان لدى الكلاب الفتية بيضاء محددة . ولدى الهرمة حادة . دلت على الفتاء والحدأة . وقال : أسنان الذكر أكثر » « ٢ » .

فالنصان متفقان - كما نرى - أدق اتفاق ، حتى لا يمكن أن تكون هناك شبهة في أن كلمة « صاحب الكلب » قد انسلت في غفلة من الناسخ ، وأخذت مكان « صاحب المنطق » .

« يتبع » طه الحاجري

علاقات فرنسا بشمال افريقية

في النصف الثاني للقرن التاسع عشر

للدكتور محمد مصطفى صفوت

لم تهتم فرنسا اهتماما حقيقيا بآمر شمال افريقية ١ الا في اوائل الربع الثاني للقرن التاسع عشر ، الا بعد أن رسخت اقدامها رسوخا تاما في الجزائر . حقيقة لقد كانت لغرب علاقات بسمر افريقية وخاصة بوسس والجزائر منذ القرن السابع عشر . ولكنه كسب بلاول ذلك صممه بحرية اقتصادية في العالاب . وكنت فرنسا من دولة أوربة قررت أن يكون لها ممثلون سياسيون او قتاصل عامون جزائرا في بعض المناطق من السطى الافريقي الشمالي . وكان لها بعض من نفوذ في هذه الحيات تحكم المعاهدات التي عقدتها مع الدولة العثمانية التي كانت تسيطر على شرق البحر المتوسط جميعه وعلى شمال افريقية الى حدود مراكش الشرقية ٢ . وطوال القرن السابع عشر كان للقناصل الفرنسيين حق عوامسى في حقيقة الامر في رعايه او حمايه الرعايا الاوربيين الكاثوليك المقيمين في هذه الاقطار .

ولكن فرنسا لم تقرر برب حصه - يسميه محدودود براء بوسس التي تقع في منتصف شمال افريقية بقرت ودرء مراكش الا قرب اواخر الربع الثاني للقرن التاسع عشر . ولقد ابعت فرنسا هذه الحقة . او السيسه انصدييه كما اسمتها . بكل دفعه ويقود ليعرف الرابعع او السيسه او الوهر الى أن فرصت حبيب بلاء على بوسس في أول صيف سنة ١٧٧١ واستطاع سيطرته على مراكش في السنوات الأربع الأولى للقرن العشرين .

لقد كان فنع مدسه الجزائر في سنة ١٨٣٠ حظود جرشه وقويه معا قام بها ملوك البرنوس الفرنسيون حين شعروا بآردياك ضعف مزانه الداخلي في فرنسا . وحين احسوا قيام مفرصة قويه ضدهم من جانب الجمهوريين

١١ المقصود بشمال افريقية هت الجزائر وبوسس ومراكش وطرابلس
١٢ لم تخضع مراكش في يوم من الايام للعثمانيين بعكس الجزائر وتونس وطرابلس .

والملكيين الاحرار الدستوريين . فارادوا شغل الراى العام العرسى عن مناقشة سياسهم الداخلية الرحمة واسعادها . وارادوا في نفس الوقت تقوية مركز الملكية البربونية الداخلى وثبتيته بانتصار خارجى مدو لا يكلف في نفس الوقت فرنسا كثيرا . فاستغلوا اهاه داي الجزائر لفصلهم في هذه المدينة، وطالبوا بتعويضات وحقوق لم يعترف بها هذا الحاكم . ولا يستطيع الاعتراف بها ، وحينئذ ارسلوا حملة بحرية صربت مدينة الجزائر واحلها . وبذلك انتهى عهد الاستقلال الفعلى لهذه البلاد . وانتهت سيادة السطان العثمانى الاسمية ، ورال نفوذ الاتراك نهائيا ذلك يعود الذى اسمر اكثر من فربين من الزمان .

وضع البربون اذن ، وهم لابشعرون ، اساس الامبراطورية الفرنسية الحديثة في افريقية . ولكن اساس دولتهم في فرنسا لم يستمر فلقد انهار في نفس السنة التى فتحت فيها مدينة الجزائر . ولكن ملكية آل اربان احتفظت بمدينة الجزائر فلم تجل القواب الفرنسية عنها بل وقاومت ناجحة كل راى او فكرة ترمى الى الانسحاب من شمال افريقيه . ولم تقتصر على ذلك ، بل وارسلت القوات الفرنسية من مدينة الجزائر فاهرة وفاتحة الى المناطق المجاورة الى ان اسنطاعت في آخر الامر اتمام فتح بلاد الجزائر جميعها في نهاية النصف الاول للقرن التاسع عشر .

في الجزائر قامت فرنسا باكبر تجربة استعمارية عرفت في تاريخها الحديث . واعتبرت بلاد الجزائر ، من النصف الثانى للقرن التاسع عشر الى الوقت الحاضر . اسدادا لاراضى فرنسا وجزء لا يجرأ منها ، بل لقد اعتبرتها بعض الحكومات الفرنسية مؤلا اخيرا تلجأ اليه اذا اصاب فرنسا في القارة الاوربية كارثة اودت بقوتها البرية .

لقد اصبحت فرنسا بعد اتمام فتح بلاد الجزائر . وقد تم لها ذلك بعد بدل جهد عنيف وبصحيات كيرة في الاموال والافس . اصبحت فرنسا مقيمة في بلاد اسلاميه تناخم حدودها دوسين اسلاميين . وكان من الطبعى ان يكون اثرها كبيرا في ذلك العالم الاسلامى القرب منها والمجاور لها . وان تتأثر به ايضا . فلم تعد حينئذ مصالح الدولة الفرنسية اوروبية ومسيحية فحسب ، بل افريقية واسلاميه كذلك . واصبح لوااما على كل حكومة تتولى زمام الحكم في فرنسا ان تعنى عناية خاصة بأمور ذلك العالم الحديد ، وما يجد فيه من حوادث ، وما يتعاقب عليه من اعلانات وتغيرات . لان هذه الحوادث والانقلابات لا بد وان يحدث صدى كبيرا في الممتلكات الفرنسية في شمال افريقية .

حقيقة كان لفتح الفرنسيين دوى هائل في شمال افريقية . فلقد تزلزلت كل النظم الموجودة هناك وتضعفت . ولم تعد دولتا تونس ومراكش المجاورتان

للجزائر في مامن من الخطر الفرنسي الذي كان يزداد نموا وعنفًا كل يوم .
واشبهى عهد الاطمئنان بالنسبة لهاتين الدولتين اللتين كانتا قد احدهما في طريق
الضعف السياسي والاقتصادي ، وسيأتي يوم شاء القدر فيه ونحكم فيه
الظروف الجغرافية ونطور الاحداث التاريخية ان تقع فيه الدولتان تحت
سيطرة فرنسا والحكم الفرنسي .

وبالنسبة لدولة تونس كان الخطر اعظم واقرب لصغر مساحتها وحنوحها
للسلم . وهي بعد ذلك لها من الثروة الفنى والوارد الطبيعية والمركز الجغرافى
في البحر الابيض المتوسط ما يجعلها اكثر جاذبية لجيرانها الجدد الفرنسيين .
كذلك لا توجد حدود طبيعية ولاسياسة ولاعنصرية حقيقية ولا دينية تفصل بينها
وبين البلاد الجزائرية . واذا كانت الحكومات الفرنسية المماثلة قد قررت
الاحتفاظ بالجزائر فكان لزاما عليها كما رأت ان تراقب بدقة ما حدث في العطنين
التونسي والمراشقي . فاحتفاظ فرنسا بالجزائر دعاها الى متابعه الاهتمام
بامور تونس . لانه في شمال افريقيه - كما اعتقد الفرنسيون في القرن التاسع
عشر وكما لا يزالون يعتقدون - تستطيع فرنسا التعرير عن نشاطها المدفق
وحيويتها الفائقة ، تستطيع تدرب قواتها العسكرية واعداد اعظم جنودها .
لقد اصبحت الجزائر مركزا للتوسع الفرنسي في شمال افريقيه واعظم
مدرسة لتدريب الجند - كانت مدرسة عملية للحرب والصبر تخرج فيها
معظم قادة فرنسا من رجال الحرب . وتبير Thiers - وقد تولى
الاشراف على الحكومة في فرنسا مرارا ابان القرن التاسع عشر ، شمر دائما
الى الجزائر كمدرسة عملية يتدرب فيها الجيش الفرنسي على تحمل المكاره
والمشاق ومقاتله الخطر المتحدد المسحكم . واليقظة وحضور الدهن . فاحسن
الجنود الفرنسيون هم الذين مارسوا امور الحرب امام الحصان الاسنى وامام
الجزائريين (١)

لقد ارتسمت فرنسا لنفسها سياسة استعمارية في الجزائر نمت وتطورت
خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين وتنطوي آخر مراحل هذه السياسة
على ضم هذه البلاد نهائيا الى فرنسا بحيث تصبح الجزائر في آخر الامر ارضا
فرنسيه سكانها مواطنون فرنسيون من حيث الحقوق والواجبات السياسية . لقد
رمت السياسة الاستعمارية لفرنسا في اول الامر الى استغلال موارد الجزائر
الطبيعية والاقتصادية . وعملت على اقامة حكم فرنسي قوى للوصول الى ذلك
الفرض ، واستخدمت شتى الوسائل لتثبيت دعائم ذلك الحكم من ابقاء جيش
قوى على قدم الاستعداد في كل لحظة وانشاء فرق اجنبية تتكون من المعمرين

من كل دولة وملة للمساعدة في قمع الثورات ، وتشجيع الفرنسيين على الهجرة وتعزيد كل من كانت له ميول فرنسية في هذه البلاد ، واستغلال رؤوس

الاموال الفرنسية في تنمية موارد الثروة .

ومرت السياسة الفرنسية في الجزائر في مراحل اثنى عشر القرن التاسع عشر . وكانت في اول الامر سياسة قوة وعنف وفتح واستيلاء وارغام الاهلين على قبول الخضوع للحكم الفرنسي . ولكنها بمرور الزمن اخذت تتحول بالتدريج الى رغبة في استصلاح الجزائريين عن طريق منحهم بعض الحقوق ابعثوا الحكم الفرنسي راضين . ولكن يظهر ان كلتي السياستين لم تفوزا بنجاح كبير وخاصة بعد نمو حركة الجامعة الاسلامية في الربع الاخير للقرن التاسع عشر ونمو الشعور القومي . فالموامل القومية واختلاف الدين والعنصر (الجنس) لها اثر كبير في بقاء مشكلة الجزائر الى الوقت الحاضر .



ولو ترك الامر للسلطات الحربية الفرنسية في الجزائر تفصل ما تريد لاستولت بقوة السلاح على تونس بالذات لولا معارضة حكومة لوى فيليب وبابليون الثالث وفي اوائل الربع الثاني للقرن التاسع عشر وضع الوزير الانجليزى بامستون Palmerston سياسة انجلترا القليدية اراء تونس (١) وكان لذلك اثره بلا ريب في السياسة الفرنسية . فبعد ان كانت سياسة العمل على التوسع السريع الجارف في شمال افريقية ، أصبحت سياسة المحافظة على الحالة الراعية في كل من تونس ومراكش . وبذا عملت كل من انجلترا وفرنسا على الإبقاء على الموقف السياسى الموجود في ذلك الوقت ، وان تباينت دوافعها واختلفا في ذلك فهما لذلك الموقف . فلم تكن معالم ذلك الموقف محدودة ولا متعقا عليها . وكانت السياسة الفرنسية ترحب بذلك الفموض ، وتجيد فيه فائدة كبيرة لها تنفع واغراضها الامراتورية الاستعمارية .

كانت السياسة الفرنسية اثنى عشر القرن التاسع عشر الى سنة ١٨٨١ بالنسبة لتونس قائمة على اساسين : اولا كرهها لان تكون لها حدود سياسية مشتركة مع ممتلكات الباب العالي ، وثانيا المحافظة على ممتلكات فرنسا الجزائرية فلقد كانت اهمية الجزائر عند الفرنسيين مشابهة لاهمية الهند عند الانجليز .

ولو ان الباب العالي ترك تونس وامورها ولم يتدخل في شئونها ؟ ! الا ان مركز الدولة العثمانية القوى في طرابلس حتم عليها التدخل في امور تونس

(١) وكانت هذه السياسة تقتضى بالاعتراف بتونس كجزء من ممتلكات الدولة العثمانية مع الاحتفاظ باستقلالها في تصريف امورها الداخلية .

ومحاولة استرجاع ساططها فيها . فعى تونس يستطيع الباب العالى الاتصال
بالقبائل الجرائرية ، فيثير مشاكل خطيرة لفرنسا لاعداد لها . ولذا فبالرغم
من ان فرنسا قررت مؤقتا ألا تتوسع على حساب اراضي تونس الا انها صممت
بعزم وقوة على منع الباب العالى من استرجاع نفوده فى تونس ، أو التدخل فى
شئونها بدخلا يتعص من استقلالها الذى تمنع به ، فلا عجب ان ادا بيت
الحكومات الفرنسية المتعاقبة فى المدة ما بين سنتى ١٨٢٥ - ١٨٨١ للحكومات
العثمانية . وذلك بوضوح لامزيد عليه ، انها لن تعرف بحقوق الباب العالى فى
تونس ، وليست له حقوق ، وان تقبل اى تدخل من جانبها ، وانها ستسجىء
الى القوة ادا قام بآيه محاوله لسط سلطانه على هذه البلاد (١)

والى جانب ذلك احاطت فرنسا بايات تونس علما بانه لا سسل الى النازل
عن شئ من حقوقهم او مظاهر سلطتهم للباب العالى ، وان مصالحهم تختلف
تماما مع مصالح السطان ، وانه لاصله تربطهم بترىا سوى صلة الدين ، وان
هذه الصلة لاتعنى شيئا من الناحية السياسية . وصممت لبايات الاعراف
استقلالهم ٢ . وعالت فرنسا فى محاولاتها العمل على ضم حكام تونس
ووزرائها الى الحانب الفرنسى ، فاهدتهم الباشين الرفيعة الكثيرة ، وقدمت لهم
الهدايا الثمينه . واستفلت الباشى احمد باشا حين رار بارسى اسفصار الملوك .
ولم يانه مطلقا لاحتجاجات السفير العثمانى فى باريس . وقبلت الباشين التى
منحها الباشى لضباطها ومبعوثيها السياسيين او القنصلين . واما من حيث
محاولات انجلترا لوثيق الصلات بين البايات والباب العالى . فلعد وضعت
فرنسا فى سائها كل العراقيل الممكنة . وافهمت البايات جيدا ان ما تهدف
اليه حكومة انجلترا هو ان تجعل منهم ولاية ادلة خاضعين للسلفان (٢)

اخذت فرنسا ادن على عاتقها حماية استقلال تونس ضد مطامع السلفان
العثمانى ، وجعلت هذه السياسة سياسته تقليديه لها . ووضع اسس هذه
السياسة الوزيران الفرنسيان تيسير وحيزو . ولم نال الحكومات الفرنسية
جهدا فى توضيح وجهة نظرها هذه للباب العالى فى الفترات المخلفة ، ولم تتورع
بالفعل عن ارسال اساطيلها الى المياه التونسية حين وجدت ان الباب العالى
يحاول ان يتدخل فى امور هذه البلاد . بل وهددت مصير الدولة العثمانية
نفسها ان لم تحترم وجهة النظر الفرنسية ، فعى سنة ١٨٦٤ مثلا أعلن دى

(١) انظر مذكرة القنصل الانجليزى ود Wood لوزارة الخارجية

الانجليزية F. O. 10258 Aug. 26, 1859

(٢) نفس المرجع

موستير De Moustier السفير الفرنسي في القسطنطينية للحكومة العثمانية
ان فرنسا لن ترحب بجوار العثمانيين في تونس ، وطلب الا يعطى الباب العالي
لفرنسا فرصة العمل على انهيار الدولة العثمانية (١) .

وكذلك وضحت فرنسا لانجلترا سياستها هذه بانها لن تصبر ابدا على
تدخل الباب العالي في امور تونس ، وانه للمحافظة على ممتلكاتها في الجزائر
لا مناص لها من المحافظة على الموقف السياسي الراهن في تونس . فيقول
درون دي لوى Drouyn de Lhuys وزير الخارجية الفرنسية لكولى Cowley
سفير انجلترا في باريس في اوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر ان سياسة
فرنسا بأزاء هذه المسألة واحدة لن تحيد عنها . ففرنسا لها مصالح مهمة وحيوية
في الجزائر ، وان من مصلحة فرنسا ومن مصلحة الباب العالي نفسه ان تتعامل
فرنسا مع تونس وحدها لا مع السلطان ، فجيرة فرنسا ليست مريحة للسلطان
وسحق له لأرب مشاكل لاحصر لها هي في عنى عنها (٢) . ويقصد الوزير
الفرنسي بذلك اباره المسألة السريعة وتدمير الدولة العثمانية .

كذلك عملت فرنسا على ان يكون لها وحدها التفوق السياسي والاقتصادي
في تونس . وعلى الا يكون العرص متساوية امام جميع الدول الاوربية التي لها
مصالح في هذه البلاد ، فيجب ان يكون لمصالح الفرنسيين التقدم على مصالح
الدول الاخرى . وهنا قد يوضع هذا السؤال . الى اى حد اثرت المصالح
الاقتصادية في سياسة فرنسا نحو هذه البلاد ؟ في الواقع ان اهم الدوافع كانت
دوافع سياسية واستراتيجية . وهذه الدوافع هي في الغالب التي دعت الدول
الاخرى مثل انجلترا بل واطاليا الى ارسال رؤوس اموالها الى هذه البلاد
واستخدامها في مشاريع العمم الاقتصادي العاجل منها ضعيف لا يشفى غليل
رجال المال ولا يقنع الاقتصاديين .

ولقد عمل على تفوق النفوذ الفرنسي في نفس القوات الضخمة التي حشدتها
فرنسا على الحدود بين البلدين ، ثم المظاهرات البحرية التي كانت تقوم بها
من حين لآخر في المياه التونسية ، ووسائل التهديد والوعيد التي كانت
تستخدمها ، ثم النياشين والهدايا التي كانت تغدقها في المناسبات المختلفة على
الباي وعلى وزرائه . كان معظم الموظفين الاجانب في كثير من الاوقات فرنسيين ،
وقام بعدد كبير من المشاريع فرنسيون . فلا عجب اذن اذا وجد القنصل
الانجليزي في سنة ١٨٥٦ رميله القنصل الفرنسي يتمتع بنفوذ هائل لا نظير له .

(١) نفس المرجع

(٢) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية Cowleyts Russell رقم

١٨٠١٠٥٤ ديسمبر ١٨٦٤

ولذا كرس نشاطه السياسي، وكان كسيرا لمحاربة ذلك النفوذ وهدمه اذا استطاع الى ذلك سبيلا .

ولذا قام النزاع حامى الوطيس بين القنصلين الانجليزى والفرنسى على النفوذ السياسى والفوق الاقتصادى . فكان النزاع على اشدّه بين سيرتوماس ريد Reade ودى لسيب . وكذلك كان التنافس شديدا بين خلفائهما على نيل الامتيازات واحكام المشاريع ، واتهم كل من القنصلين الآخر بالعمل على عرقله والاساءة الى سمعته ومحاولة القضاء على مصالح مواطينه .

وبالرغم من كفاح القنصل الانجليزى Richard Wood ظل النفوذ الفرنسى متفوقا الى سنة ١٨٧٠ . ووجد ود ان نصائحه التى كان كريما في اسائها للباى ليست بدات كبير عناء امام نفوذ زميله الفرنسى الذى كان يؤيده ستون الف جندي مرابطين على الحدود الجزائرية وبحرية كثيرة التردد على موانئ تونس (٢) .

كان الراى مختلفا في الدوائر السياسية الفرنسية بالسبب لاحتلال تونس ففريق من رجال الحكومة لا يؤيد سياسة القمع والقهر والاستيلاء على هذه البلاد بالقوة . بل يرى اساع سياسه التريث والانتظار ، وفريق آخر يرى استعمال الوسائل السلمية لضم تونس الى الجزائر ، وذلك باحتكار المشاريع واقناع الباي بصداقة فرنسا . وكانت آراء الفريق الثانى هي الراجحة ، ويظهر ان آراء الفريقين كانت مجمعة على مد حدود الجزائر الى نهر مجرده ، بحيث تكون بنرت في المنطقة الفرنسية . وذلك اذا ارغمت الظروف فرنسا على اتخاذ موقف حاسم . وكانت السلطات الفرنسية الحربية في الجزائر تؤيد بحماس هذه الفكرة وتسعى الى تنفيذها في اقرب وقت مستطاع . وهناك فريق ثالث يرى ان فرنسا لديها من المشاغل الكثيرة والمشاكل المعقدة ما يحجب ان يصرفها عن التفكير في خلق مشاكل جديدة بضم تونس ، لاسيما وان ذلك الفريق يرى ان فرنسا قد لاقت الوانا من المتاعب في الجزائر . وان تجربة الاستعمار في الجزائر نفسها ليست ناجحة بحال من الاحوال ، فلقد اسئرفت جانبا كبيرا من اموال فرنسا ودماء ابنائها .

وهناك بابليون الثالث عملا محليته افكار غريبة عن شمال افريقية ، فلقد

(٢) انظر المذكرات والتقارير التى دونها القنصل الانجليزى ريتشارد الى حكومته في السنوات التى بين ١٨٥٧ و ١٨٦٠ ، وتمتاز هذه المذكرات بطولها وبكثرة التفاصيل عن موقف الفرنسيين في تونس والجزائر . وهذه المذكرات والتقارير موجودة في وراثة الخارجية الانجليزية تحت عنوان تونس T.O.102

كان يظن ان من السهل تطبيق فكرة القومية في هذه الارحاء ، فكان يحلم
باشاء مملكة عربية في الجزائر صديقة لفرنسا وموالية لها . ولكنه كان في نفس
الوقت يعكر في اشياء اتحاد اوروبي مرماه السلام - وظن ان الدول تستطيع
ان تنسى ما بينها من حرات وخلافات اذا اقتسمت فيما بينها الممتلكات
الاسلاميه الواقعه على البحر المتوسط . ولكن مبادئ السياسة التقليديه
الفرنسيه ومصالح رجال الجنوب في فرنسا كانت تدفعهم دائما الى المطالبة
باتباع سياسته بشيطه في شمال افريقيه والبحر الابيض المتوسط ، وكانت
لارائهم قيمه كبيره في توجيه السياسة الفعليه للحكومة الفرنسيه .

ولقد انصرفت الافكار في فرنسا عن تونس مؤقنا حين عاد الخطر الالماني
الى الظهور شرقي نهر الراس . فماتت الحكومة الفرنسيه بعادرة على ان
تفرط في صداقتها لانجلترا وايطاليا باساع سياسته قويه في تونس قد تضطر
هاتين الدولتين الى ان تتخذا موقف العداء نحو فرنسا .

ثم جاءت الكاربه الحربيه والسياسيه التي حلت بفرنسا في سنه ١٨٧٠
فغيرت الى حين الموقف السياسي في تونس . فارداد امل الانجليز والاطليان في
اصعاف القود الفرنسي والاعتراف بالنفوذ في هذه البلاد . ولكن فرنسا نهضت
من كونها بسرعه ، وعادت الى نشاطها في تونس . فعاد الموقف الى التغير
وحاصله بعد ان عيت فرنسا Roustan ممثلا سياسيا وقنصلا جبرالا في
تونس .

وروستان رجل بشار بالدهاء واللباقه وبعد النظر . ثم بششاط مندفع
وايمان بمهمه فرنسا السياسيه والحصاريه في البحر الابيض المتوسط ، واليه
يرجع الفصل الى حد كبير في مهيد الطريق لبسط الحمايه الفرنسيه على
تونس . فشخصيه وصبره وسعه ثقافته وتجاربته وحسن اعداده لوظيفته
نعت على احرام الرجال له وعلى النساء به ! ولقد لعبت المرأة دورا هاما في
مسالة تونس !

بقى روستان تعليمه العالي السياسي والنظري المظم في باريس ، وذلك
بمكس ود اعطس الايجلري الذي لم يرد تعليمه على مدرسة باوية في اكس .
ومن سنه ١٨٥٦ الى سنه ١٨٧٤ مثل روستان دولته في جملة مناصب قنصليه
مهمه في الشرق الادبي . في ارمير والقاهرة والاسكندريه وببيروت . فتدرب
تدريبا عمليا ممتازا ، وعرف الكثير عن احوال الامم الاسلاميه ودرس الشرقيين
دراسة وافية ولذا اذا كان البحر الابيض المتوسط في نظر الانجليز اهم حلقة
في سلسلة المواصلات الامبراطوريه البريطانيه الى الهند ، فهو يمثل في نظر
روستان بحيره فرنسيه ممثله بالذكريات الفرنسيه المجيده ، ذكريات صليبيها
وبحارتهما وتجارها . فروستان مؤمن بمستقبل بلاده ، ويرى ضرورة تفوق
فرنسا في ذلك البحر الذي تطل عليه سواحلها الجنوبيه .

لقد وجد روستان في سنة ١٨٧٤ ان نفوذ فرنسا في تونس لا يزال يعاني من هزيمتها الكبرى امام الالمان في سيدان ، ومن سوء تصرف القناصل قبله . فبوتميليو Botmilieu كان قد بلغ من الكر عتيا ، ولم به البأس في سنة ١٨٧٠ فلم يترك له املا في اصلاح مركز فرنسا بعد هزيمتها الساحقة . وجاء بعده دي فلا de Vallat الذي جعل مهمته طرد الوزير التونسي الخزنة دارمن الحكم . وافلح بعض الشيء في اصلاح مركز فرنسا . الا ان بسمارك المستشار الالماني ساء ما يتمتع به الفرنسيون من نفوذ فنصح للباي بالا يقيم كبير ورن لمركز فرنسا . ما بقي من نفوذ فرنسا اضاع معطيه دي بلنغ de Billung الذي سمح لزوجته الانجليزية بالتدخل في امور السياسة ولم يكن له ولا لزوجته من بعد النظر والحكمة السياسية ما يمكنه من تقوية مركز بلاده . فاشتبك هو وزوجته في دسائس عقيمة هطت بمركز فرنسا وانتهت باستدعاء حكومته له في آخر الامر وتعيين روستان محله .

وما منع نفوذ فرنسا من الانهيار تماما في سنة ١٨٧١ هو ان شروط الصلح بينها وبين الالمان لم تمس امبراطوريتها الاسعمارية . وبالرغم من الضعف الشديد الذي ألم بفرنسا في هذه السنة فان ساستها صمموا على المحافظة على الامبراطورية بكل ما في وسعهم ، فقصوا قضاء مبرما على الثورة العنيفة التي قامت في الجزائر في سنة ١٨٧١ . فكان ذلك دليلا ناصعا على ان فرنسا لازالت قوية في شمال افريقية . ولكن نمو النفوذ الفرنسي في تونس يرجع بلا ريب الى روستان ، فلقد نجح في تدعيم النفوذ الفرنسي في تونس بمكافحة النفوذ الانجليزي والحصول على امتيازات متنوعة لبلاده . كان اهمها الخط الحديدي من تونس الى حدود الجزائر لشركة بونا جلما الفرنسية ، واهمية ذلك المشروع كبيرة فهو يمر في اخصب اراضي تونس واغناها . ثم قيمته لا تقدر في تسهيل نقل الجنود من الجزائر الى تونس في الوقت المناسب . ولقد وجد روستان كل تأييد من حكومته ، فكل من دي برجلي Broglie ودكاز Decazes (وزيرى فرنسا للامور الخارجية) اتبع بكل دقة وعزم سنة الوزارات الفرنسية قبله فيما يختص بالسياسة التقليدية ، فتونس في نظر الرجلين « مدخل الجزائر ومفتاح ممتلكات فرنسا في شمال افريقية » (١)

على ان مسألة تونس بعد سنة ١٨٧٠ لم تعد مسألة فرنسية انجليزية ايطالية فحسب ، فلقد أصبحت مسألة دولية قبل كل شيء . وسنجد ان البت في مصر تونس لم يعد في يد انجلترا او فرنسا او ايطاليا وانما كان الى حد كبير بيد المستشار الالماني بسمارك . فلا تستطيع واحدة من الدول السانفة

(١) عن Langer : European Alliances ص ٢١٨

اتخاذ موقف حاسم دون الحصول على موافقته وتأييده . ولقد وجد بزمرك في صيف سنة ١٨٧٨ ان مصلحة المانيا تعصى الفاهم مع انجلترا في هذا الشأن . وان يعطى الفرنسيين الحرية ليفعلوا ماشاءوا في هذه البلاد ، ولتفصيل ذلك نقول :

ان مسألة تونس اصبحت وثيقة الصلة بالعلاقات الالمانية الفرنسية منذ سنة ١٨٧١ ، ولقد تطورت هذه العلاقات خلال السنوات بين ١٨٧١ ، ١٨٧٨ من علاقات تحد وعد الى علاقات ود ومجاملة وصفاء .

من بعد سنة ١٨٧٠ اتخذ بسمارك موقف المعارضه لسياسة التوسع الفرنسيه بصفة عامة ، وفي تونس بصفة خاصة . وذلك راجع بلا شك الى استمرار العداء بين الدولتين ، فالاحوال في فرنسا ما كانت عاملة على كسب تقته واسترضائه ، ومن هنا كانت محاولاته لوضع العقبات امام نمو النفوذ الفرنسي في تونس .

كانت سياسة بسمارك في اور الامر قائمه على قمع فرنسا وارهابها . فما كانت سيطرة العاصر الكاثوليكيه في باريس . وماكل وجود حرب الانتفال عاملا على ارتياحه او تهينة الجو لان يمد يد الصداقة لفرنسا . وخاصة وان حكومات اليمين الى سنة ١٨٧٥ كانت تعمل حاهدة على التقرب من روسيا . وكانت سياسة بسمارك وحجوده مدى حداته تعمل دائما على الا توجد المانيا في موقف اضطررها الى الحرب في حينه في وقت واحد . ولذا كانت سياسة المستشار الالمانى الى سنة ٨١٧٥ العمل على عزله فرنسا من الناحية السياسية ومنعها من عقد محادثات مع روسيا او ايطاليا والوقوف امام مطالبها الاستعمارية .

ولكن ارمه سنة ١٨٧٥ التى استحكمت بين فرنسا والمانيا بينت له ان سياسة القمع والتهديد والوعد لم يكن سياسته حكيمة . ولذا راي اتباع سياسة استصلاح الدول الكبرى جميعا وخاصة فرنسا على حساب الدولة العثمانية التى لم يكن يهتم بمصيرها ولا بضياع حقوقها في ذلك الوقت . ولذا ففى نظره تستطيع روسيا ان ترضى مطالبها في البلقان ، وتستطيع انجلترا اخذ مصر ، بينما تستطيع فرنسا الذهاب الى تونس اذا ارادت . على شرط ان تتبع سياسة مرضية لالمانيا .

ولذا في رسالته المؤرخه ١٠ يار ١٨٧٥ الى هوهلوله السفير الالمانى في باريس **Hohenlohe** بسط بسمارك وجهه نظره هذه بالنسبة لفرنسا . فقال ان فرنسا تستطيع ان تجد في شمال افريقيه وفي تونس مجالا واسعا للتعبير عن نشاطها السياسى . وليس من المؤكد ان بزمرك بذل مجهودا لتوضيح وجهة النظر هذه لفرنسا في هذا العام ، لان وزارة اليمين في فرنسا لارالت سيطرة

على الامور ، ثم ما كانت فرنسا في ذلك الوقت تستطيع قبول مثل ذلك العرض الذي يهدد علاقاتها الودية بانجلترا واطاليا وواثرنا سينا في تلافياها مع روسيا .

ولكن انتخابات سنة ١٨٧٧ في فرنسا ، ووصول الجمهوريين الى الحكم في اواخر هذه السنة كانت عاملة على تحقيق سياسته الجديدة . فالجمهوريون كانوا قد صرفوا النظر عن سياسة التحالف مع روسيا . وعملا على توثيق الصلات بين باريس وبرلين . فان بعثوا الى برلين سفيرا جديدا معروفا بصداقته لالمانيا هو سان فالير Saint-Vallier . ولما كانت سنة ١٨٧٨ فاتحة لعلاقات جديدة بين فرنسا والمانيا ، فالجمهوريون في فرنسا مصممون على اتباع سياسة سلمية ، وحتى زعمائهم من امس حاميا Gambetta تركوا مؤقنا سياسة الانسحاب ، وفضوا ان يسوا الى حين مسألة الانزاس واللورين ليؤكدوا رعايتهم وحريتهم على سائر الارض ، وعلى سائر ذلك اصبح بسمارك مستعدا لارضاء مطالب فرنسا الاستعمارية وخاصة في تونس .

واما من حيث انجلترا ، فلقد تغير موقف الحكومة الانجليزية بالنسبة لتونس منذ سنة ١٨٧٨ . ومفلا فكر وزير الخارجية الانجليزية سولسبرى Salisbury في ارضاء فرنسا على حساب تونس كما فكر في هذا بسمارك . لانه في شهر ابريل ومايو ناقش السفير الالماني مستر Munster في هذه المسألة مع سولسبرى . ووجدت الماسا ان انجلترا موافقة على الفكرة بصفة عامة . فلقد بعث سولسبرى الى ابوت في باريس مول له " ان تونس طامعة الحال امداد لمصلحة النفوذ الفرنسي " . وكان سولسبرى مصمما على ان يحصل على موافقة فرنسا على سياسته الشريفة واحتلال اطران المساعدة في شرق البحر المتوسط نظير تركه لها حرية التصرف في امور تونس . ولذلك مهدت الامور لفرنسا قبل ان تدخل الدولتان مؤتمر برلين في صيف سنة ١٨٧٨

ولقد قبلت فرنسا الانسحاب في مؤتمر برلين على اساس حملة شروط وضعها ومن اهمها " لا تعرض مناقشات المؤتمر لمسائل سوريا والاراضي المقدسة ومصر وتونس " ووافق على ذلك أعضاء المؤتمر من الدول الكبرى . وقصر المؤتمر بالفعل مهمته على بحث المسائل الشائنة عن معاهدة سان ستافو (المعاهدة الروسية التركية) . ولكن اثناء انعقاد المؤتمر وباء على خطه موضوعه

(١) انظر Newton : Life of Lyons مجلد ٢ ص ١٢٩ . والوناق الالمانية منسرة الى بزمرك ٢٠ ابريل ١٨٧٨ . صحيفة Times ٥ ابريل ١٨٨١ .

ارغمنا انجلترا الباب العالي على الموافقة على احتلال انجليزى قبرص والاعمال على تدمير دولته . واعتقدت فرنسا حين وصلت اباء هذا الاتفاق اليها ان المعاهدة التركيه الانجليزيه الخاصه بقبرص قد قلت الوضع السياسى فى البحر الابيض المتوسط بطريقة لا يرضاهم القانون ولا يقرها العرف الدولى ولا تقبلها السياسة الفرنسيه ايا كان نوع الحكومه فى باريس .

علم وادنجتون Waddington وزير خارجيه فرنسا ورئيس مندوبيها فى المؤتمر بهذه المعاهدة قبل انقضاء المؤتمر بعدة ايام ، فكان اضطرابه وقلقه عظيما ، وثارث ثائرة الراى العام الفرنسى لامضاء هذه المعاهدة وراء ظهور الدول ، ولما اطوت عليه من ضمان تفوق النفوذ الانجليزى فى شرقى البحر الابيض المتوسط وانتقدت الصحف الفرنسيه السياسة الانجليزيه انتقادا لاذعا ، وطالبت احدى الصحف ، وهى الرسيك فرانسيز Republique Française صحيفه الجمهوريين ممثلى فرنسا بمفادرة المؤتمر دون امضاء معاهدة برلين ، وحملت على سياسته انجلترا بشده ، وبنيت ان المعاهدة التى احتل بها الانجليز قبرص قد جعلت من سلطان تركيا تابعا لملك انجلترا (١) . وقالت احدى الصحف الاخرى ان سياسته انجلترا قد اصبحت سياسته نفعيه صرفه ، سياسته التجاره فى الدول والشعوب ، واعلنت انه بامضاء هذه المعاهدة قد تضعف نفوذ فرنسا فى الشرق الادنى (٢) .

ثم تغيرت فجأة لهجة الصحافة الفرنسيه ، واخذت تسترسل فى تبرير سياسته انجلترا . وان هذا التعبير العجائى نتيجه للاتفاق الذى تم سرا بين وادنجتون وسولسبرى فى برلين . ذلك الاتفاق السرى لم يعد امرا سرايا بعد ذلك بثلاث سنوات .

كيف تم ذلك الاتفاق ؟ . اعد سر سمارك رئيس المؤتمر من سلوك ممثلى فرنسا فى المؤتمر ، وخاصة بعد ان وجد هو وممثلو انجلترا ان موقف ايطاليا قد اصبح مرييا لا يبعث على الثقة والاطمئنان (٣) .

ولم يعلم ممثلو ايطاليا بمعاهدة سويس الا من الصحف التى نشرت اخبارها . ولقد اتصل سولسبرى بوادنجتون واخبره بامر قرص ، فبين وادنجتون ان

(١) بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٧٨ .

(٢) Le Constitutionnel ١٢ يوليو ١٨٨٧ .

(٣) فلقد وقف كورتى Corti رئيس ممثلى ايطاليا فى المؤتمر موقفا اشتم منه الالمان والانجليز روح الصداقه لروسيا والعداوة للنمسا ، ولذا لم يكن بزمرك رفيقا بالسياسة الطليان ولا مجاملا لهم ولا حريصا على مصالح ايطاليا .

الرأي العام الفرنسي في ثورة عنيفة وان هذه الاتفاقية هي في الواقع ادلال جديد لفرنسا وهزيمة كبيرة لسياسة الجمهوريين قد تودى بمركزهم السياسي،
وانه لذلك ليس امامه الا مفادرة المؤتمر .

وكان كل من سولسبري وبسمارك قد استعد لمواجهة ذلك الموقف . ولذا فقد شرح سولسبري لودنجتون روح الود الذي تنطوي عليه سياسته انجلترا نحو فرنسا ورغبة الحكومة الانجليزية في تمويض فرنسا - وارضائها وذلك بان تترك لها حرية التصرف تامة في مصير تونس ، وان السياسة الانجليزية لن تعمل على ايجاد تغيير في حالة الشرق الادنى السياسي دون استشارة فرنسا ودون موافقتها . وانه اذا كانت للنمسا مهمة تؤديها للحضارة في البلقان ، وانجلترا في تركيا الاسيوية ، فمهمة فرنسا بلا شك في تونس وشمالي افريقية . وهذا هو تفسير ملاحظات سولسبري لودنجتون فيما يختص بتونس "افعلوا ما تشاؤون هناك ، وستضطرون الى احتلالها - انكم لا تستطيعون ترك قرطاجنة طويلا في يد البرابرة " (١) واند بسمارك بكنارتياج قول سولسبري ببسمارك لم يكن يحترم تركيا ولا تهمة سلامتها ولا يعاهاى مصر ملاقيه تونس طالما ارضى اصدقائه . ثم هذا كله في برلين دون علم احد من اعضاء المؤتمر المعقد بهذه المدينة .

وهنا قد يثور هذا السؤال . من هو صاحب الفكرة في الاصل ، هل هو سولسبري او بسمارك . ومن الطبيعي ان يكون بسمارك هو الذى فكر 'ولاقى هذه المسألة ' . ويقول بورجوا Bourgeois وباجس Pagès المؤرخان الفرنسيان (٢) ان بسمارك هو الذى عرض المسألة في برلين على ودنجتون له عرفه مسأله قبرص وانه هو الذى ارعاه انجلترا على ان يحذو حذوه . وبدان على وجهه نظرهما بالامتعاوض الذى ابداه سولسبري فيما بعد لسحب فكرته كتابه حين طلب منه وادنجتون ذلك . والواقع غير ذلك فرأى المؤرخين الفرنسيين ناشيء من الفكرة الى تقول ان سولسبري لم يفكر في هذا الموضوع قبل دهبه الى برلين . وهذه فكرة كما راسا غير صحيحة . فسولسبري فكر في هذه المسألة جديا حين فكر في مسأله قبرص لكى يستطيع اسكات فرنسا اذا هي اخرجت على احتلال انجلترا لبلده الجربره . وحدث ان خضعت هذه القبره في ذهن سولسبري في وقت نضجت فيه ذهن المستشار الالماني لسبب آخر . وشهادة وادنجتون نفسه لا تترك اى شك في ان الذى عرض الفكرة اولا في

(١) انظر Safwat : Tunis and The Great Powers ص ٢١٢ .

(٢) في كتابهما Les Origines et Les Responsabilités de la

Grande Guerre صفحات ١٩١ ، ١٩٢

برلين هو سولسبرى ويقولان سمارك هو الذى وافق على المقترح الانجليزى .
وذلك فى رسالته المؤرخة ٢١ يوليو ١٨٧٨ الى هاركورت سفير فرنسا
فى لندن (١) .

وقبل ان يغادر مندوبو فرنسا المؤتمر - كما يروى جبريل هانتوتو ، كتبوا
بما حدث بشأن تونس الى رئيس الجمهور - المارشال مكماهون ، فما ان وقع
على المارشال على هذه الوثيقة حتى صاح : « انهم يريدون ازالة ايطاليا ضدنا ،
لا أستطيع الموافقة على ذلك ، انا لا اقبل الدخول فى حرب اخرى » . ووافق
محاسن الوزراء على آرائه . وهناك ردة فذة ما نصه لهذه رسالة رويها وزير
الدخلىة الفرنسية فى ذلك الوقت مارسيل Marcère بأن المارشال والجبرال
سبرى كانا متفقين فيما بينهما على ضرورة تونس للجزائر . وان المارشال وافق
على عمل وادنجون لما سيسبغه ذلك على عهد رياسته للجمهورية من مجد
وعظمة (٢) .

ومما لا شك فيه ان كلا من المارشال والحكومة لم يعضد فكرة الاستعادة
الباجرة من المترح الانجليزى الالمانى . فلم يفكرا جديا فى اتخاذ خطوة عملية
لاحتلال تونس حتى لافع فرنسا فى خلاف شديد مع ايطاليا قد يؤدى الى
وقوع حرب بينهما .

ترك - واسبرى للفرنسيين حرية التصرف فى تونس . ولكنه رفض رفضا
تاماً ان يخطى فرنسا اى وعد بالأيدي ضد ايطاليا اذا وقعت فرنسا فى خلاف
مع هذه الدولة . وعندما رجع وادنجون من المؤتمر بين المارشال مكماهون وجهه
نظرة فوافى عليها ولاحظ ان فرنسا يجب الا تضيع هذه الفرصة الذهبية
وحاصه بالنسبة لبلاد بطمع فرنسا فى تفوق نفوذها فيها من مدة طويلة .

واحد رأت فرنسا ضرورة الاحتفاظ بالقنينة الى عرضت عليها فى برلين .
وكانت آراء الساسة فى فرنسا موجهة الى المحافظه على الامبراطورية الفرنسية
والرادة فيها ما مكث الظروف . فلقد اصبح لشمال افريقية جاذبية خاصة
وسحر عند الفرنسيين . وعالم اصوات الاقتصاديين المؤمنين بالاستعمار
ضرورة الاستعداد من سيطر فرنسا المدعو فينادى بول لروى بوليو
Paul Leroy Beaulieu « الاستعمار لدى الشعوب الحديثة » « يجب ان
تذكر هذه الحقيقة لامنا . يجب ان نطرد الافكار التى تؤدى بنا الى كوارث

(١) الوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد ٢١.٢

٢١ يوليو ١٨٧٨

(٢) فى La France Contemporaine مجلد ٤ ص ٢٨٨ .

جديد فامام خمسة واربعين مليوناً من الالمان الدين سيصير ستين في مدى
مشرين عاماً لم تعد فكرة الانتقام فكرة صائبة « (٢) » .

فيجب اذن ان تحول فرنسا انظارها ، فتطرح فكرة الانتقام من المانيا
حانيا الى الاستعمار خارج اوربا . فليس من صالح فرنسا ان تفقد حيويتها
وشايطها في الحرن او الأسي على الماضي ، وانما ضروري لها الحركة والنشاط .
ففي شمال افريقية تستطيع فرنسا التعبير عن نشاطها وحيويتها دون التعرض
لاى اذى او خطر . لفسد وضع فرنسا كما رأت في شمال افريقية اساساً
لامبراطورية فرنسية ونقطه ارتكاز منها تستطيع ان تؤدى رسالتها للحصارة .

رأت فرنسا ضرورة الاحتفاظ بتونس لنفسها . ورأت فرق من رجال
الحرب ضرورة الاسراع باحتلال هذه البلاد ، ولكن فرنسا ما رحت غير مستعدة
للقيام بحطوة حاسمة بالاسلاء بالقوة على تونس . فالانعام من المسا لارال
حلماً قومياً ، وكان رجال حرب الانتقام يرون ان كل مخاطرة عسكرية في
الخارج لا يكون الغرض منها استرجاع الاثراس والثورن حريمه لا يفرها
الوطن ، وفوق ذلك لارالت دكرات معامرات الامبراطورية الثانية عاقلة في
الاذهان تثير الحذر والرهت . وكان اهتمام فرنسا الاول هو المحافظة على
مركزها في اوربا . فهي لا تريد اثارة مشاكل قد تفقد بها عطف احدى الدول
الكبرى ، كذلك ولو ان الجيش الفرنسى قد وصل الى درجه لانس بها من
القوة الا ان دخول السياسة فيه ما كان عاملاً على اسباب النظام الدقيقين
صفوفه ، فلقد كان الجيش في فرة تحول الى الجمهورية . وكذلك كان عدم
استقرار النظام الجمهورى داعياً الى الرهت وريادة الحذر والاهتمام قبل كل
شىء بنشر الدعاية للجمهورية وتنويع مركزها داخل فرنسا . نه هياك كان
الحذر والخوف من المانيا والشك في وعودها وحنية اثاره عداوة ايطاليا .

كل هذا دعا الى التفكير والبردد . ووصلت الحكومة بعد امعان النظر الى
ان خير الحلول في ذلك الوقت ربما كان الاقتصاء على مد النفود السلمى .
وتركت فكرة الاسراع الى الاحتلال . ولكن الحكومة الفرنسية صممت على ان
يكون النفود الفرنسى في هذه البلاد منعوقاً منعوقاً لا خارعه أحد . وعزمت
كذلك على ان تطلب من اوربا الاعتراف بتعوق نفوذ فرنسا . وصممت على ان
تمنع بالقوة كل دولة تحاول تثبيت او تنمية نفودها في هذه البلاد .

كان هذا رأى وادجنون بعد رجوعه من برلين . وكان اول خطوه حفاها

Carroll : French Public Opinion and Foreign Affairs عن (٢)

صفحات ٨٥ ، ٨٨ .

هي ان يأخذ من انجلترا ضمانات كتابية . يسجل موقفها الذي قررته لورد سولسبري شفويا في برلين . وقبل ذلك في ١٩ يوليو اتصل وادنجتون بفنصله في تونس . واخبره ان فرنسا قد تضطر الى فرض حمايتها على تونس . وطلب منه الاستنارة في المسائل الاتية : هل ن الممكن اقناع الباي سلميا بعقد معاهدة اتحاد مع فرنسا يعترف فيها بالحماية الفرنسية واحتلال فرنسا لبعض المراكز الاستراتيجية مثل جولتا وبنزرت . واذا رفض الباي ذلك الاقتراح هل لدى تونس قوة كافية للدفاع عن نفسها ، وكم من الجنود تنطلقه حملة فرنسية لارغام الباي على قبول المطالب الفرنسية ؟ هل هناك خطر في احتلال ايطاليا لطرابلس (١) .

وفي اليوم الثاني وصلت آراء القنصل باريز : قد يستطيع الباي ان يقبل الحماية لسوء حالة البلاد المالية ، ولكن ليس لدى الباي قوة يستطيع ان يدافع بها ، والاهالي ميسالون للسلم ، وليس لديهم السلاح ولا التدريب اللازم للحرب واما القبائل فيستطاع عزلها في الجبال ، وخير طريقة تستخدمها فرنسا هي ان روستال يصعد الشخصيه عازض الباي في امر الحماية . وبهذا لا يخرج مركز الحكومة الفرنسية اذا رفض الباي مطالب القنصل الفرنسي .

وفي هذه الاثناء وصلت اخبار سارة من لندن فلعده رجع ديزريلي Disraeli من المؤتمر الى لندن واعلن في مجلس اللوردات « حسن الصلة بين فرنسا وانجلترا » ، ووصف فرنسا بأنها احدى دول العالم الكبرى وان انجلترا كانت تعمل دائما على كسب ود فرنسا . ولذا انهز وادنجتون هذا الطرف الموالي واتصل بالمركز دي هاركورت سفيره في لندن ، وبعث اليه برسالتين مؤرختين ٢١ يولييه ، وبهما بعضيات عن المحادثات الخاصة التي دارت بين وادنجتون وسولسبري وبيكونرفيلد في برلين . والرسالة الاولى تختص بمسائل مصر والشام . . . والثانية ، وهي التي تهمننا في هذا المقام ، خاصة بتونس : ففي برلين تناقشت فرنسا وانجلترا في مصر تونس في اكثر من محادثة ، واكد بيكونرفيلد ما صرح به سولسبري من عرض تونس على فرنسا . وأصر وادنجتون على ان تسجل انجلترا تصريحاتها كتابية ، والا اتخذت العلاقات الفرنسية الانجليزية شكلا آخر (١) .

ولقد غضب سولسبري من سرع وادنجتون ، لانه اى سولسبري لم يكذ

(١) انظر اوثائق الفرنسية السياسية 1ère Série D. D. F. مجلد

٢ رقم ٢٢٨ .

(١) نفس المرجع السابق ارقام ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ .

يستريح من أعمال المؤتمر المصنية ومن مهاجمة جانب من الراي العام البريطاني لماهدة قبرص حتى يجد فرنسا مصره على تسجيل اقواله، كذلك كان سولسبري قد عرف عدم ارنياح ايطاليا الى قرارات مؤتمر برلين، فأى تصریح على من ناحيته بالنسبة لتونس قد يدعو ايطاليا الى الاسراع الى عقد تحالف مع روسيا او عرقلة تنفيذ قرارات مؤتمر برلين . ولم يكن غضب سولسبري راجعا الى ندمه على ما فعل في مدينة برلين كما يظن البعض .

ولما قرا السفير الفرنسي الرسائل لسولسبري أراد غضب الاخير ، فلقد وجد ان اللهجة العادية التي استخدمها مع وادنجتون قد سجلت في وثيقة رسمية قد تنشر في يوم من الايام . ولذا كان يقطع السفير الفرنسي مبديا بعض ملاحظات لاذعة . وارسى بالفعل الى سفيره ليور و باريس يقول له ان وادنجتون جعله يتحدث من تونس كأنها ملكه الخاص . « والذي قلته له (اى لودنجتون) انه اذا هب الظروف لفرنسا احلال تونس فانهلرا لن تقدم اى اعتراض » . وقال سولسبري للسفير الفرنسي ان انحلرا لاستطيع الصر فيما لاملك . وانه ودد ان يكتب وادنجتون بصرح برلين في لهجة سياسية وانه اى سولسبري لن يستطيع الاحاة عليها قبل ان يستشير مجلس الوزراء الانجليزى .

ولم يرق السفير الفرنسي موقف سولسبري . فبعث الى وزير الخارجية الفرنسية يذكره بان سولسبري ربما يكون قد غير افكاره . على ان سولسبري عرض المسألة على بيكونز فيلد وراى الاثنان ان ليس من حسن السياسة في شيء اجبار فرنسا على اللجوء الى المعسكر الروسى . وانه من صالح انحلرا ان تجيب طلب وادنجتون . ولذا كان على الوزير افرسى ان يكتب طلبه بلهجة ملائمة ، فصاغ تصريحات سولسبري في برلين كالآتى : « افعلوا في تونس ما ترونه ملائما ، ان سولسبري رى من المستحيل بقاء النظام الحالى في تونس وانه على فرنسا . كما نرى الحكومة الانجليزية ان تقوم باصلاح هذه البلاد . »

واجاب سولسبري على ذلك في ٧ اغسطس ، ووصف ما دار بينه وبين وادنجتون من محادثات في برلين . واعترف بضرورة تفوق نفوذ فرنسا في تونس ، ولكنه اصر على ان تكون هذه الوثيقة سرية لاتدعها فرنسا الا بعد موافقة انحلرا ، كما انه بين لفرنسا ضرورة اعتمادها على نفسها في حالة اعتراض ايطاليا (١) .

Vol. 143. Granville Papers - Printed for the (١) انظر
use of the Cabinet.

Public Record Office وهذه الاوراق لم تنشر بعد وموجودة في ال

في هذه الوثيقة يقول سولسبري : « بأن إنجلترا رأت بسرور عظيم نجاح التجربة التي قامت بها فرنسا في الجزائر والمهمة الحضارية العظيمة التي تقوم بها في هذه البلاد . وان إنجلترا شاعرة بأن وجود فرنسا في هذه الاقطار تؤيدها قوة حربية عظيمة لا بد وان يعطيها نفوذا كبيرا في تونس . . . وان إنجلترا ليست لها مصالح خاصة في هذه البلاد . . . » ويرى سولسبري ان النظام الموجود في تونس يستطيع ان يستمر مدة طويلة اذا لم تزعه العواصف الخارجية ، ولكن هذا لا يغير من موقف إنجلترا (١) .

وبذلك انتهى قلق وادنجتون من ناحية إنجلترا ، وعاد الى قنصله في تونس ، يطلب منه ان يصف له الاثر الذي تركته الشائعات عن عرض إنجلترا ، وان يسر موقف كل من العنصرين الانجليزي والايطالي ، ثم على روستان ان يعد مشروعا لمعاهدة مع الباي تقرر الحماية على تونس ، ثم عليه ان يقرر عن الموقف المالي والسياسي في هذه البلاد (٢) .

وبعد روستان بأرائه وسافر الى باريس بعنه وبقي فيها جانبا كبيرا من اغسطس سنة ١٨٧٨ ، ولكن لم تستطع الوزارة الفرنسية ان تصل الى رأى نهائي بشأن الحماية ، فهناك عقبات لا بد من تذليلها ، فلا بد ان تضع فرنسا حدا لنشاط القنصل الانجليزي ريتشارد ود ، ثم هناك مسألة معارضة ايطالية فلا بد من التفكير في تعويضها ، وعلى فرنسا ايضا ان تعمل حسابا للشعور الاسلامي الذي ثارت ثائره نتيجة لمعاهدة برلين ، ولذا اجل موضوع الحماية الى حين .

عرفنا ان الاتفاقية بين وادنجتون وسولسبري كانت سرية ، ولكن الجو في تونس امتلا بالشائعات عن هذه الاتفاقية فلقد نشرت صحيفة نمساوية وهي مونتاجر بلاط Montagsblatt بأن إنجلترا اهدت تونس لفرنسا ، ولكن وادنجتون رفض هذه الهدية بحجة انه يريد ان يروح من برلين بطيف اليدين . وعلت الصحف النوسية ذلك الخبر . فابارت الدهشة والذعر في تونس ، فالساي لم يكن يستطيع ان سكن بالدواعي التي جعلت الانجليز يغيرون سياستهم ، وكان امامه دائما مفسر الحرائر يقض مضجعه . واما القنصل الانجليزي فقد اخذ ينعي مجهود حياته كلها ، واما الجالية الايطالية في تونس

(١) نفس المصدر ، T. 2 1ère Série D. D. F. رقم ٣٣٤ .

Newton: Lord Lyons مجلد ٢ ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٨٨١ Blue Book : Tunis

(٢) الوثائق السياسية الفرنسية T. 2 - 1ère Série D. D. F

رقم ٣٣٩ ، ٣٤٠

فما كانت تستطيع ان تصدق ان اى وزير ايطالى يستطيع الموافقة على اتمام هذه الصفقة لفرنسا .

ثم يقص سولسبرى لقنصله بما حدث حقيقة في برلين ، بل جعل الامر سرا مكشوف عنه فحين اسفصر القنصل الانجليزى من حكومته عن حقيقة الموقف حتى لا يترك الجو السياسى تسممه شائعات قد تكون غير صحيحة . يحب سولسبرى اجابة مقنعة وانما اقتصر على ان ذكر لمثله في تونس بان حكومته جلالة المكة لم تعرض على فرنسا ضم تونس ، وهذه الرسالة كما تدل الفاظها بقط لا تختلف مع ما حدث فم تطلب انجلترا الى فرنسا ضم تونس ، وطار القنصل الانجليزى بذلك التصريح الى الباي مخفف من قلقه ، ولكنه لم يسمعه نهاما والشائعات كانت قد نجحت في كهر به الجو السياسى (١) .

وبحسن روستار وصف حالة الباي حين يقول : « ان الباي تنتابه بويات قلق واطمئنان . فيصيبه الحزع حين نردد الصحافة نبأ ابقاء تونس لفرنسا ، وصبه بعض الاطمئنان حين يروى القنصل الانجليزى والقنصل الايطالى فيهما حاولان ان يشا لديه ان مسألة تونس لم تعرض في برلين ولا في غيرها ... وان فرنسا تريد ارضائه ... وان حاله فرنسا الداخلى لا تسمح لها بالبقاء النظر الى ما وراء حدودها » .

ولقد اسعمل ممثل فرنسا هذا الظرف ، فاثار مخاوف الباي من ناحية السلطان . وبين له ان بريطانيا قد عرضت بالفعل تونس على فرنسا ، ولكن فرنسا الى تريد ان تثبت لدى الباي « فضيلتها السياسية » وصادقتها رفضت ذلك العرض . ولكن القنصل الانجليزى لم يلبث ساكنا امام هذه الماوارى فلجأ الى وسيلة طريفة فترجم نصريح لورد بيكونز فيلد في ١٨ يوليو ونشره في مجله الرائد التونسى . في ذلك التصريح يؤيد لورد بيكونز فيلد تمسك انجلترا بسياسة المحافظة على ممتلكات تركيا . واردف هذا بان قدم رسالة شخصية للباي يؤكد فيها مصلحة انجلترا في صيانة استقلاله .

ولم تستطع فرنسا قول ذلك المسلك باى حال ، ولذا لم يحدد وادنجتون بدا من الاتصال سولسبرى ولخص له تقارير روستار عن ممالك القنصل الانجليزى . وبين الا شى يرضى فرنسا سوى سحب القنصل الانجليزى . ولم يكن سولسبرى سعيدا حين قدم له ذلك المطلب ، ولذا اخذ يسوف في تنفيذه . فاضطر وادنجتون الى الالتحاء الى سمارك ، وبعث الى سفيره في

(١) وثائق وزارة الخارجية الانجليزية F.O.102/111 ورد الى سولسبرى

١٢ اغسطس ، ١٠ اكتوبر ١٨٧٨ .

برلين ستفسر منه اذا كانت المانيا تمنع في فرض حماية فرنسية على تونس .

وكانت تصريحات بسمارك في فريدرسروه ٥ يناير ١٨٧٩ أكثر مما كان الفرنسيون يسطرون . ودعا بسمارك الى ذلك توتر العلاقات الروسية الالمانية ، فرأى ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا . ولذا كان حديث بسمارك مع سان فليير يفيض بالود والمجاملة فيقول : « اعتقد ان الكمثرى التونسية قد نضجت وقد حان وقت قطافها ، وان عماد الباي وعدم المجاملة هو العامل الاساسي في نضج هذه المسألة . وسفسد هذه العائنه او تسرق اذا تركتموها على الشجر مدة طويلة » . ولقد احرق بسمارك بظرفه ادهان الفرنسيين وكشف عن شكهم في صدق دوافعه . ولذا اخذ يعصر هذه الدوافع ويبين حسن نيته نحو فرنسا . انه شاعر بما غاسبه الجمهوريون في فرنسا من صعوبات خارجية ، وانه ليس لديه مانع في تأييد جمهوريه صدقة ومعتدلة وفي ارضاء شعور الشعب الفرنسي الذي است حسن طوبته . ولذا فهو سيؤيد مخلصا السياسة الفرنسية في البحر الابيض المتوسط . وفي مناطق بوسنها الطبيعية ، واندافعه الاول هو السلام . فالعصر الالمانى يريد ان يمضى ببقية عمره في هدوء ومجد وانه غير ميل الى حرب اخرى (١) .

وحمل المستشار الالمانى على مشاكلات الباي ، « ذلك الحاكم الصغير المبربر » لفرنسا . واظهر اسبابه من سياسة ريتشارد ود . واكد للفرنسيين انه كما يضمن لهم صداقه المانيا وتأييدها يضمن لهم صداقة النمسا ايضا ، وبين لهم رعيه في ان يسود الصفاء بين انجلترا وفرنسا . واتصل بانجلترا لكي تزيل كل ما يعمل لتكدير علاقاتها بفرنسا .

ونتيجة لذلك الموقف اضطر سولسبرى الى ارسال تعليمات لقنصله في بوسن بايجاد سياسة الحاد ، وكان ذلك تمهيدا لاقالته . واخبر سولسبرى وادبحور انه قد انتهى عمل المصلحيه الانجليزيه في بوسن من الناحية السياسية . وتسلم ريتشارد خطاب اقالته وعاد تونس واسهى نشاطه السياسي في ابريل سنة ١٨٧٩ . وبدا اسبها نهائيا المنافسة الانجليزية لفرنسا في تونس .

وبقيت ايطاليا العنة الوحيدة الاخيره في سبيل الفرنسيين في تونس . فماذا كانت سياسة ايطاليا في هذه البلاد . في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ كان لاطاليا مركز

(١) الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F. سان فالير ST. Vallier الى

وادنجنون ٥ يناير ١٨٧٩ .

قوى في هذه البلاد . فإيطاليا تدعى أن لها مصالح مهمة في تونس لقربها الجغرافي وصلاتها التاريخية بحوض البحر الأبيض المتوسط ، ولان استقرار عدد كبير من الإيطاليين في تونس ربما زاد على عدد أي جالية أوروبية أخرى . ولقد اهتمت إيطاليا حتى أثناء حركة وحدتها بالاحداث السياسية التي بحرى في تونس . وحاولت التدخل تدخلا فعليا في امورها سنة ١٨٦٤ . ودخل الفصل الإيطالي في معركته حامية الوطيس في ميدان المنافسة مع القنصلين الانجليزى والفرنسى . وعمل على كسب الامبيارات لدولته وللرعايا الإيطاليين بحيث أصبح لا يطلو المركز الثالث بعد فرنسا وانجلترا من حيث النفوذ . ولقد اتبعت إيطاليا فرصة الكارثة التي لحقت بفرنسا في ١٨٧١ فحاولت احتلال تونس ، ولولا موقف انجلترا لم للإيطاليين فرض سلطانهم على تونس وأصبح مع الفرنسيين من احتلال تونس من أهم الاسس التي قامت عليها السياسة الإيطالية .

وكانت فرنسا تعلم تماما ما هي مظاهر الإيطاليين في هذه البلاد ، ولذا انكر وادجنون في طريقة يستطيع بها أن يوجه أخطارهم عن تونس . وطش أن فرنسا قد تكون تعويضا كافيا لهم .

ولقد اتصل وادجنون بسفير إيطاليا في باريس تشالدينى **Chialdini** وبين له أن فرنسا لا سوى احتلال تونس دوران تعترف لإيطاليا بحق الاستيلاء على بلاد أخرى ، ثم بعث رسالة إلى سفيره في روما ، يوضح فيها وجهة النظر الفرنسية . ويحذر منها إيطاليا . وفرنسا مستعدة لأن تدفع بالنفوذ إلى أعداء على تونس .

لا بد من أن كانت إيطاليا قد عرفت محولات هذه الوثيقة . ولكن الذي لا شك فيه أن أعاد له فكر بدرى مداً جدد وراء السري في برلين . لقد سمعت الحكومة الإيطالية بالنشائعات التي اشترت . ولكن سولسبرى لم يسمع عنيتها حتى أسفرت منه عن صحب . فلم يعطها رداً واضحاً . ومع هذه كتب الحكومة الإيطالية لسفيرها في فرنسا قد سبب أسفه على أن حسن تونس يوماً ما . وأن الدولتين الألمانية والإسبانية تعقد موقفاً عامصاً .

ولقد حاول وادجنون أن يستعمر في برلين عما إذا كانت المطالب الإيطالية تجد تشجع لدى المستشار الألماني . فأكد له سيمارك أن ألمانيا تؤيد فرنسا بأشد ما يمكن . وقد صرح الإيطاليين بأن يسعدوا عن تونس إذ أنها مصفحة نفوذ فرنسى . وكانت لجنة سيمارك نحو إيطاليا مهكرة لادعه سباحة حرجه . فعلاقات ألمانيا بإيطاليا بعد مؤتمر برلين كانت سيئة .

ولكن الصراع بين فرنسا وإيطاليا سسند سحبه لمع هذه برلين . صورة الراى العام الإيطالى على هذه المعاهدة واتجاه أساسه الخارجية الإيطالية

هو الذي دعا الى ذلك ، فلقد رجع كورتى مندوب إيطاليا من مؤتمر برلين
خاوي اليدين بينما رجعت الدول الاخرى محملة بالعسائنه . واحتل التوارن
الدولى في البحر الابيض بعد احتلال الانجليز لبريس . وازادت إيطاليا ان
تشارك مع انجلترا وفرنسا في الاشراف على شئون مصر المايه . فرفضت
الدولتان ، ولذا انتهت إيطاليا الى تونس محاولة تعديل مرزها فيها لاعادة
التوارن الى البحر الابيض ولارضء الشعوب القومى الايطالى .

بدأت إيطاليا تحدد انه لووسع حد لنمو نفوذ فرنسا في تونس يجب اولا
الاعتراف بتونس كجزء من الدولة العثمانية . وذلك لانستطيع اماره مسأله
تونس دون اثاره المسأله الشرقية كلها . نابيا العمل على الحصول على
امباراب سياسيه واقتصاديه للافانين . فلا يكون فرنسا صاحبة النفوذ
وحدها . بلنا نأيد الصلاب سريطانيا لفصلها عن فرنسا . وكانت إيطاليا
مساعدة ان تعرف نفوذ المصالح السريطانية في البحر الابيض نعماء لذلك .

وبارعت إيطاليا كل خطوة يحطوها الفرنسيون في تونس . وبلغ النزاع
اشده في سنة ١٨٨٠ فاصبح صراعا واضلما شديدا . وبذلك الرابع في سيفسنة
١٨٧٨ حتى عمت الحكومة الايطالية مبنى **Muesi** ممثلا لها في تونس
فحاول ان يتفق مع البنى على فرض حماه ايطاليه على تونس . فلما فشل في
ذلك حاول ان يفتح مع البنى ليسارل عن نزول لاطاليا او اعلانها ميناء حرا
ففعل ايضا . فلقد كان روستن يرافف اعماله وقومها . وادا كن مبنى قد
نجح في شيء . فبعد نجاح في وضع تقرير عن موقف فرنسا واسماعها في تونس
ذكر فيه ان فرنسا تعمل على ضم سررت اليها . كذلك بين ان من الضروري
لإيطاليا ان يعي في تونس رجلا ذا خبرة بأمور الشرق حتى يستطيع الكفاح
مع روستان .

وفعلا عمت الحكومة الايطالية ماتشيو **Maccio** . وهو رجل له خبرة
بأمور الشرق الادنى . وسمار بشاعه وعده . كان زميلا لروسان في القاهرة
وبيروت . واشتد بينهما النزاع الى درجة الخصومة الشخصية . وصل
ماتشيو الى تونس في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ على ظهر سفينة حربية . ودخل
تونس تحفظ به له من الحدود والحارة . واسمعرض الحايه الايطاليه التي
خرجت لاستقباله ودقت الطبول . ومر في شوارع تونس مرور الابطال وسط
الرهور والموسيقى والهدف الى ان وصل لدار القنصليه .

ازادت إيطاليا بهذا التصرف التأثير على البنى والجاليسات الاخرى لترى
اهتمام إيطاليا العظيم بأمور تونس . ومن ذلك الحين عرفت فرنسا ان إيطاليا
قد شمت على نفوذها في تونس حرما شعواء لاتفى ولا تنز .

ولذا رأى الفرنسيون بعد أن طغروا بأبيد بسمارك إعادة النظر في مسألة الحماية ومطالبه الباي بضمانات للمستقبل ، رأى وادجنون أن يطلب من الباي الموافقة على حلف دفاعي يتعهد فيه الباي بأن يطلب من فرنسا العون الحربي إذا اعتدت عليه أية دولة أخرى ، وذلك الحلف الدفاعي بطبيعة الحال يقتضي احتلال الفرنسيين لبعض النقاط في البلاد .

ولما قدم الباي ذلك المشروع في صيف ١٨٧٩ رفضه يؤيده في ذلك مانشيو ، وكان قنصل فرنسا يفتي فرض المشروع بالعوة على الباي ولم يكن يروقه حذر وادجنون ولا برده . ولكن روسون حين لم يجد تأييدا من حكومه ، رأى أن يملأ الجو بالمشائعت وأن يصف الحالة في تونس وصفا مثيرا وبين أن سياسته الاعتدال قد تؤدي لمركز فرنسا في شمال إفريقيا . وربما أثارت الخواطر على فرنسا في الجزائر ، وبالع في أمر الحوادث التي تقع على الحدود بين تونس والجزائر . ثم أشار إلى ما يقوم به إيطاليا للحد من النفوذ الفرنسي في تونس .

ولكن هذه السعير لم يحدث الأثر المطلوب في باريس ، فقد سقطت وزارة وادجنون وحايك وزارة دي فرنسية في ٢٩ ديسمبر ١٨٧٩ . ولم تحزن إيطاليا على سقوط وزارة وادجنون . وكانت تنظر من الوزارة التي خلفها أن تكون أكثر عطفا على أمسي الإغاليين ، ولكن فرنسية لم يكن أقل حماسة لمصلحة تونس من مسعة . ثم - عر عن وجهة النظر الفرنسية بوضوح كبير ، في أن ما يخص تونس يرى أن متحسبا سياسية والاستراتيجية بعضي لا يعرف العلاقات بين تونس والجزائر أي نفوذ اجنسي . وأما نرى أن تونس ما هي إلا امتداد لمستعمرات إفريقيا ، وأن حريسا في العمل في الجزائر نحبهم بهذه بكر ما حدث في تونس ون سياسة الباي يجب أن تكون مرتبطه سياستنا (٢ يونيو ١٨٨٠) (١) .

وكن فرنسية موقف أن إيطاليا لن تعرف بادعاء فرنسا حق النفوذ في تونس . وبها تضارب في نفس الوقت لمركز مساو لفرنسا . ولكن كلا من فرنسا وإيطاليا لم يكن رعب في حل متوسط . فاحتدم النزاع بين الدولتين على احتشور على امتيازات السكك الحديدية أو الخطوط التلغرافية ، وقامت حرب عسفة بين الصحافة الفرنسية والصحافة الإيطالية . بوصف الصحافة الإيطالية امتيازات فرنسا المنكره على إيطاليا . وأن وجود فرنسا في تونس فيه تمديد حقيقي لمركز إيطاليا البحري ، وردد الصحف الفرنسية بالمثل .

نظر "تونس السياسية الفرنسية" I. 3 . D. D. F. رقم ١٤٢

على ان فرنسا رأت ان تدخل الحكومة الإيطالية لتأييد الشركات الإيطالية وخاصة شركة روباتينو فيه اعتداء كبير على حقوق فرنسا وعلى الحالة السياسية في تونس . ولذا رأى فريسنيه ان من الحكمة عدم التنافس مع إيطاليا في مسألة تونس .

ولكنه صمم في نفس الوقت على ان تمنع فرنسا بالقوة أية محاولة من جانب إيطاليا للسيطرة على المشروعات الكبرى في تونس . فمثل هذه المشروعات حق لفرنسا وحدها . ولم يحف فرنسية وجهة نظره هذه على سفير إيطاليا في باريس ، تشالديني . كما بين له أيضا ان النفوذ الفرنسي وحده هو الذي يجب ان يكون متفوقا في تونس ، ولم يسر ان يشير الى طرابلس كمكان يصح ان تذهب اليه إيطاليا .

على ان ذلك النذر لم يفت في عضد إيطاليا . فسارت في طريقها تعرقل مشروعات فرنسا ، وأعلنت ان في تونس مجالا منسعا لكل من إيطاليا وفرنسا ، وكانت كل مظاهر النشاط الإيطالي مثيرة لفرنسا ، فتعالت خطب رجالها بأن فرطاجنه كانت يوما ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ولذا لا يجب اليوم ان تحضع تونس لدولة أخرى ، وسارت المواكب من الإيطاليين في الملابس البراقة يصحبها دق الطبول خلال شوارع تونس .

ولم يقتصر الإيطاليون على مثل هذه المظاهر بل انشأوا صحيفة في كلياري تسمى المستقل . هذه الصحيفة اخذت تهاجم الفرنسيين بصفة عامة والخلق الفرنسي بصفة خاصة وتقارنه بالخلق العربي العاقل . بل ودعت الى نعت خلق الفرنسيين بأنه خلق منحل وفاسد وان فرنسا لا تهتم بالوسائل في سبيل الحصول على رعاياها الوثنية وهي استعباد المسلمين واستدلالهم . وكانت هذه الصحيفة تورع مجانا في شمال افريقية في تونس والجزائر نفسها . واعتقد الفرنسيون اعتمادا جرما بأن كل الصعاب التي يجيئونها في تونس هي من خلق الإيطاليين .

ولذا وجدت فرنسا ان الفرصة في اخذ تونس تنصاع كل يوم وان الوقت قد حان للقيام بعمل جدي . لاسيما وان الموقف الدولي الاوربي كان يتغير بالتدريج في صالح إيطاليا . لاسيما وان موقف الوزارة الجديدة في إنجلترا ووزارة جلادسنون لم يكن وديا بالنسبة لفرنسا ، فلقد كن جرانفل وريبر الخارجية مستاءا من سياسة سولسبري الذي سبقه مصمما على اثارة المراقيل لفرنسا في تونس .

هذا الى ظهور اخطار جديدة في افق شمال افريقية مثل خطر الجامعة الاسلامية . (وليس هنا المجال للتفصيل فيه ، فلقد فصل فيه المؤلف في

جهات أخرى ، فلقد وجدت فرنسا أن تونس أصبحت ملجأ الهاربين والمتمردين
 الجزائريين كما كانت مركزا للدعابة للجامعة الإسلامية وموئلا للدهائن
 والمؤامرات ضد فرنسا . ولقد وجه تيسو Jissot سفير فرنسا في
 القسطنطينية نظر حكومته إلى المذورات التي يقوم بها باهتمام السلطان
 عبد الحميد العثماني وذلك رغبة انداز فرنسا المتكررة له . ولذا رأت الحكومة
 الفرنسية أنه لا بد من استعمال القوة في تونس لاسيما وأنه وصل إلى عندها
 أن الأتراك يقومون باستعدادات حربية في طرابلس لاثارة المشاحن على الحدود .
 ولقد كان الموقف كان فليبي سفير فرنسا في برلين أمر منه في إثارة حكومته
 ليقوم بعمل حربي . فمدرري ر هتة نيت من اسررد في صفوف الجمهوريين
 ورغبة في الانتظار حتى نهاية الانتخابات ، فهو يكتب إلى وزير الخارجية ببارلي
 سب هيبير يقول له : ه تقول لي انهم يريدون الاستمرار حتى يهيه الاسلحة .
 وعند ذلك يفعلون . ما هذا السخف ، وما هذا النعاس . . في خلال عشرة اشهر
 سنبصرون ما موقف حديد . ما حيلة ابداله على تونس . امام تحالف
 سري منظم ضدها . وما عيبكم الا ان تراجعوا لان العروف ستكون محتلة
 عما نحن فيه الا . لهذا من رغبة حربية ستكون امامكم حرب اوروبية لصيانة
 مستعمرات في الجزائر . يوري الفرر انك وصي عبور . وكذا مسيو جمننا .
 حاول ان يراه وان يتفاهم معه حتى لا نقضي بلاندا ادلا لا جديدا . . . اني قلق
 وغير سعيد . . . واني وذا ان اجيء إلى تونس لافان مسيو جمننا ومسبو
 فري ومسبو حرقى ونحسب كله معر ما ينقسه الطرف القومي والمصلحة
 القومية . . . ولولا اني لا استطيع الاتصال بأحد منهم دون اسدالك : كنت
 كتب اليوم مسبو جمننا ضد له الموقف واسير حمسة القومية . حب
 لا حب رجة بررس سمرند فله . وحسنا لا حقوقك كمة جورنا كوفه
 ر فرنسا . ما بحسب ان حبس هي لا قوة نعد في الحرج . . . ان اورد
 تنظر انك حكمة عسا . والعرف اذا ك استطيع انم شىء . لاند من القيد
 حقوة قومه . من من شىء في عمل ليس به خطر عسا ولا يراق به ذمة
 كيرة حتى يستطيع ان يحس مكانة الملاقي من السمور . وما انك انسا صعبا
 مسبون ر مركز اسد في ورو . ان حقني لحننا وحرقني . انك شى
 سمعهم كلام بسمارك وكلمة بررس جورنا كوف . . . بررس حرقى ان عيب
 ان حذر من مصدحه فرنسا تحبوبة والمصالح اسلوة .

ودر سفير فرنسا في روما . دي بول de Noailles عن مفرد تحضر
 بضمه حصة وعذرته بالخلق العربي الفاضل ، بل وذهبت إلى بيت خلق

الاطاللى (١) فقال « انه من المسجل الوصول الى اتفاق مع ايطاليا بالنسبة لتونس الا اذا تنازلت فرنسا عن مزارها في هذه البلاد فحيال كيرولى الرئيس للوزارة الايطالية يتسع لكل شيء غير معقول وهو يتسع تحت تأثير من حوله سياسته عاقبتها الحرب مع فرنسا ، وانه لا فائدة من تأجيل مسألة تونس ، بل ينبغي اتخاذ خطوة حاسمة في الوقت الذي لا تزال فيه اوربا صديقه لفرنسا .

لقد أعلن الايطاليون علينا حربا عوانا في تونس . . . وانهم يعملون على القضاء على نفوذنا والحلول محضا . . سنفقد تونس ويصبح مركزنا حرجا في الجزائر . وان نسامحنا ان حاب لنا صداقه ايطاليا . بل سقائلنا كخصوم في كل مكان . . » . ومن دى نوال كذلك ان الاطالبيين يعملون على احكام صلاتهم بايطاليا لكي تدخل في تونس لصالحهم ، فاطالبا لانهم فعلا بايعاء للعود الفرنسي من تونس بل هي تريد ان يحل محل الفرنسيين في كل اجراء الحرب الاضى وان يكون لها المكان الثاني بعد انجلترا . . . » (١)

وامام هذه النذر كان لامر لفرنسا من الاجراء الى القوة المسلحة لتاديب تونس وايطاليا معا . ولذا منذ الوقت الذي تولى فيه بري الحكم كانت الاستعدادات على قدم وساق على الحدود الجزائرية . وفي مايو من هذه السنة ١٨٨١ وصلت الى قرب العاصمة التونسية حملة فرنسية بريه كانت قد قدمت من حدود الجزائر واخرى بحريه كانت قد برزت في بنزرب . وتقدمت الجنود الفرنسية وعسكرت امام قصر باردو حيث كان ينزل الذي . وتقدم الجنرال بريار Bréart بمسروع معاهدة . واعطى الصديق مدة اربع ساعات للتفكير افسع بعدها حاكم تونس وكان قد استبعد بالدور فله يجد نصرا . اقتنع بمول المعاه الفرنسيه فاضى معاهدة باردو في ١٨ مايو ١٨٨١ . وبدا أصبحت تونس خاضعة لفرنسا في ظل نظام الحماية .

١/ الوثائق السياسية الفرنسية D. D. F . 3 . J. رقم ٢٤٩ الى سابت هيلير St. Hilaire يناير ١٨٨١ . حميتا وفري وجريفي اساطين الحزب الجمهورى في فرنسا

١/ نفس المصدر السابق تقارير دي نوال De noailles 'رقام ٣٦٨ . ٤٠٢ ٤٠٤ في فبراير ومارس ١٨٨١

لقد كان لسقوط تونس في يد الفرنسيين وقع شديد في مراكش ، فلقد ضربت فرنسا مثالا لما تستطيعه القوة ، وبعد اخذ تونس تستطيع فرنسا التفرع لشئون مراكش التي كانت حكومتها احدى والصعب تدريجيا ، لاسيما وان الفرنسيين يستطيعون تبرير القيام باعمال حربية على الحدود المراكشية ، ومنذ عهد بعيد قامت المناوشات بين القبائل الجزائرية والقبائل المراكشية ، كما ان عددا كبيرا من الثوار الجزائريين كانوا يجدون دائما لهم ملجأ في مراكش ، ولقد تدخلت مراكش بالفعل في النزاع الذي قام بين فرنسا والامير عبد القادر الجزائري وساعدته بالامداد والرجال .

والواقع ان الموقف في مراكش كان حادا خطيرا . فلقد كان سلطان مراكش لا يستطيع منع الهجرة الى بلاده ، ولا منع القبائل من التسلل بحرية في منطقة الحدود الجزائرية المراكشية . ولم تكن هناك حدود طبيعية واضحة بالفعل بين مراكش والجزائر تعيق في سبيل العود والتسلل بين القطرين .

وله يكن مسلك الفرنسيين في الجزائر او تونس ناعسا على الاطمئنان في مراكش فلقد اصبحت مراكش تعتقد ان فرنسا ستعمل على بسط نفوذها على مراكش وهي بالفعل تشجع عددا كبيرا من المراكشيين على اكتساب الحماية الفرنسية وتسير حثيثا في تحصين النقطة الفرنسية .

لقد كانت مراكش في موقف دقيق للغاية فحاجب المطامع الفرنسية التي تدر مستقبل البلاد بخطر كبير . كانت اسبانيا محله بعض الخطر الساحلي في الشمال حول مليله . واهتمام اسبانيا بشؤون مراكش قدم منذ اواخر القرن الخامس عشر الميلادي . وسبب تروى منذ عهد ابراهيم لا اطمئنان حقيقيا لها الا بعد الاسبيلاء على النواظم المراكشية المحاورة لها . ولقد اعتبرت مراكش نفسها بمرکز الاسباب في مليله في جملة معاهدات في اواخر القرن الثامن عشر وفي اوائل النصف الثاني لقرن التاسع عشر . ولكن وجود الاسبان في هذه المنطقة كان دائما مصدر براع كبير بين اسبانيا ومراكش . وهذا البراع دعا في بعض الاحيان الى قيام الحرب كما حدث في اوائل النصف الثاني لقرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا دائما حريصة على الا تقع مراكش في يد اية دولة اخرى . وادا كان لنعوذة دولة ان يعوق في هذه الاقطار فيجب ان يكون ذلك النفوذ اسبانيا .

وله تكن انجلترا تجهل قيمة مركز مراكش ومراكش مركز اسرategic ممتاز في المحيط الاطلسي وفي البحر الابيض المتوسط . بل كانت تهتم بمسألة مراكش اهتماما كبيرا للمصالح الانجليزية في البحر المتوسط ولسيطرة الانجليز على مدخل ذلك البحر من ناحية الشرق ومن ناحية الوسط (في مالطة) . ولا اهمية كبيرة

لمرآر الانجليز المعقوف في مالمطه او قضاة السويس اذا سيطرت دولة معادية لانجلترا على السواحل المراكشيه . وما كان الانجليز يخشونه خلال النصف الثاني للقرن التاسع عشر هو سيطرة فرنسا على مراكش وانشاء قاعدته بحريه قوية في سبته . وكانت برافب تقدم العقود الفرنسي في هذه الاقطار بشيء كبير من القلق . ومنذ لو قامت حرب الماسه فرسيه تصع جدا لما رايه من العدوان الفرنسي في هذه الجهات .

لم تكن انجلترا تفكر في احلال مراكش ولكنها ما كانت تبغى ان يفع مراكش فريسة لاي غزو اجنسي قد يقصى على اسفلالها . وبجانب مصالح الانجليز الاستراتيجيه بمراكش كانت مصالحهم الاقتصاديه والتجاربه . فلقد حرصت انجلترا على الحصول على اميسارات تجاريه في مراكش وان سلت لذلك في السبعينات للقرن التاسع عشر ١٨٩٢ بعثة سير تشارلز سميت لم ينجح مسعاها فاردفتها بارسال بعثة اخرى .

واما المانيا فلم تلقى بالانشئون مراكش في السنوات العشر التي تلت الوحدة الالمانيه . وظهر ذلك واضحا في مؤتمر مدريد سنة ١٨٨٠ . ولكن اهتمام المانيا بالاسممار مند سنة ١٨٨٤ وخاصة بعد سنة ١٨٨٧ جعلها تلقى نظرة طمع في انحاء مراكش . بل واخذت تفكر جدبا في احلال محطة في مراكش في سنة ١٨٨٨ . تقدمت المانيا بذلك الطلب بالفعل الى السلطان . ولكن ذلك الطلب باء بالرفض ، ولم تحزن الدول الاوربيه الكبرى الاخرى .

واما ايطاليا فلم يكن حرجها اذا قدم العقود الفرنسي في مراكش بعد ان فرضت حمايتها على تونس . فكان يودها لو تراكمت العراويل والقمعات امام العقود الفرنسي في هذه الجهات . وربما ظمعت ايطاليا في يوم من الايام ان يصع قدميها في مراكش . ولكنها كانت تعود فترى ان ذلك حلم لا يمكن تحقيقه ، فما كانت الدول الكبرى وخاصة فرنسا تسمح لها بذلك .

سقطت تونس في يد الفرنسيين في ١٢ ماو ١٨٨١ . وفي صيف هذه السنة تقدم سلطان مراكش الى سير درمدهاي القنصل الجنرال الانجليزي بان يحمل الى حكومه في لندن استنحاد السامطين بها عليها تتخذ الخطوات اللازمة لمع الفرنسيين من فرض حمايتهم على بلاده . ووجدت الحكومة البريطانية من صالحها في ذلك الوقت القيام بهذه الخطوات . ولذا فقد حذرت الحكومة الفرنسيه من عرو الحدود المراكشيه . ونصحت السلطان في الوقت نفسه بان يقع القائل المراكشيه بضرورة عدم الدخول في مشكله الجزائر .

وامام موقف انجلترا الجدي وجدت الحكومة الفرنسيه نفسها مضطرة الي ان تكرر لوراره جلاستون بها ستحرم سيادة السلطان في مراكش .

واضافت الى ذلك بانها ستقف كذلك امام مطامع الاسبان في هذه الجهات . وكان الاسبان يؤملون ان تكون مراكش من نصيبهم . لاسبما بعد وقوع بوس تحت الحماية الفرنسية .

وكان قيام النزاع بين فرنسا واسبانيا من ناحيه ، وريادة نفوذ انجلترا والمانيا من ناحية اخرى ، عاملا على تأخير بسط نفوذ فرنسا ومع ذلك فبعد عملت فرنسا منذ اسبيليا على الجزائر على الاسبوع نفوذها الى اخرى في مراكش ولدا هي ترافق سير الامور في هذه البلاد عن كتب وبعثاته فافقه . فغير مركز مراكش السياسي ونزح بلا شك تأثيرا كبيرا في مركز الفرنسيين في الجزائر . وفرنسا حرصت جدا الحرض على لا سود القوي في مراكش حتى لا تسرب شررها الى الجزائر . وهي حرصت على لا سود النفوذ الانجليزى في هذه البلاد . فسيادة الانجليز في هذه الاقطار معها طلب الثوار الدولى في الحر الابيض ، ومناصبه من الانجليز سيضطرون على حل طارق . فلو استطاع الانجليز ان يسيطروا على الجانب الاخرى المقابل لجبل طارق اذن لاصبح مركز فرنسا في البحر المتوسط مسحيلا . ولا استطاعت انجلترا ان تعلق ذلك البحر ، وبمفع الموصلات انحرته بين سواحل فرنسا المطلة على البحر المتوسط وسواحلها الغربية .

على ان انجلترا ما كانت مسعده اذ طوال القرن التاسع عشر لان تترك فرنسا تحل مراكش او احراء منها او يكون لها النفوذ المتفوق فيها . وخاصة بعد ان سيطرت فرنسا على الجزائر واحضت بوس وباووت الابحير العداء في مصر . وكان موقف الماي من العوامن اسى دعت الى عدم توسع فرنسا في هذه البلاد . فقد عيب الماي سنون مر من وتصدت مقابلت الاسبان ومطامعهم في السواحل الشمالية المواجهة لاورب . وما كتب سمع مضاعف بان تكون فرنسا صاحبة النفوذ الاوحد في هذه الجهات . على ان موقف كل من انجلترا والمانيا واسبانيا لم يمنع فرنسا من مواصلة جهودها لاجراء العمل السياسى والاقتصادى في مراكش . واهترت جهودها هذه بعض النجاح وخاصة بعد ان سيطر الانجليز على مصر . فلم يكن مركزهم قويا لطالما الفرنسيين بالاعتدال في التوسع السياسى والاقتصادى في مراكش . اتبع الفرنسيون في مراكش نفس الخطة التى اتبعوها في تونس نقبل الحماية ، واصح من المعترف به دوليا ان للفرنسيين مركز خاص في مراكش نظرا لقرب هذه البلاد من الجزائر . ولم تحج محاولات الامال كثيرا في التلليل من شأن فرنسا في هذه البلاد .

على ان محاولات فرنسا للتفوق في مراكش لم تلق مايدا من الانجليز بل بالعكس اذا اشتد في وقت طويل التنازع بين الدولتين . ولولا هذا السارع

وهذه المنافسة لاستطاع الفرنسيون اكتساح مراكش كما اكتسحوا تونس من قبل . فمسألة مراكش اذن لها صلة كبيرة بالعلاقات الانجليزية الفرنسية في العشرين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر ووتكيفت مرارا بالظروف التي مرت فيها هذه العلاقات . فطالما كانت فرنسا مناوئة للانجليز في مصر لم تكن تنتظر الا ان تجد من الانجليز كل مناوئة وكل عرقلة في مراكش . وطالما خفت وطأة الفرنسيين في مهاجمة انجلترا في وادي النيل هدأت المنافسة الانجليزية في مراكش .

على ان فرنسا لم تهدأ ثأرتها ضد الانجليز فطالت بهاجمهم بكل عنف ونهرقل مشارهم وخاصة الادارة المالية في مصر . وبلغ الصراع بين الدولتين اشده في مسألة فاشودة التي انتهت بهزيمة سياسته ساحقة لفرنسا ، اضطرت فيها على انتقهر على طول الخط وسلمت بمطالب المصريين والانجليز في السودان .

في ارمه فاشودة مهمت فرنسا فوبها الحقيقة وبعثت من قوة انجلترا وعزمها على تسعيد مطالبها في شمال شرقي افريقية ولو ادى ذلك الى الحرب . ولقد انتت ارمه فاشودة ان فرنسا لن تستطيع الاعتماد على تحالفها مع روسيا كما انها لا تستطيع مناوئة انجلترا ، وحدث فرنسا ان من الاصلح الانفاق مع انجلترا وخاصة وانه لم يكن من السهل عقد اتفاق بين فرنسا

والمادما فمسألة الاراس والورس لارالب جرحا داميا في قلب كل فرسي . وحدث انجلترا من حاسبا ان المنافسة الألمانية القوية بيت لانجلترا احظر الكبر الذي سسعه عن سياسته السعد مع فرنسا . فهي بلارب تعمل على تأمين مركزها في مصر والبحر الابيض وهذا لا يكون الا بالانفاق مع فرنسا . حمت انجلترا وسياسها للفقارب من فرنسا مسألة مراكش . فكان الانجليز مسعورن لان سارلوا عما لا يمكن في مراكش لعترف ايم فرنسا بحقوق يملكونها فعلا في مصر .

ولقد بدأت المفاوضات بين انجلترا وفرنسا لتسوية المسائل المتنازع عليها بينهما وذلك في صيف سنة ١٩٠٣ . وظهرت في هذه المفاوضات رغبة الفرنسيين في فرض سادتهم على مراكش . وكان لورد كرومر ، وهو عليم بما للاقية الانجليز من عنف ومساب في مصر تبجحه لمعارضة فرنسا . يرى ان مركز انجلترا في مصر متوقف الى حد كبير على رضا فرنسا . ولن ترضى فرنسا حتى تجاب مطالبها في مراكش (١) .

(١) ٢٤ème Série D. D. F. ٣٦ . دلکاسه الى بول كامبون ٢٤ اکتوبر ١٩٠٣ Zetland: Cromer ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ . 2 ème

وتم الاتفاق أخيراً بين الدولتين ، ووقع الاتفاقية عن فرنسا بول كامبون
 سفير فرنسا في لندن ، ولانزدون وزير الخارجية الانجليزية عن إنجلترا . وفي
 هذه الاتفاقية أعلنت الحكومة الانجليزية انها لن تعمل على تغيير مركز مصر
 السياسي ، وأعلنت حكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها بأنها لن تعزل
 عمل الانجليز في مصر وطبق هذا نص حكومه الجمهورية الفرنسية بأنها
 لن تعمل على تغيير مركز مراكش السياسي ، وتعترف حكومة جلالة الملك
 البريطانية بأن من حق فرنسا كدولة متاخمة لمراكش السهر على سلامه
 مراكش وامنها ومساعدتها في كل الاصلاحات الادارية والاقتصادية
 والمالية والحربية التي هي في حاجة اليها . وأعلنت حكومه جلالة ملك إنجلترا
 انها لن تعزل أعمال فرنسا في هذه البلاد وأعلنت الدولتان معاً احترامهما
 لحرية التجارة في كل من القطرين . كما اتفقت الدولتان على عدم تسليح
 الساحل المراكشي المواحه لبحر طارق وعلى احترام حقوق اسبانيا في الجزء
 من مراكش الواقع معظمه على البحر الابيض المتوسط (١) .

وبهذه الاتفاقية اطمانت فرنسا على مراكش . ولقد رآب
 معارضة إنجلترا لفوق النفوذ الفرنسي في مراكش ، وضمنت فرنسا كذلك
 تأييد إنجلترا لفرنسا اذا حاولت دولة بحرية قوية تهدد مركز الفرنسيين في
 هذه البلاد . ولقد ظهر هذا التأييد بالفعل واصبحا حين حاولت ألمانيا ان
 صعوبات امام الفرنسيين في مراكش وحين حاولت بالفعل بقوة العودة الى
 في بلاط السلطان . وفقت إنجلترا الى جانب فرنسا . واضطربت ألمانيا الى
 التراجع والى ترك الفرنسيين احراراً في هذه البلاد سحرون فيها كبقما
 شأوا . وانتهى الامر بفرض الحماية الفرنسية على مراكش في ٢٠ مارس ١٩١٢
 وبذا أصبحت مراكش منقسمة الى مطلقين الشمالي منها منقطع بعود اسباني
 والجنوبي منها منطقة نفوذ فرنسي .

وكما كان لاستيلاء الفرنسيين على تونس رد فعل على مراكش كان له رد
 فعل شديد على طرابلس لمحاورهاها الفعليه لتونس . ولكن طرابلس كانت نابعة
 تبعية فعلية للباب العالي الذي عمل على امداد قوائمه فيها وصمم على الدفاع
 عنها اذا حاول الفرنسيون الاعتداء عليها . ورات إنجلترا من جانبها ان تحذر

(١) انظر بصوص هذه الاتفاقية والشروط السرية في Serie D. D. F.
 جزء ٤ رقم ٥٩ تحت عنوان Verords Conclus le 8 Avril 1904 entre
 la France. et l'Angleterre.

فرنسا من محاولة اي توسع في هذه الناحية . فمن المعلوم كما بينت حكومة جلادستون ان انجلترا لن توافق مطلقا على التوسع الفرنسي في طرابلس .

على ان فرنسا لم تكن تنوى بالفعل التوسع على حساب طرابلس ، وان كانت ترى ان من الواجب على الدولة العثمانية الا تجعل من هذه البلاد مأوى للناشرين الذين فروا من تونس . وكانت ترى الى جانب ذلك منذ صيف سنة ١٨٧٨ ان مس الحكمة عدم معارضة الايطاليين اذا ذهبوا الى طرابلس منى اصرافوا لفرنسا بالتفوق في تونس .

ولقد بدا الايطاليون يفكرون جديا في امر طرابلس حين فرض الفرنسيون حمايتهم على تونس في صيف سنة ١٨٨١ ، ولم تكن فرنسا مسعدة لمعارضهم او لضع العراقيل في سبيلهم ، ولكن موقف الايطاليين العدائي الجديد بالنسبة لمرکز فرنسا في تونس لم يجعل فرنسا تعمل على تسهيل الامور لهم في طرابلس . ولكن حين اخذت ايطاليا تعترف منذ سنة ١٨٩٦ بمركز فرنسا الممتاز في تونس ومراكش عقدت الحكومة الفرنسية النية على ان تترك للايطاليين الحرية في التصرف في امر مصر طرابلس . وفعلا اكدت الحكومة الفرنسية في سنتي ١٩٠٠ ، ١٩٠١ للحكومة الايطالية بان فرنسا لا تفكر في الاستلاء على طرابلس وترى انها تدخل ضمن منطقة النفوذ الايطالي (١) . وسيكون موقف فرنسا الودى هذا من العوامل الى شجعت الايطاليين على احتلال طرابلس في اوائل القرن العشرين .

محمد مصطفى صفوت

(١) انظر الوثائق الفرنسية السياسية. 2 ème Serie ، J. I ، وثائق
٥٦٥٤٩٤٥٣٠٤٥١٠٤٥٠٨٤٥٠٥٤٥٠٤٥٠١٤٥٣

تاريخ صناعة النسيج في الاسكندرية
في عصر البطلمية

للدكتور محمد عبد العزيز مرقس

من مزايا مصر أن الباحث يستطيع أن يسابع فيها تطور الحضارة الإنسانية في أدوارها المختلفة ، ففيها ترك الانسان آثاره منذ دى على ظهر الارض حتى اليوم : فيها آثار ما قبل التاريخ ، وفيها آثار العصور القديمة ، وفيها آثار العصور الوسطى ، وفيها آثار العصور الحديثة . والفضل فى ذلك راجع أولا الى النيل واهب الحياة والحضارة لمصر ، وثانيا الى التربة التى جمعت بين الحصوبة والجفاف ، وثالث الى ذلك المناخ المعتدل الجميل الذى ساعد على بقاء ما خلفه الاولون من آثار قيمة تفصح عن مدى رقى المصرى وتقدمه .

ومن خير ما احتفظت به مصر فى جوفها تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات القديمة التى أظهرتها الحفائر الاثرية والتى تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها . وجمال ألوانها على ما بلغته هذه البلاد من الدرجة السامية فى صناعة المنسوجات فى العصور القديمة والوسطى .

ومن الطبيعى قبل أن تفصل القول فى تاريخ صناعة النسيج فى مدينة الاسكندرية فى عصر البطلمة أن نشير فى ايجاز الى ما كانت عليه هذه الصناعة فى مصر قبل تأسيس هذه المدينة فى سنة ٣٣١ ق م ، فصناعة النسيج من أقدم الصناعات التى عرفها الانسان ، لاذ الملابس من الضروريات التى لاغى له عنها . وقد كانت تصنع فى عصور ما قبل التاريخ فى الاكواخ التى سكنها أجدادنا . وظلت فى العصور التاريخية — كما كانت — صناعة منزلية ، فالمقراء يقرءون وينسجون ما هم فى حاجة اليه من أقمشة ، والاغنياء لهم خدمهم الذين يقومون لهم بهذه الاعمال ، وبندرج الاسان فى سلم الحضارة أصبحت هذه الصناعة مهنة مستقلة اتخذها كثير من الناس أداة لكسب معاشهم .

وإذا بحثنا عن صور تمثل هذه الصناعة على جدران المقابر الفرعونية في العصور التاريخية لم نجد لها إلا في قبور الدولتين الوسطى والحديثة «١» . أما مقابر الدولة القديمة التي كشفت حتى اليوم فلا وجود لها فيها ، ولعل ذلك راجع الى أن صناعة الغزل والنسيج كانت تعتبر في عصر الدولة القديمة عملا عاديا بسيطا ليس في حاجة الى أن يثبت على جدران المقبرة أما في عهد الدولتين الوسطى والحديثة فقد ارتفع شأنها واتسع نطاقها وأصبح لها مركز ملحوظ ، وصار الملوك والامراء وكبار الموظفين يفاخرون بحيازتهم لمصانع النسيج في قصورهم «٢» . وقد مكنتهم ثروتهم من أن يستخدموا أمهر الصناع والفنانين وأعلى المواد الخام «٣»

وكما كان للملوك مناسجهم الخاصة في قصورهم كذلك كان للكهنة مناسجهم الخاصة في المعابد حيث تنسج الكميات الوفيرة من الاقمشة اللازمة للطقوس الدينية وللكهنة على السواء «٤» .

ولقد عرفت مصر الفرعونية كيف تعطى العالم أدق أنواع المنسوجات والادلة المادية التي تشهد بذلك كثرة قد يخطئها المد ، فمن العصور السابقة على عصر الاسرات وصلت اليها أقمشة تنطق بأن النساج المصري قد تجاوز في هذه الصناعة المرحلة البدائية بكثير «٥» . ومن عصر الاسرات وجدت أمثلة من الكتان الرقيق عليها كتابات وزخارف غاية في الدقة والجمال ولا يتسع المجال لكي نذكرها جميعا انما نكتفى بذكر أمثلة ثلاث :

1. Newberry. *Beni-Hassan*, pl. XXIX, *Al-Bersha I*, pl. XXVI; Davies *Five Theban Tombs*, pl. XXXVII.

2. Kees, *Aegypten* p. 72

(٣) لقد عاش هذا النظام على مر العصور تحت أسماء مختلفة ، ففي عصر البطالمة كان في الاسكندرية مصنع خاص لنسيج الصوف للملكة كليوباترا ، وفي عصر الرومان كان في تلك المدينة مصنع للنسيج عرف باسم الجنسيم *Gynaceum* وفي العصر الاسلامي عرف باسم « دار الطراز » .

4. Lutz, *Textiles and Costumes among the people of the ancient Near East* p. 59.

5. Reifstahl, *Patterned Textiles in Pharaonic Egypt*. p. 1

الاولى وجدت في مقبرة الدير البحرى ترجع الى الاسرة الحادية عشرة وقوام زخرفتها أشرطة من خطوط منكسرة مكونة من خمل بارز على سطح القماش ، والواقع أن اتقان هذه الطريقة الفنية للنسيج ليعت على الدهشة ويكشف عن مهارة النسيج المصرى فى ذلك العصر السحيق «١» . والمثال الثانى قطعة من الكتان تحمل اسم الملك امنحتب الثانى أحد ملوك الاسرة الثامنة عشر منسوجا داخل منطقة بياضوية الشكل ، وتزدان بأشرطة ثمانية من زخرفة نباتية نشاهد فيها أزهار عرائس النيل (اللوتس) وبراعمها «٢» . والمثال الثالث يتكون من عدة قطع عثر عليها فى مقبرة توتعنخ آمون وهى تزدان بزخارف شتى «٣» .

على أن الادلة التى تثبت مهارة النسيج المصريين القدماء لاتقف عند حد هذه الامثلة الملموسة التى ذكرناها بل أنا لنشاهد على جدران بعض المعابد صورا تمثل ملابس مزخرفة بحروف هيروغليفية أو أشكال هندسية ، وأخرى شفافة تم عما تحتها «٤» ، كما نقرأ فى هيرودوت وصفا شيقا لرداء من كتان بعث به الملك أمازيس أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين الى حكومة أسبرطة على سبيل الهدية «٥» .

ولقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان فى العالم القديم ، وجدران آثارها غنية بالصورة التى تجلو علينا رراعة هذا النبات وطريقة نسجه «٦» . ولنا نعرف عن استعمال الصوف فى ذلك العصر شيئا ، بل أنه لاتوجد فى اللغة

1. Riefstahl, *op. cit* p.p. 17 & 20.

2. Newberry and Carter, *The Tomb of Totmes IV, Cat. Gen. Ant Egypt. Mus. Caire*, Nos. 46001-46529, p. 143 ff.

3. Carter-Mace, *The Tomb of Tutankhamun* 1 p. 187 ff., III p. 124, ff.; Pfister, *Les Textiles du tombeaux de Toutankhamun*, Rev., des arts Asiat., 1, XI, p. 207 ff.; Riefstahl, *op. cit* p. 24 ff.

4. Riefstahl, *op. cit* p. 39

5. Herodotus III, 47 (Godley's translations in Loeb Library edition).

6. Erman-Ranke, *Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum*, p. 536; Selim Hassan, *Miser al-qadima*, p.p. 85-86.

المصرية القديمة كلمة تعنى الصوف «١» . وأما عن زراعة القطن ونسجه في مصر في ذلك الوقت فلم نهتد بعد الى وثيقة تنير لنا السبيل في هذا الموضوع «٢» .

وأنواع المنسوجات الفرعونية كثيرة . وقد استمدت اسماءها أما من اللون الذي كانت تصبغ به ، أو من عدد الخيوط التي كان يكون منها كل من اللحمة والسدى «٣» . ومن أشهرها البيسوس Byssus الذي قال عنه هيرودوت «٤» أن المصريين القدماء استعملوه في لف موميائهم . ويقول Loret «٥» أن كلمة «بيسوس» مرادفة للكلمة الهيرغليفية نيسوت Nisut التي تعنى « ملكى » مما يدل على أن هذا النوع من النسيج كان من أحسن الأنواع وأرقها .

وقد عرف الفراعة الطرق المختلفة لزخرفة المنسوجات فرقموا عليها بالأصباغ رسوما مختلفة «٦» . أو نسجوها من خيوط مختلفة الألوان «٧» .

1. Lutz, op. cit. p. 24.

2. Griffith and Crowfoot, *On the Early Use of Cotton in the Nile Valley*, J.E.A. XI, 1934, p. 5 ff

3. Lutz, op. cit. p. 55.

4. Herodotus, II. 86.

5. Loret, *L'Égypte au temps des Pharaons*, p. 178.

(٦) لعل هذه الطريقة Painting هي أقدم طرق الزخرفة على المنسوجات
(٧) في المنسوجات المزخرفة بهذه الطريقة woven patterned تكون خيوط اللحمة من لون وخيوط السدى من لون آخر وتقاطع هذه الخيوط معا يحدث الزخرفة .

أو طرزوا عليها أشكالاً متباينة «١» أو نسجوا في أجزاء منها: خارف شتى «٢»
كما استعملوا أيضاً طريقة الإضافة «٣» . وعرفوا كيف يزينون أقمشتهم
بالخمل «٤» .

وأسس الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ ق.م. وسرعان
ما تقدمت وبهتت حتى أصبحت في مدى عشرات من السنين أهم مركز
للحضارة . وارتقت الحياة فيها رقياً جعلها تسحر بجمالها الباب المعاصرين
على حد قول برشيا «٥» . ووصلت في عصر البطانة هذا إلى ذروة الحضارة .

واسمكت حياتها المترفة بأجلى صورة في كتب الادباء القدمين . ولا غرو
فالادب مرآة صافية تنعكس فيها حياة العصر . ويكفي هنا أن نشير إلى
ما يتعلق بالمنسوجات التي هي موضوع بحثنا . فالستاثر الأرجوانية اللون
التي كانت تزين جدران القصور ، والطنافس التي هي أجمل من النوم
الهنئيء كما يقول الشاعر ثيوكرتس «٦» والملابس التي تزدان بصور

١. بعد الانتهاء من نسج القماش تطرز عليه الرخارف بالابرّة Embroidery
٢. هذه الطريقة Tapestry قد حدقها اجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأواً
عظيماً وقد ورثها عنهم أحفادهم وحافظوا عليها طوال العصور ، وكانت
المنسوجات التي تزين بهذه الطريقة تنسج بالطريقة العادية للنسيج أي تقاطع
خيوط اللحمة بخيوط السدي حتى إذا وصل النسيج إلى النقطة التي يريد
عمل الزخرفة فيها أوقف عملية الخشو بخيوط اللحمة وأخذ في عمل الزخرفة
بخيوط جديدة تخلف في لونها عن خيوط اللحمة الأصلية . وقد تخلف عنها
في نوعها . وذلك بنسج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السدي الأصلية ،
وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السدي كما كانت من قبل ثم
تستأنف عملية النسيج التي كانت تزاوّل قبل الزخرفة .

(٣) تشبه هذه الطريقة (Appliqué) طريقة التطريز ولا تخلف عنها إلا في
أن الزخرفة تعمل فيها بواسطة اشربة من القماش بدلاً من خيوط الحرير أو
الصوف .

(٤) تتركب الأقمشة ذات الحمل looped من نسيج تحشائي يسمى
الرفعة ونسيج فوقاني يسمى الخميلة وهذه الخميلة تتكون من خيوط متصلة
غير مقطوعة .

5. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum* p. 26.

6. "Theocritus, *Idylls*, XV, p. 78 ff.

الملوك ، والاقمشة الرائعة التى تقص علينا برسومها الكثير من القصص
الخرافى ، والاردية الرقيقة التى تشف عما تحها ، والمنسوجات التى تزدان
بخيوط الذهب «١» .

ويخلص لنا من هذه النصوص الادبية :

أولا - أن الترف فى المنسوجات كان ملحوظا فى هذا العصر وهو
يتجلى فى الملابس والطنافس والخيام والستائر والمارق .

ثانيا - أن الاسكندرية كانت تستورد الطنافس من ايران والشيلا
من اليونان علاوة على ما كانت تنتجه الانوال المصرية .

ثالثا - أن هناك أنواع شتى من الاقمشة منها الطنافس دات الخمل
والاكلمة والاقمشة الشفافة والملابس التى يدخل فى نسجها الذهب .

رابعا - أن الزخارف التى كانت تزين منسوجات هذا العصر هى صور
الملوك والمناظر المستمدة من القصص الدينية .

ترى هل كانت الاسكندرية مركزا لصناعة هذه الاقمشة التى أشار
اليها الكتاب والمؤرخون أم كانت مركزا تتجمع فيه المنسوجات التى تصنع
فى داخل البلاد بقصد التصدير أو الاستهلاك المحلى ؟

فى الواقع لقد كانت الامرين معا : كانت مركزا لصناعة النسيج وكانت
مركزا لتصدير المنسوجات ولدينا من الوثائق القديمة ما يثبت ذلك ويكفى
أن نشير الى نسيج البوليميتا Polymita الذى اخترعه ناسج الاسكندرية
فى هذا العصر وكانت له شهرة واسعة فى العالم «٢» .

1. Athenaeus, *The Deipnosophists* IV, 147 f., V, 196 B,C,F.; 197 B.,
198 C.

2. P. Petrie III No. 120. ترجع هذه البردية الى النصف الثانى من القرن
الثالث قبل الميلاد .

والذى يؤسف له حقا أننا لانملك أية وثيقة تكشف لنا عن نظام صناعة المنسوجات فى الاسكندرية فى عصر البطالمة هذا ولكن هناك وثائق شتى تتحدث عن صناعة المنسوجات فى مصر عامة ، وليس هناك سبب معقول يحملنا على الاعتقاد بأنها لاتنطبق على الاسكندرية كذلك ، فالاسكندرية جزء من مصر يجرى عليها ما يجرى على غيرها من بلاد القطر .

ولقد حافظ الكتان على المكانة السامية التى كان تتمتع بها فى مصر فى العصر الفرعونى فعنى البطالمة بزراعته وأشرفوا بدقة على صناعته ، ولعل أهميته بالنسبة للحكومة تتجلى من بردية نعرف منها مدى حاجة الحكومة الى زراعته فقد كانت تحدد سنويا المساحة التى كانت تخصص له ، وكانت تمد الزراع الذين تعوزهم البذور بها أو بشمنها لتداركها «١» . وكان على الزراع أن يبيعوا مقدارا معيناً من كنانهم الخاص الى الحكومة بشمن تحدده لهم وهم بعد ذلك أحرار فى التصرف فيما بقى لديهم من كنانهم «٢» .

وإذا كان الكتان قد احتفظ بمكانته القديمة فإن الصوف قد ارتفعت أهميته الى درجة لم تكن له من قبل وهذا أمر طبيعى لانه المادة الاولى التى كان يتخذ البطالمة منها ملابسهم قبل أن يقدوا الى مصر ولذلك نجد أن الحيوانات ذات الصوف كانت موضع عناية البطالمة «٣» ، ومن بلاد العرب والحبشة استوردوا الاعنام بل واستحضروا معها الاعراب لكى يعنوا بها «٤» . وإذا كان من الميسور أن تضبط الحكومة زراعة الكتان

1. P. Tebt. No. 769.

ترجع هذه البردية الى سنة ٢٢٧ - ٢٢٦ او ٢١٢ - ٢١١ ق . م .
The Tebtunis Papyri, (Egyptian Exploration Fund)

2. The Revenew Laws of Ptolemy Philadelphus, 107.2; Edgar, Zenon Papyri, No. 59470 (Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo.)

3. Rostovzeff, A large state in Egypt in the 3rd. Cent. B C., p. 107

4. P. Hibeh, 36 (The Hibeh Papyri, Egyptian Exploration Fund);

Zenon Papyri No. 57433, Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo.

وتحدد المساحة اللازمة لزراعته فإن من العسير عليها اتباع ذلك فيما يختص بالصوف «١» ، ولذا كان الصوف والمنسوجات الصوفية حرة التداول «٢» .

أما القنب الذي كان يستعمل في عمل الجبال والشباك وغيرها فلا تعرف عنه الا القليل أما القطن فلم يرد له ذكر في النصوص البردية ولكن لا يبعد أنه كان مستعملا في هذا العصر ولا شك أن استعماله كان أقل أهمية من الكتان والصوف والقنب «٣» .

وللحرير قصة شيقة تعود بنا الى الورااء عشرين قرنا قبل الميلاد عندما لاحظت احدى أميرات الصين عن غير قصد ديدانا صغيرة تعيش على أوراق نبات التوت ، وقد أغراها هذا المنظر على التدقيق في ملاحظتها، فعرفت كيف تربى هذا الدود وكيف تحصل على خيوط الحرير من شرائقه . وقد حفظ لها بنو قومها هذا الصنيع ، فرفعوها الى مقام الالهة «٤» ، وسرعان ما تعلم الصينيون صناعة الحرير وأتقنوها واحتفظوا بسرهما لانفسهم واعتبروا اذاعة هذا السر أو تصدير بويضات ديدان القز جريمة كبيرة عقابها الموت «٥» . ولقد عرف الاسكندرية الحرير الصيني في القرن الاول قبل الميلاد «٦» ، وقد كان احدى السلع التجارية الهامة في عصر البطالمة «٧» ، ويقول تارن

(١) الدكتور ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ج ٢ ص ٥٤٤

2. P. Enteuxois No. 2, *Requête et plaintes adressées au Roi d'Egypte au IIIe. siècle avant J.C., Textes et documents. La Caire.*

وهنا ينبغي الإشارة الى أن Tarn في كتابه Hellenistic Civilization p. 165 يقول أن كل الكتان وربما كل الصوف كان يباع للملك بأسعار محددة

3. Blumer, *Die Gewerbliche Tätigkeit der Volke des Klassischen Altertums*, p. 10 as quoted by Toutain *The Economic Life of the Ancient World*, London, 1930, p. 127.

4. Algoud (Henri), *La soie, art et histoire*, Paris 1930, p. 1 ff.

(٥) سوف نرى - فيما بعد - أن هذا القانون قد خرق وأن هذا الاكشاف قد ذاع سره في القرن الرابع بعد الميلاد .

6. Tarn, *Hellenistic Civilization*, p. 224.

7. Lutz, *op. cit* p. 36.

Tarn أن الملابس الحريرية التي كانت ترتديها الملكة كليوباترا نسجت
- أغلب الظن - من الحرير الصيني «١» .

وقد كان للملكة ساقفة الذكر مصنعا لنسج الصوف بالاسكندرية «٢»
وليس ذلك بجديد على مصر فقد كان للملوك في العصر الفرعوني مصانع
خاصة للنسيج . ولا ينبغي أن ننسى أن هذا هو المصنع الحكومي الوحيد
للنسج الذي نعرفه في عصر البطالمة ، وقد وجد في الفترة السابقة مباشرة
للفتح الروماني كما يقول بيرسون «٣» . على أنه ليس هناك ما يمنعنا من
الاعتقاد بأن هذا المصنع كان موجودا طوال عصر البطالمة ، فالمصانع
الحكومية للنسيج أمر كان معروفا في مصر قبل البطالمة واستمر قائما
على عهدهم .

وتدلنا النقوش الموجودة على حجر رشيد «٤» المشهور أن المعابد في
العصر الذي نتحدث عنه كانت تضم بين جدرانها مصانع للنسيج كما كان
الحال من قبل : وأنها كانت تنتج النسيج المعروف باسم البيسوس "Byssus"
الذي أشرنا إليه من قبل والذي كان أكثر ما يستعمل حينئذ في لف مومياء
العجول المقدسة ، وقد كان الكهنة في بعض الاحيان يقايضون بهذا النسيج
على البخور والعطور من بلاد العرب ، وقد ثبت هذه المقايضة بكتابة
تاريخية ترجع الى عصر بطليموس الثاني «٥» .

1. Tarn, op. cit p. 225.

٢ قول اوراسيوس (IV. 622) أراكنايوس عندما فتح الاسكندرية
أعدم أفينوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذي حط من رآمنه
وكرامة الرومان في شخصه بعبوله من الملكة كليوباترا وظيفة مدير مصنع نسج
الصوف الذي يتبعها .

3. Persson, Staat und Manufaktur im Römischen Reiche, p. 129

4. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty p. 42

(٥) ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ص ٥٤٧ والمراجع التي
يشير إليها

وكان على المعابد أن تقدم من نسيج اليبسوس ضريبة عينية للملك فان لم تقم بذلك فرضت عليها غرامة مقررة ، وبطليموس الخامس في المرسوم المنقوش على حجر رشيد سالف الذكر يعفى المعابد من ثلثي تلك الضريبة ومن دفع الغرامة المقررة بسبب عدم تقديم الكميات المحددة من هذا القماش ومن نفقات فحص الاقمشة التي قدمت للملك من حيث جودتها وكميتها .

وهناك أمر ملكي صادر من بطليموس السابع «^١» يعفى به المعابد من المبالغ المستحقة عليهم لعدم تقديم كمية المنسوجات المفروضة عليهم ، ويحرم على جباة الاموال الحكومية «^٢» بيع الانوال التي تستخدم في نسج قماش اليبسوس كما يحرم أيضا على أى شخص امتلاك هذه الانوال أو استخدامها فيما عدا المرخص لهم بنسج اليبسوس في المعابد لانتاج ما يحتاجه الملك والالهة الاخرى ، وليس لاحد أن يسخر هؤلاء النساك أو يشغلهم بأجور مخفضة «^٣» .

وعلى أساس الوثائق التي تشير الى ما تقدم نيل الى الاعتقاد بأن مناسج المعابد كانت حرة في انتاج ما تشاء من قماش اليبسوس طالما أنها كانت تعطى الملك الكمية المفروضة عليها ، والحكومة من ناحيتها كانت تحمي نساك هذا النوع من القماش ، من جباة الاموال الحكومية ومن تحدته نفسه في استغلالهم لصالحه وذلك معاونة منها لهؤلاء النساك على القيام بعمل ما هم في حاجة اليه من هذه الاقمشة ، ولعل هذه الحرية التي تمتع بها نساك اليبسوس كان مردها الى العامل الديني لاحتياج الطقوس الدينية لهذا النوع ذلك لاننا نقرأ في بردية «^٤» أن الحكومة كانت تفرض رقابتها على انتاج قماش البوليميتا الذي أشرنا اليه من قبل والذي كان ينسج كذلك في المعابد .

1. P. Tebt. V, Lines 62-64

2. P. Tebt V, lines 245-247

3. P. Tebt V, lines 247-251

4. P. Petrie III, 120; Préaux, *L'économie royale des Lagides*, p. 103.

والى جانب المصنع الملكى للنسيج ومناسج المعابد كانت توجد مصانع أهلية ، ومن بردية ترجع الى عصر بطليموس السابع «^١» نستطيع أن نستخلص أن الحكومة كانت تكلف أحد موظفيها بمراقبة هذه المصانع الاهلية مراقبة شديدة وبالاشراف على ما تنتجه من المنسوجات الكتانية ، وليس من المستبعد وجود هذه الرقابة أيضا على المنسوجات المصنوعة من الصوف . وينبغى أن نشير هنا الى أن هذه الوثيقة ليست مريحة في الاشارة الى وجود هذه المصانع الاهلية في مدينة الاسكندرية بالذات ولكننا على الرغم من عدم وجود وثائق تشر صراحة الى قيام صناعة النسيج الاهلية في الاسكندرية فانه يصعب علينا أن نتصور مدينة عظيمة كالاسكندرية كان لها القدر المعلى في صناعة النسيج ليس بها مصانع أهلية .

على أن هذه الرقابة الحكومية تدفعنا الى التساؤل هل كان انتاج المنسوجات وتداولها في عصر البطالمة احتكارا حكوميا ؟ لقد أجاب كثير من المؤرخين والكتب على هذا السؤال بالاجاب «^٢» . ولكننا نرى أن نقف عنده قليلا لنرى ان كان هناك احتكار فعلا أم أنها مجرد رقابة من الحكومة لكى تطمئن الى استمرار الانتاج في هذه الناحية ؟ . الواقع أنه لكى نجيب على هذا السؤال اجابة صحيحة ينبغى أن نحدد معنى الاحتكار أولا ثم نحاول بعد ذلك أن نرى ان كان هذا المعنى يتطبق على الحالة التى نحن بصددھا أم لا . أما الاحتكار فمعناه لغويا «العقد الواحد» ، ويحتكر معناها أن يمتلك الانسان شئنا ما وأن يكون هو البائع الوحيد له . ولقد رأينا من قبل أن الحكومة لم تكن هى وحدها المالكه للمواد الخام

1. P. Tebt. 703.

2. Lumbroso, *Recherches sur l'économie politique de l'Égypte sous les Lagides*, Turin, 1870, p. 100; Bouché-Leclercq, *Histoire des Lagides*, Paris, 1903, Vol. III, p. 269 ff. ; Maspéro, *Les finances de l'Égypte sous les Lagides*, Paris, 1905, p. 62, Reil, *Beiträge zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistischen Aegypten* Leipzig 1913 p. 107; Jouguet *L'Impérialisme Macédonien de l'Orient* Paris, 1926, p. 368; Turn, *op. cit.*, p. 165, Bevan, *op. cit.*, pp. 148 & 150; Toutain, *op. cit.*, p. 136.

اللازمة لصناعة النسيج ولم تكن هي وحدها المالكة لمصانع النسيج ، ولم تكن هي وحدها التي تبيع المنسوجات ، فالى جانب حقول الكتان التي كانت تملكها كانت توجد الحقول التابعة للمعابد والحقول التابعة للاهالى ، والى جانب قطعان الاغنام التي كانت تملكها كانت توجد قطعان المعابد وقطعان الاهالى ، والى جانب مصنعها الملكى للنسيج كانت توجد مصانع المعابد ومصانع الاهالى . ولم يكن الملك هو الناجر الوحيد فالمعابد كانت تسبدل نسيج البيسوس بالبخور والعطور من بلاد العرب . وكان هناك تجار يتاجرون فى المنسوجات فى مصر «^١» و فى الخارج «^٢» . لم يكن هناك اذن احتكار حكومى للمنسوجات ولكن هذا لايعنى أن هذه الصناعة كانت حرة مطلقة من كل قيد لان الحكومة فى الواقع كانت تشرف عليها اشرافا دقيقا ولعل هذا الاشراف هو الذى دفع ببعض الكتاب الى استعمال كلمة « احتكار » بدلا من كلمة « رقابة » . لقد كانت الحكومة تحدد سنويا الاراضى التي ينبغى أن تزرع كتانا . وكانت تعطى البذور لمن هم فى حاجة اليها ، وكانت تأمر النساج بأن يبيعوها كميات محدودة من الكتان ، وكانت ترغبهم أن ينسجوا لها كميات معينة من الاقمشة كنت تدفع لهم أثمانها . وامتد اشرافها الى مصانع المعابد التي كانت ملزمة بأن تقدم للملك كميات معينة من البيسوس . ولا شك فى أن العرض من هذه الرقابة كان للاستفادة من تلك المهارة التي حذقها المصريون فى صناعة المنسوجات ، فلقد حاول البطالمة بنظامهم هذا أن يحافظوا على المستوى الذى بلغته مصر فى هذه الصناعة فى عصر الفراعنة ونجحوا بالفعل فى ذلك وكان من أثر هذا النجاح النهوض بهذه الصناعة الى درجة عظيمة يكفى للتدليل عليها اختراعهم قماش البوليميتا الذى أشرنا اليه والقماش المعروف باسم القماش السوري "Syrian Cloth" «^٣» .

1. P. Cairo-Zenon, Nos 59148, 59319, 59326, Noshiy op cit., p. 587.

2. R. Lawa, cols 98, 94; Préaux, op. cit. p. 111.

3. P. Hibeh 51; P. Enteuxels I; Préaux op. cit. p. 106 ff.

The king bought these textiles at prices fixed by him and the weavers were obliged to furnish him with a certain quantity. The wool needed for making this cloth was furnished from the royal stores and the weavers were paid by the royal bank.

ولقد كان في الاسكندرية في عصر البطالة اتحادات للعمال عرفنا منها « اتحاد عمال شحن البضائع » ، « واتحاد عمال طحن الذرة » « ١ » . ويقول ماسيرو أن هذه الاتحادات كانت منتشرة في مصر « ٢ » . ويقرر توتان أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الميل الى تكوين الاتحادات المهنية كان عاما في مملكة البطالة التي ازدهرت فيها الصناعات الى حد كبير وجذبت اليها عددا كبيرا من الصناع « ٣ » على أنه لم يصل الينا شيء عن اتحاد عمال النسيج ونميل الى الاعتقاد في وجود مثل هذا الاتحاد في ذلك العصر الذي سمت فيه الصناعة الى درجة عالية من الرفى . وقد كان النسيج أحرارا في مزاوله عملهم بشرط أن يدفعوا ضريبة المهمة المفروضة عليهم وأن يسجوا للحكومة المندر المقرر عليهم . وللتحقق من توفر هذين الشرطين كانت الحكومة تحصى عدد النسيج سنويا وقد وصلت اليها بردية تتضمن احصاء من هذا القبيل « ٤ » أما حريتهم في مزاوله عملهم فنعرفها من بردية نفهم منها أن الناس كات تطلب الى النساجين أن يغزلوا ونسجوا لهم ملابسهم من أصواف أغنامهم « ٥ » .



ولم يصل الينا شيء من منسوجات الاسكندرية في هذا العصر الذي نتحدث عنه . فالحفائر الاثرية التي قامت في الاسكندرية لم تكشف عن شيء من منسجات الانوال ولكنها أمدتنا بصور للمنسوجات رأيناها في مغابر البطالة وهذه الصور تؤيد في الحقيقة ما قاله قدماء الكتاب والمؤرخين عن منسوجات الاسكندرية ، ولم يمد الاستاذ ادريانى جانب الحق عندما قال :
Rarement nous avons le plaisir de constater une correspondance si significative entre les monuments et la tradition écrite « ٦ »

1. Bouché-Leclercq, op. cit. vol III p. 172.

2. Maspéro, op. cit. p. 105.

3. Toutain, op. cit. 135.

4. P. Cairo-Zenon, 59295

5. P. Enteuxels No. 4

6. Adriani, La Nécropole de Moustafa Pacha, p 105

على أنه قد وصلت إلينا قطعة نسيج من الصوف ليس من المستبعد أن تكون من إنتاج الاسكندرية في هذا العصر ، وهي قطعة كبيرة من القماش يغلب على الظن أنها كانت جزءا من ستر كبير ، وقد عثر عليها في الحفائر الاثرية التي قامت في مدينة أنطونيو سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، وطولها ١٤٠ في ٨٧ سنتيمترا . وهي الآن في متحف الاقمشة التاريخية بمدينة ليون بفرنسا . وهي تزدان بأسماء سابعة رسمت بطريقة غاية في الابداع وبألوان متعددة فوق أرضية زرقاء مائلة الى الخضرة ويبدو واضحا ظل كل سمكة حافا بها . وقد نسبها كاتب الى احدى الجزر اليونانية «^١» . ونسبها آخر الى العصر الاسكندري «^٢» ، وقال ثالث «^٣» ان بين زخارفها وبين طرار الفس الهلينسي صلة وثيقة تتجلى لنا اذا ما قارنا بينها وبين قطعة النسيج التي عثر عليها في كرتش والتي تزدان بصورة البط . ونسبها رابع الى أواخر العصر الهلينستي «^٤» . ونحن نرى أن هذه القطعة ترجع الى أواخر العصر الهلينستي على أساس زخارفها ولكن المشكلة هي في أي مكان من العالم الهلينستي نسجت هذه القطعة ؟ هل نسجت في احدى الجزر اليونانية ؟ أم نسجت في انطونيو حيث عثر عليها ؟ أم نسجت في سوريا أو آسيا الصغرى اللذين كانا من أشهر مناسج الصوف في ذلك العصر ؟ أم نسجت في الاسكندرية عاصمة البطالمة ؟ . والواقع اننا لا يمكننا أن نقطع بنسبة هذه القطعة الى واحد من تلك المراكز على أن ذلك لا يمنعنا من أن نحاول البحث وراء أقرب هذه المراكز الى الحقيقة . فالدعوى التي تقوم على نسبة هذه القطعة الى احدى الجزر اليونانية تفتقر الى دليل تراث اليه . والدعوى التي تقوم على نسبتها الى مدينة أنطونيو بصعيد مصر

1. Catalogue des pièces principales exposées. Musée Historique des Tissus, Lyon, p. I. No. 2

2. Raymond Cox, *Les soieries d'Art*, pl. I. p. 47

3. Volbach, *Arch. Ang* 1926, p. 239, fig. 1. Beiblatt zum J D A. I. 1, 11.

4. Wace, *Egyptian Textiles (3rd.-8th century B.C.) Exposition d'Art Copte*, Le Caire, 1944 ; *The Veil of Despoina*, n. 3. A. I. A. vol. XXXVIII p. 107 ff.

لا يمكن أن تكون مقبولة لأن هذه القطعة لاشك في أنها سابقة على ظهور المسيحية وهذه المدينة انما أسسها هدریان الامبراطور الرومانی في سنة اثنين وعشرين ومائة بعد الميلاد كما أن الموقع الذي أسست عليه لم يكن معروفا قبل عصر البطالمة أى في العصر الفرعونی بأنه مركز لصناعة الاقمشة والقطعة كما أشرنا من قبل هيلينية وليست فرعونية . أما نسبتها الى سوريا وآسيا الصغرى والاسكندرية فأمر يدعو الى التبصر والتفكير ذلك لان هذه البلاد مضافا اليها بلاد اليونان كانت مشهورة بنسج الصوف . والعلاقات التجارية كانت رائجة بين بعضها البعض ، والمنسوجات من السلع التي يسهل نقلها من مكان الى مكان فالى أى قطر من هذه الاقطار يمكننا أن ننسب هذه القطعة اليه في اطمئنان ؟ . الواقع أننا نجد أنفسنا أميل الى الشعور بأن مصر هي أرجح الامكنة لنسج هذه القطعة ذلك لانها كانت ذات شهرة واسعة في المنسوجات في العصور الفرعونية . وقد بلغت درجة سامية من الضوج في النسج في عصر البطالمة أيضا ، ثم أن دقة نسج القطعة موضوع البحث ، واتقان رسمها ينطقان بخبرة واسعة طويلة في فن السيج سواء في الكنان أو الصوف . وفي الحق أن جمال هذه القطعة الاخاذ ليدكرنا بصيحة الاعجاب التي صدرت من سيدتين زارتا قصر بطليموس اشأى وقد أخذتا بجمال الستائر المعلقة على الجدران حتى لقد صاحت احدهما لزميلتها قائلة « أنظري أنه ليخيل الى أن الصور تنحرك ، انها ليست صورا ولكنها مخلوقات حية » « ١ » . كل ذلك يحملنا على الاعتماد بأن الاسكندرية كانت المركز الذي نسجت فيه هذه القطعة .

محمد عبد العزيز مرزوق

1. Praxinoe and Gorgo, See Theocritus, *Idylls*, 15 V, 78 ff

العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب

المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدى

للدكتور سعد زغلول عبد الحميد

مع مطلع القرن الحادى عشر الميلادى بدأت خلافة الامويين بقرطبة تضمحل ، وهكذا بدأت حركة الغزو المسيحية بالاندلس (La Reconquista) تأخذ شكلا جديا مزعجا .

ترعت قشتالة هذه الحركة . وساعدتها الممالك الاسبانية الفسنة الاخرى مثل ليون وأرجون ثم البرتغال على زحزحة حدود الاسلام نحو الجنوب يوما بعد يوم . واضطرت العناصر العربية فى الغرب الاسلامى اثر ذلك أن تنترك المجال الى العناصر الوطنية « البربرية » للقيام بحماية أرض الاسلام والدفاع عن حدوده فى تلك الجهات . هكذا قامت دولة المرابطين . وتمكنت من ضم الممتلكات الاسلامية بحزيرة الاندلس الى المغرب . وتوحد بذلك العرب الاسلامى بصفة جدية لأول مرة . وبدأ ينحصر بشكل واضح من الوصاية التى فرضها عليه الشرق الاسلامى والخلافة - ولو بصفة نظرية معنوية . وبدأ الجهاد من جديد ضد أعداء الاسلام فى أسبانيا . لاستعادة الاراضى التى فقدتها المسلمون ابان ضعف خلافة قرطبة ، بعد سقوطها ، وألحق بممالك النصرانية فى شمال الجزيرة هزائم كثيرة كما دفع حدودها شمال نهر تاجو . ويعتبر الانتصار الاكبر الذى أحرزه يوسف بن تاشفين فى الزلاقة (Sacralias) - ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) - والذي افترن باسمه وخلده فى صفوف المجاهدين - ذروة المجد التى بلغها المرابطون .

فى هذا الوقت الذى تجدد فيه قوات المسلمين فى غربى البحر

المنوسط اكتسح الصليبيون البلاد الاسلامية في شرقى ذلك البحر واستولوا على بيت المقدس ٥٤٩٢ م ١٠٩٩ م . وبذلك اتسع نطاق الصراع بين أوروبا المسيحية التى شعرت بقوتها ودولة الاسلام . واتخذ شكل حرب عامة عبا لها افريقان كل قواهما المادية والبشرية . دارت هذه الحرب منذ ذلك الوقت في جبهتين أو ميدانين ثابتين : سوريا وفلسطين في الشرق حيث كان الفرنج يكونون نواة الجيوش الصليبية والترك نواة الجيوش الاسلامية ، والاندلس في الغرب حيث دار القتال بين الاسبان - يعاونهم الاقطاعيون من أنحاء أوروبا لاسيما الفرنج - وبين البربر ينصرهم العرب في تلك الجهات .

ثم بدأ القرن الثاني عشر باستقرار الصليبيين في الشام ، وضعف دولة المرابطين في المغرب حيث ظهرت دولة بربرية جديدة هي دولة المصامدة أو دولة الموحدين أتباع محمد بن تومرت .

قام ابن تومرت بحركته كمصلح ديني أو « آمر بالمعروف » وساعدته الظروف ولاسيما تعلمه بالمشرق على جمع شتات قبائل المصامدة بجبال درن (طلس) . وكون حربا أو مذهباً جديداً هو حزب الموحدين ، هدف هذا الحزب هو الرجوع بالاسلام الى مبادئه النقية الاولى ، والقضاء على الاختلافات المذهبية . وتبعاً لذلك تحقق وحدة عالم اسلامي فتى يمكنه معاودة الفتوحات في أرض الكفار .

نظم ابن تومرت حزبه الجديد على أساس عسكري ديني ، وانفرد بالزعامة الدينية متخذاً لقب المهدي أو الامام المعصوم ، وترك لتابعه المخلص عبد المؤمن بن علي الزعامة العسكرية للحرب .

واصل عبد المؤمن بعد موت ابن تومرت الصراع ضد المرابطين فاستولى على مراکش (٥٤١ / ١١٤٦ م) وطرد النورماندين من افريقية ، وتمكن من توحيد المغرب كله ، ثم بدأ في غزو الاندلس .

واتخذ عبد المؤمن لقب « الخليفة » قاطعاً بذلك وبصفة نهائية كل تبعية - ولو شكلية - بين المغرب وخلافة بغداد ، مكوناً من أسرة خلافية

جديدة هي أسرة الموحدين التي أخذت على عاتقها مواصلة الجهاد في أسبانيا . وتمكنت من رد النصارى بعيدا عن ممتلكات الاسلام شمال نهر تاجو ، بل وتوعلت في أرض «الكفار» ناشرة الدمار والحرب في كل مكان .

وتمكن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن من احراز انتصار كبير في وقعة الارك (Alarcos) (٥٩١ هـ - ١١٩٥ م) ألزم النصرانية السكينة في الاندلس ، وأظهر تفوق المغرب بشكل واضح . حتى ظن أن المشكلة الاسبانية ستنتهي على أيدي المصامدة الى صالح الاسلام .

في الوقت الذي اغلى يعقوب المنصور عرش خلافة الموحدين سراكش (٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م) . كان موقف صلاح الدين قد بدأ يثبت في مصر والشام . وذلك بوفاة آخر الفاطميين في القاهرة (٥٦٧ هـ - ١١٧١ م) . ثم وفاة نور الدين (٥٧٠ هـ - ١١٧٤ م) . وبوصول صلاح الدين ويعقوب الى السلطان يأخذ الصراع بين النصرانية والاسلام شكلا جديا ويبدأ المسلمون يكيلون اللطمات لخصومهم في الشام وفي الاندلس دون هوادة . ولكن هناك ملاحظة سبقت الاشارة اليها وهي : رغم أن الصراع في طرفي البحر المتوسط كان صراعا بين أوروبا المسيحية والاسلام بوجه عام ، إلا أنه في كلتا المنطقتين له صفاته الخاصة . فبينما يقوم صلاح الدين بالحرب في الشام باسم الخلافة العباسية أي الخلافة السنية التي لها السلطان الشرعى - اسما على الاقل - على جمع المسلمين . نجد أن المجاهد المغربى يقوم بالحرب في الاندلس باسم خلافته الخاصة أي خلافة الموحدين . هذا من الناحية الشرعية إذ أن عبء الحرب كان واقعاً من الناحية العملية على المتخاصمين الموجودين في مناطق القتال شرقا أو غربا - وذلك إذا استثنينا المساعدات الآتية من الخارج .

بدأ صلاح الدين حملته المظفرة في الشام في صيف سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م وكللت الحملة باستعادة بيت المقدس سنة ٨٥٣ هـ / ١١٨٧ م . وكتب عماد الدين الاصفهاني - كاتب صلاح الدين - الى ملوك الاسلام يشرهم بالنصر

المبين ، الا أن خطر الصليبيين لم يكن قد زال نهائيا ، اذ أن « جى دى لوزينيان » كان يحاصر عكا ، ثم ان سقوط بيت المقدس كان له وقع شديد في أوروبا سيكون من نتائجه قيام الحملة الصليبية الثالثة ، كما وردت الانباء الى صلاح الدين (٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م) عن استعداد ملك الالماني « فردريك بارباروسا » الذي اتخذ طريق البر مارا بالقسطنطينية على رأس جيش يبلغ ٦٠ ألفا حسب رواية العماد نفسه «^١» .

أزعجت هذه الانباء صلاح الدين وقد كان مريضا حينذاك ، ورأى أنه لا بد من الاستعداد بملوك المسلمين ، حتى يمكنه مقاومة جحافل الصليبيين المنتظرة . فأرسل الكتب وبعث الرسل الى مختلف الجهات «^٢» . وتحت أيدينا نص رسالين صدرتا عن ديوان الاشياء بمصر . والمرجح أنهما من اشياء القاضي الفاضل في سنة ٥٨٥ هـ - ١١٨٩ م وسنة ٥٨٦ هـ - ١١٩٠ م . الرسالة الأولى وردت في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي «^٣» . والثانية في كتاب الروضتين لأبى شامة «^٤» . وهى التى حملها عبد الرحمن ابن منقذ رسول صلاح الدين الى المغرب «^٥» .

- (١) الفتح القسى ، طبعة C. de Landberg ، بليدن ، ١٨٨٨ ، ص ٢١٤
- (٢) الفتح القسى ، طبعة ليدن ، ص ٢٢٤ ، أبو شامة ، كتاب الروضتين . طبعة القاهرة ، ج ١ ص ١٧٠ .
- (٣) صبح الاعشى ، القاهرة ، ج ٦ ص ٢٦ - ٥٢٠ - هذه الرسالة كما يحفظها القلقشندي لا تحمل تاريخا ، ولكن يمكن القول بأنها كتب في الفترة التى كان ينتظر فيها صلاح الدين وصول « فردريك بارباروسا » وموت هذا الأخير أى خريف عام ١١٨٩ . انظر Gaudesfroy - Demombynes. Melanges. René Basset, Une lettre de Saladin au calife almohade t. II. p. 289.
- (٤) كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ وما بعده .
- (٥) المرجع السابق . نلاحظ هنا ان ابا شامة يقول عن هذه الرسالة الشامة ، انها دونت في ٢٨ من شعبان سنة ٥٦٨ هـ / ١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠ م ، وان رسول صلاح الدين غادر الاسكندرية في ١٢ رمضان سنة ٥٨٦ هـ / ١٥ اكتوبر سنة ١١٩٠ م في شينى عمارته ١٢٠ رجلا . ولكن رغم التفصيلات الدفينة التى يعطيها أبو شامة ، فان الشك الذى يحيط بهذه التفصيلات يجعلنا نقضل الرجوع الى ابن عذارى فهو مرجع موثوق به وهو اكثر ضمانا في هذا المضمار (Anoninto de Madrid y Copenhague - Anales del Instituto General y Tecnico, de Valencia, Valencia, 1917 نص عربى وترجمه اسبانيه H. Huidl) بمعرفة الأستاذ

أما الرسالة الاولى فقد ذكرها القلقشندي كنموذج للرسائل الصادرة الى خلفاء الموحدين بالمغرب ، وللتنوع الذي يكتب من ملك الى آخر ، والرسم فيه « أن تفتح الرسالة بالدعاء المناسب للحال ثم يعبر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع . ويخاطب المكتوب بالأمير المؤمنين » (١) .

وأما الرسالة الثانية التي نقلها أبو شامة ، فهي تضي على الخليفة الموحدي وعلى صلاح الدين كذلك عددا من الالتفات غير الرسمية . أي التي أتى بها الكاتب متأثرا بالأسلوب المستعمل وقتذاك والذي كان يعتمد اعتمادا كبيرا على السجع والمحسنات البدعية المخلفة . فهو يلقب المنصور الموحدي مثلا بالاسفهلار الاصيل ، العالم المحترم ، ناج الدولة ، أمير الملة ، صفوة الملوك والسلاطين .

هنا يظهر تضارب في الشكل بين الرسالتين . يجعلنا شك في أنهما نقلتا بأمانة عن الاصل ، أي يجعلنا شك في أصالتهما . إذ ليس من المعقول أن يسمح صلاح الدين بتلقيب المنصور في الرسالة الاولى بالأمير المؤمنين ، أي أن يعترف بخلافته ثم يضمن عليه بهذا الاعتراف في الرسالة الثانية . لأسباب وأن هذه الأخيرة كان يحملها الى المغرب رسول له خطره ، بمعنى أن صلاح الدين كان جادا في توثيق علاقته بالموحدين (٢) .

مما يثير الشك كذلك في أصالة هذه الرسالة أن أبو شامة يقول قبل أن يوردها : « كان بلغني أن السلطان - رحمه الله - لما اشتد أمر الفرنج على

(٦) صبح الاعشى ، ج ٦ ص ٢٦ - ٥٢٧ . تلاحظ أن الرسالة عندما تذكر الخليفة الموحدي بعد ذلك مخاطبه بكلمة سيدنا (ص ٢٧ - ٢٨ - ٥٢٩) .

(٧) هنا يمكن التفكير في أن الرسالة الاولى ربما كانت من صنع القلقشندي فهو كما نرى يضمنها كنموذج للرسائل التي يخاطب فيها المكتوب اليه بالأمير المؤمنين ، هذا مع العلم بأن الرسالة تكرر بعد ذلك مخاطبه المنصور بكلمة سيدنا (أنظر الهامش السابق) . هذا وإذا قارنا هذه الرسالة برسالة أخرى كتبها القاضي الفاضل نفسه باسم صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بعدد (القلقشندي ، صبح ، ج ٦ ص ٥٠٦) نرى كيف تكرر لقب أمير المؤمنين باستمرار مما يؤكد الشك في رسالة القلقشندي .

عكا أرسل الى ملك المغرب يستنجد به عليهم ، ليقطع عنهم مادتها من جهة البحر . وكنت أطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح واف ، فإن العماد والقاضى لم يتعرضا له فى كتبهما . غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضى الفاضل الى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أرسل لأجله » . ويقول بعد ذلك : « ثم أرانى بعض الشيوخ الصلحاء الثماد بخطه ما كنت أرومه : نسخة كتاب كتبه القاضى الفاضل ونقله من خطه لابن منقذ » (٨) .

بعد ذلك نقرأ فى كتاب الروضتين أن المؤلف وقف على كتاب « فاضلى للسلطان بشعر بأن الرسالة المعربة لم تكن برأى الفاضل ولا هو مخنار لها » . فى هذا الخطاب يتضح أن القاضى الفاضل لم يكن يرغب فى كتابة رسالة للمغرب ، ولا فى سفر رسول ، رغم أنه يؤكد أنه لم يكن يكره ذلك . وهو يتكلم بعد هذا عن لقب أمير المؤمنين ، ويقول أنه « لا يمكن الا التعريض لا التصريح » ، وفى نهاية الخطاب يتضح أن ابن منقذ رسول صلاح الدين كان يريد أن يكون الخطاب باسم أمير المؤمنين ، لانه لا يستطيع أن يخاطب القوم الا بهذه النحية ، وأن صلاح الدين كان يوافقه على ذلك ولكن رأى القاضى النهائى كان يستصوب ترك اللقب فى الكتاب مبهما ، تارك الحرية للرسول بمخاطبة الخليفة الموحدى بلقب أمير المؤمنين اذا رأى أن هذا له من القوة ما يؤهله لحمل اللقب ، وأنه على استعداد لمساعدة صلاح الدين (٩) .

كل هذا يظهر أنه كان هناك اختلاف فى رأى بين رجال البلاط المصرى ، وأنه ربما لعبت الضغائن والحزازات الشخصية دورا مهما فى هذا الشأن ، كما يتضح مما تقدم أن الرسالتين بحالتهما الحاضرة مشكوك فى صحتهما شكلا ، أما من ناحية الموضوع فهما مقبولتان دون نقاش ، فصلاح الدين كان يطلب المعونة من كل أمراء الاسلام . وفى حالة المغرب هذه كان يطلب المساعدة البحرية من الموحدين ضد النصارى الذين كانوا

(٨) كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ .

(٩) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٧٥ - ١٧٠ .

يستعدون لغزو الشام ، تساعدهم أساطيل جنوه والبندقية وصقلية وغيرها .

هكذا أقلع أبو الحارث عبد الرحمن بن منقذ من الاسكندرية ووصل افريقية في شهر رجب سنة ٥٨٦ هـ أغسطس ١١٩٠ « ١٠ » . وواصل السير بعد ذلك حتى مدينة يجابة من أرض افريقية أيضا . ورغم التكتّم الشديد الذى لزمه رسول صلاح الدين بشأن الغرض من رحلته ، فانه قوبل بمقابلة طيبة من ولاية وعمال وممثلى يعقوب بافريقية وبالمغرب ، اذ كانت قد وصلتهم تعليمات من المنصور الذى كان مشغولا اذ ذاك بالحرب ضد البرتغال ، هذه الاوامر كانت تلزمهم بالآسألوا الرسول عن الغرض من رحلته الى المغرب « ١١ » . ولاغربة فذلك مظهر من مظاهر الحكم المطلق . فيعقوب لا يريد أن يحل محله أحد فى تصريف أمور دولته ، وهو يريد أن يكون صاحب الكلمة الاخيرة فى كل شأن من شئونها . وطلب الخليفة الموحدى أن يستصحب ابن منقذ الى مدينة فاس لينتظره هناك الى أن يعود من الاندلس « ١٢ » .

وفى فاس شاهد ابن منقذ عظمة المدينة المغربية الكبيرة التى بهرته بجمالها وكبر حدائقها واتساع ضياعها « ١٣ » . وقد أصيب المنصور بالمرض اثر عودته من الاندلس الى مراکش ، ورغم مرضه فقد كان يقوم شخصيا بالاشراف على كل شئون الدولة وخاصة خلال مدة النقاهة التى كانت

(١٠) ابن عذارى (Anonimo) ، ص ٦٢ . نلاحظ كما سبق ان انشرا (هامش ٥) ان ابا شامة (ح ٢ ص ١٧٢) وابن عذارى لا يتفقان على هذا التاريخ ، فالاول يقول ان رسول صلاح الدين لم يصل الى طرابلس الا فى ٢٥ من شوال / ٢٥ من نوفمبر وانه مكث هناك حتى ٨ من ذى القعدة / ٧ من ديسمبر .

(١١) ابن عذارى (Anónimo) ، ص ٦٢ .
(١٢) المرجع السابق ، كتاب الاستبصار ، مخطوطة بالكتبة الوطنية بارنز رقم ٢٢٢٥ ص ٢٩ - ب . ومؤلف هذا الكتاب وكان يكتب بالنيوب فى شهر رجب سنة ٥٨٧ / يونيه ١١٩١ يقول ان ابن منقذ كان فى فاس فى هذا الوقت منتظرا الاوامر الخليفية اى اوامر يعقوب ، انظر ابن خلدون ، العصر ، طبعة القاهرة ح ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، طبعة القاهرة ، ح ١ ص ١٧٤ (١٣) العمري ، ممالك الانصار ، ترجمة فرنسية ، طبعة بارنز ، ١٩٢٧ ، ص ١٦٠ ، والقلقشندي ، صبح ، ح ٦ ص ١٥٧ ، حيث ينقل عن العمري .

تنقطع من حين الى حين باشتاد المرض «١٤» . وبعد أن قضى بعض الوقت بعاصمة ملكه - مدينة مراكش ، ذهب الى مدينة فاس محمولا على محفة ، وكان وصول صلاح الدين مقيما هناك .

وصل المنصور الى فاس أول المحرم سنة ٥٨٨ (١٨ يناير ١١٩٢ م) لتابعة علاجه الذى سيطول مدة سبعة أشهر . وفى خلال أسبوع أى فى يوم ٦ من المحرم (٢٣ يناير) استقبل المنصور ابن منفذ «١٥» ، حيث قدم اليه الهدية التى حمله اياها صلاح الدين «١٦» ثم شرح الغرض من سفارته وهو رغبة صلاح الدين فى تدخل الاساطيل الموحدية لحصار بلاد الكفار التى ترسل الامدادات الى الصليبيين فى الشرق ، كما يطلب المساعدة على فك الحصار عن عكا وتحريرها «١٧» .

حقيقة أن المعركة من أجل عكا كانت حامية الوطيس ، وصلاح الدين بأسطوله المحدود كان لا يستطيع ايقاف الامدادات التى كانت تأتى الى

١١٤ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، طبعة دوزى بليدن ، ص ٢٠٣ ، وابن عدارى (Anonimo) ، ص ٦٦ ، وروض القرطاس ، طبعة Upsala, Tornberg ، ١٨٤٣ ، ص ١٤٤ ، وابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٥ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٦ .

١١٥ كتاب الاستبصار . مخطوطة بالملكة الوطنية بباريس رقم ٢٢٢٥ ص ٤٩ - ب . مؤلف هذا الكتاب الذى يظن أنه كان أحد كتاب الحليفة المغربى لا بد أن نشأ عن هذه المعاناة . إذ من المحتمل أنه كان يعرف أن رد سنده كان سلبا . وكل ما ذكره هو اعتقاده أن هذه الزيارة لم تكن إلا لإعلان الولاء والخضوع من جانب صلاح الدين الى الحليفة الموحدى كما يقدم الامراء آيات الخضوع الى ساداتهم .

(١٦) كانت الهدية تتكون من : مصحفين كريمين بالخط المنسوب مخيشة بمسك ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة منقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوسا عربية بأوتارها ، وعشرين نشابا هندية ، وعدد من السروج المدهمة . انظر ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، وقابل (ابو شامة . كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٣) و (السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٤) .

(١٧) القلقشندى ، صبح ، ج ٦ ص ٥٣٠ ، وأبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها ، وانظر Gaudefroy - Demombyne, Mélanges R. Bassot, Une lett. de Saladin, t II, p. 288 وابن خلدون العبر ، ج ٦ ص ٢٤٦ ، والسلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٥ .

أعدائه عن طريق البحر . ولكن الذي يلفت النظر هو أن يظل الاسلام في شرق البحر المتوسط لم يكن ليجهل قطعا أن زميله المغربي كان يعيش هو أيضا عبثة صراع مستمر ضد النصارى الاندلسيين بنظم رهبانهم . يعاونهم أمراء الاقطاع الفرنسيون الذين كانت تسهويهم المحطرات والسمى وراء الثروة في أسبابا وفي الاراضي المقدسة . ولا شك أيضا أن سلاح الدين لم يكن لجهل أن صاحب المغرب كان في حاجة الى حشد كل قواه البحرية والبرية . حتى يتمكن من مغالبة أعدائه والرائهم الهدوء والسكينة . وهذا يدفعنا الى التساؤل ! كيف أقدم صلاح الدين على طلبه المعونة البحرية من المنصور ؟ وللاجابة على هذا السؤال نستطيع أن نعرض أن الهبة التي كان يتمتع بها المجاهد المغربي في الشرق كان مبالغا فيها بعض الشيء (١) . فلو لم يمدح الاسطول الهندي (٢) . فغناح الدين كان يرى أن خطر الصليبيين والجهاد ضدهم بحمله عبثا هباء . وأنه ينبغي أن يشطره المجاهد المغربي هذا العبء . وأن يحمل معه بعض المجهود والنضحيات : ليست الاراضي المقدسة لها حرمتها وفدسينها بالسبة لجميع المسلمين في العالم ! اذن فالواجب على المسلمين في كل مكان حمايتها من خطر الكفار . وإذا كانت ممالك الصليبيين في الشام تستقبل الامدادات والمساعدات الدائمة من أوروبا ، أي من المغرب المسحي . فالمشرق الاسلامي هو كذلك يستطير بدمه الامدادات من بلاد الهند واماوى من المسلمين بالمغرب (٣) .

(١٨) رسالة الفلقسندى . ص ٦ ، ح ٦ ص ٥٢٩ . تقول لم نر لمكاثرة البحر الا بحرا من اساطيله المنصورة . فان عددها واف . وشطرها كاف . ويمكنه - ادام الله تمكينه - ان يمد الشام منه بعدد كثير .

(١٩) يقول ابن خلدون العر . ح ١ ص ٢٧ وما بعده . عند كلامه عن فساد الاساطيل : « لما استنفحت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العروتين . البربر . أقاموا حظه هذا الاسطول على أنهم ماعرف وأعظم ماعهد . . انتهت اساطيل المسلمين على عهده - يوسف بن عبد المؤمن ابو المنصور - في الكثرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا من بعد فيما عهدنا » .

(٢٠) الفلقسندى . ص ٦ ، ح ٦ ص ٥٢٨ . ابو شامة ، كتاب الروضتين ،

ح ٢ ص ١٧١ .

ولكن رغم أن ابن منقذ استعمل كل ما أوتي من مقدرة ومواهب في مديح يعقوب والاشادة بمجده «٢١» . إلا أن اجابة المنصور لم تكن في صالحه تماما . فمع أنه خرج راضيا من الناحية الشخصية . مغمورا بالهدايا والاعطيات ، إلا أنه أصيب بفشل تام فيما يتعلق بالغرض من سفارته . بمعنى أنه لم ينل المساعدة البحرية المشودة «٢٢» .

إذا حاولنا أن نتعرف على الاسباب التي دعت المنصور الى عدم اجابة طلب صلاح الدين فالتا نجد كثيرا من التفسيرات . أولها مساعدة «المماليك» المصريين — أتباع تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أخى صلاح الدين — امي عامة في ثورتهم . ثم نسبة صدق المنصور . راسي كمال صلاح الدين يظهر فيها . ولو بصفة غير مباشرة . بمظهر الشريك الذي لا يمكنه النهرب من المستويات . هي سنة ٥٦٨ هـ ١١٧٣ م خرج جمعة من المراكم المديني (المرقة الزمر والبرار) . مع زيادة المراكم . بوريا من ا. ا. ع. في المدين

٢١ . هنا بعد ان ابن منقذ لا يرد في تليق المنصور بامر المؤمنين فيقول في قصيدته :

اليك امير المؤمنين وام رل الى بابك المأمول ترحى الرواحل

انظر السلاوى ، الاسفصا ، ج ١ ص ١٧٥ . ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٤ حيث يقول هذا السمر ولكنه صنع القمبامير المسلمين بدلا من امير المؤمنين اى القمب الذي هو اقل من القمب الملاقي . ولكن من المرجح ان ابن منقذ لم يكن يستطيع الا الاعتراف بالخلافة المؤمنيه انشاء وجوده في المجمع الموحدى بالمغرب . وقد سبق ان راينا ان ابن منقذ كان يصر على ان حبي المنصور بهذا القمب وذلك قبل معاديه مفر .

٢٢ . يقال انه مدح المنصور بقصيدة من اربعين بيتا فمحه عن كل بيت ألف درهم وقال انما اعطيتاه لنته . وعلق السلاوى على هذه اعمارة الاخيرة قائلا الاسفصا . ج ١ ص ١٧٥ . بمعنى انه لم يعطه من اجل صلاح الدين . هنا نلاحظ ان ابن خلدون . العصر . ج ٦ ص ٢٤٦ ، ينسب ماضي الساربخ العلمى حسب ما تعرضها في مقدمه ، فبعد ان يقول ان المنصور اعتذر عن عدم امكانه القيام بالمساعدة البحرية المشودة . يعود فيقول انه — حسب روايه اخرى — عبا المنصور لصلاح الدين ١٨٠ مركبا وان هذه منع البصارى من سواحل الشام .

متجهة نحو افريقية والمغرب «٢٣» وبدأت بنوطيد سلطانها طرابلس تحت زعامة قراقوش الذي سيعظم شأنه ويلتصق اسمه بحوادث طرابلس وافريقية في هذه الفترة وبالتالي بدولة الموحدين .

وهناك سؤال يصعب الاجابة عليه هو ماذا كان هدف قراقوش وأصحابه ؟ والظاهر أن الذين يهمهم هذا الامر لم يكونوا يستطيعوا الاجابة على هذا السؤال . هل كان هدفهم ايجاد مأوى يلجأ اليه صلاح الدين في حالة ما اذا انتهى التنافس بين نور الدين باستبصار الاخر «٢٤» أم لمناصرة البدو من بني هلال وبني سليم وبني غانية . لمحاولة إعادة بناء الدولة المرابطية ، تحت اشراف صلاح الدين وسيادة الخلافة العباسية ! أم أن قراقوش خرج من مصر ليعمل لحسابه في المغرب جريا وراء السلطان والثروة والمعامرة ! ان سير الحوادث - اذ هو يوما مع الموحدين ويوما ضدهم - يجعلنا نميل الى الاخذ بهذا الرأي .

في أول حكم المنصور سنة ٥٨١ هـ ١١٨٥ م قام بموعابه حكامه ورقة (جزر البليار الحالية) . وهم عائلة من المرابطين لم يستطع الموحدون غزو جزرهم . بحملة على افريقية ضد أعدائهم الموحدين . وبدأوا بفنح بجاية والجزائر ومليانة وغيرها «٢٥» . ولم تستطع جيوش الموحدين أن تقصى عليهم في

(٢٣) التيجاني ، ترجمة فرنسية ، Voyage du Cheikh at Tijani dans la régence de Tunes, trad. Tonnacou (A.), Paris, 1853, p. 102 et suivantes. يذكر التيجاني قراقوش وابراهيم بن فراكثين ، أبو شامة . كتاب الروصين ، ج ٢ ص ١٧١ ، يذكر قراقوش وبوريا وقد اخذنا به ، كتاب الاستبصار . مخطوطه بباريس ص ٥٨ . يسميه أبوريا ، بينما هناك خطاب رسمي موحدي (Trente-sept lettres officielles almohades, textes arabes, éd. Rabat, 1941, p. 198, études par E. Lévi-Provençal, Paris, 1942, p. 62) يسميه أبو زيان ، أنظر ابن عذاري ، (Anonimo) ص ٥٣ . ابن خلدون العبر ، ج ٥ ص ٢٨٦ (بنقل التيجاني) . وأنظر A. Bel, Les Banu Ganiya, p. 61 et suiv.

(٢٤) التيجاني ، الرحلة ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ص ٢٨٦ .
(٢٥) أنظر هامش ٢٣ .

تلك الجهات بل سيظل الصراع سجالات بين كر وفر مدة طويلة (حوالى
نصف قرن)

بنو غانية هؤلاء قاموا بحملتهم هذه باسم الخلافة العباسية وتحت
أعلامها السوداء «٢٦» . وباندفاعهم نحو طرابلس أثناء الصراع ، وجدوا
لأنفسهم هناك حلفاء طبيعيين هم المماليك المصريون على رأسهم قراقوش ،
ثم من كان يتعاون معهم من عرب هلال وسليم مثل جشم ورياح والاييج
الذين أجابوا دعوة المبورقين لمساعدتهم «٢٧» . والحقيقة كان من السهل
أن تفق أهواء بنو غانية الذين يريدون الشار من الموحدين ، ومحاولة
اقتطاع الولاية الشرفية من دولتهم ، مع مصالح الترك المصريين وذلك
لأسباب سياسية وأخرى دينية من السهل ادراكها : فالمماليك كان من
مصلحتهم نشر نفوذ مصر الاسمى على الاقل في هذه البلاد ، وكذلك
اضعاف سلطان الموحدين هناك . ثم انهم بعد ذلك يستطيعون أن يؤيدوا
مطامعهم الشخصية بإعلان دوافع دينية كالتي أعلنها الميورقيون وهي
الاعتراف بخلافة بغداد باعتبارها السلطة الشرعية الوحيدة في المغرب .
هكذا بدأ بنو غانية والمماليك المصريون بالعمل سويا ضد الموحدين ، بل
وتمكنوا من ازالة هزائم منكرة بهم ، حتى أن افريقية كلها سقطت في وقت
بأيديهم عدا مدينتين هما تونس والمهدية «٢٨» . وقام ابن غانية بعمل سياسي
بارع ، وهو أنه الى جانب رفع الاعلام العباسية أرسل ابنه مع كاتبه
عبد البر بن فرسان الى الخليفة الناصر بن المستضيء «٢٩» لإعلان الطاعة
لهذا الخليفة ، وطلب الخلع والاعلام السوداء منه . وكان من الطبيعي أن

(٢٦) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ابن عذارى (Anonimo) ص ٤٤ .

(٢٧) التيجاني ، الرحلة ، الترجمة الفرنسية ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ،
العبر ، ج ٥ ص ٢٨٦ ، ج ٦ ص ٢٠ وما بعده ، ابن خلدون ، ج ١ ص ١٠٠ .

(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، طبعة طورنبورج ، بليدن ، ج ١١ ص ٣٤٢ .

(٢٩) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٢ ، انظر المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢
ص ٢ - ٦٤٣ .

يقابل ديوان الخليفة ببغداد هذه البعثة قبولا حسنا ، وأن يمنح ابن غانية ما كان يمنحه للمرابطين من ميزات لاسيما لقب « أمير المسلمين » . وأن يطلب الى صلاح الدين أن يناصر المبورعين في كفاحهم «^{٢١}» . ورغم هذا فقد انتهى الصراع بأن عمل بنو غانية وحدهم ، أما المماليك المصريون فقد طلبوا الامان من الموحدين ، فأرسل المنصور جرسا كبيرا منهم الى المغرب الأقصى . للعمل في الجيش النظامي بالعاصمة «راكش» «^{٢١}» .

كان صلاح الدين يعلم أن أعمال أتباعه هؤلاء تعتبر أعمالا عدائية بالنسبة للموحدين ، وأن المنصور ربما آخذه على ذلك . ومنع المعونة اللازمة له . وعلى ذلك فإن ابن مقذ أحبط علما بهذا . وطلب اليه أن يعتذر عن ذلك بأن المملوكين اللذين خرجا من مصر سنة ٥٦٨ هـ ان هما الا شخصان لاخطر لهما على الاطلاق . اذ هما من « نفاة الرجال وليس من وجوه المماليك والامراء » . وأنهما لبسا من أولئك الرجال الذين « اذا غاب أحضر ولا ممن اذا فقد افتقد » . فهو يستعيد بالله من أن يأمر مفسدا يفسد في الارض .

كان من السهل اذن على صلاح الدين أن يعتذر عما فعله مملوك ابن أخيه بالمغرب ، ولكن لم يكن هناك ما يحمل المنصور على أن يصدق أو يقبل عذره . فموقفه كان غامضا بل ربما كان مسئولا عما حدث ولو بطريقة غير مباشرة كما رأينا ، ولاشك أن هذا كان سببا كافيا لازدواج المنصور تقديم بحريته لمن كان يناهضه . ويضاف الى هذا ما أشرنا اليه من عدم اعتراف صلاح الدين للحليفة الموحدي بلقب أمير المؤمنين ، وهو اللقب الذي انتحله الموحدون لانفسهم «^{٢٢}» .

(٢٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ١٩٢ .

(٢١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٥ . ابن الاثير ، ج ١ ص ٢٠٩ .
G. Marcais, Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècles, انظر
Constantin-Paris, 1913, pp. 198 et suivantes.

(٢٢) انظر ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٤ ص ٢٨١ الذي يقول ان صلاح الدين كتب اليه بلقب أمير المسلمين وليس بلقب أمير المؤمنين ، قابل ابو شامة . كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٤ ، السلاوي ، الاستفصا ، ج ١ ص ١٧٤ .

هذه الاسباب وتلك العلل لها قيمتها وربما كان لها تأثيرها . الا أنها تظهر ثانوية بالنسبة للعوامل الاخرى التى لها صبغتها الجدية . ففى هذا الوقت كان المنصور مريضا ، ولم تكن فترة مرضه خطيرة على شخصه فحسب بل على حياة دولته أيضا ، فكان عليه قبل أن يفكر فى مساعدة المسلمين بالشرق أن يركز اهتمامه لاستتباب الامن والسلام داخل دولته ، وأن يقتل كل محاولة أئيمة ضد خلافته . ففى هذه الاثناء نراه يقتل أخاه أبا يحيى الذى أراد أن يدعو الى البيعة لنفسه بدلا من أبى محمد عبد الله ابن المنصور الذى كان أعلن وليا للعهد فى هذا الوقت «٣٣» . والى هذا فان موقف المنصور لم يكن أفضل من موقف صلاح الدين ، فهو لم يكن يستطيع أن يقدم المعونة البحرية المنشودة . والتى كان يرغبها من غير شك جميع المسلمين ، لانه فى حاجة الى كل قواته البحرية لمواصلة الصراع ضد الميورقيين القراصنة ، ثم انه كان عليه أن يحمل كل قواته البرية الى أسبانيا عبر المضيق ، وأن يؤمن طريق مواصلاته ضد قوات أعدائه البحرية ، والدفاع عن ثغور الاسلام فى الغرب ضد كل خطر بحرى مثل ذلك الذى دعا الى سقوط شلب (Silves) بين أيدي البرتغالى سنة ١٥٨٥/١١٨٦م «٣٤» .

وستثبت الحوادث التالية فى أسبانيا أن المنصور كان محضا عندما رفض توزيع قواته . كما أن الانتصارات العظيمة التى سيجريها ضد ممالك النصارى الفتية هناك ، ولاسيما انتصاره الباهر فى موقعة الارك ضد قشتالة ، ستثبت أن تقديره للموقف لم يكن خاطئا .

ينضح مما سبق أن طلب صلاح الدين المساعدة من المغرب أثناء كفاحه ضد المسيحية فى سبيل تحرير الاراضى المقدسة قوبل بالرفض من جانب المنصور الموحدى ، ذلك الرجل الذى كان «مظهرا للشريعة غازيا» «٣٥» .

(٣٣) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠٤ .

(٣٤) ابن عذارى (Amonimo) ، ص ٥٧ - ٥٨ ، ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٣ ص ٢٧٥ ، عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٩٦ ، الحميرى ، الروض المعمار ، ص ١٠٦ .

(٣٥) أبو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٧٤ .

والذي كان متعصبا للإسلام إلى أقصى حد .

ولكن رفض مثل هذا الطلب العزيز على قلوب المسلمين جميعا لم يكن ليتم دون أن يكون له صدى لاسيما وأن المغاربة كانوا يجاهدون إلى جانب اخوانهم المشاركة بالشام «^{٣٦}» . ذلك الصدى سيظهر بعد وفاة المنصور سنة ٥٩٥ هـ ١١٩٩ م . فقد نبتت رواية تقول أن المنصور لم يمت وإنما رهد في الدنيا وساح في الأرض نحو الشرق متعبدا . كان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة «^{٣٧}» ذاكرا أنه يوجد في قرية قريبة من المجدل بفلسطين قبر يؤكد الجميع أنه قبر يعقوب المنصور . ومع هذا فقد عاد ابن خلكان وذكر أن المنصور مات بالمغرب .

هذه المتناقضات التي ينقلها أغلب الكتاب المتأخرين عن ابن خلكان تدعونا إلى محاولة النظر في هذه المشكلة قبل وضعها في صف الخرافات والاعتقادات الشعبية الزائفة . ومن الغريب حقيقة أننا نجد في تاريخ الموحدين كثيرا من الغموض الذي يحبط بنهاية كثير من شخصياته الكبيرة «^{٣٨}» . ويمكن أن تفسر هذه الظاهرة بأسباب كثيرة : منها الصدفة المحضة ، ومنها اغراض المؤرخين المتأخرين وخاصة من كتب منهم أيام بني مرين أعداء الموحدين وخلفائهم بالمغرب الأقصى . ومنها عادات وتقاليد المجتمع المغربي الذي يعلق بالاشياء الخرافية والخرقة للمعادة . ولكن هناك سؤالا لا بد من البحث له عن جواب . وهو اذا كان من المعقول أن يتعلق المغاربة بأمرهم العظيم إلى درجة تمنعهم من أن يجعلوه يموت طبيعا

(٣٦) انظر ابن جبير الرحلة ، طبعة ليدن ، ١٩٠٧ ، ص ٣٠٧ .

(٣٧) الوفيات ، ح ٣ ص ٣٧٩ ، المعرى ، النسخ ، ح ٢ ص ١١٩ ، السلاوي الاستقصا ، ح ١ ص ١٨٤ .

(٣٨) عن موت القائد الوشريشي انظر ابن الاثير ، ح ١ ص ٤٠٧ . عن وفاة محمد بن تومرت انظر روض القرطاس لابن أبي روع ، ص ١١٨ (CF. L.F.). (Gautier, Passé de Afrique p66-7) عن مصرع يوسف بن عبد المؤمن انظر ابن الاثير . ح ١ ص ٢٣١ ، ابن خلكان ، الوفيات ، ح ٣ ص ٤٦٥ ، المعرى ، النسخ . ح ٢ ص ١١٨٨ . عن وفاة أبي عبد الله محمد الناصر انظر ابن خلكان . الوفيات ، ح ٣ ص ٢٨٣ .

كما يموت غيره ، وتدفعهم الى أن يحيطوا موته بهالة من الغموض والعظمة ، فكيف تفسر ما يقوله المشاركة من أن قبره موجود بأرضهم بالشام حسب ما يؤكد ابن خلكان ! هذه النقطة التي دعت السلاوي «^{٣٩}» الى عدم اجمال هذه الرواية ووضعها في صف الخرافات الشعبية كما فعل ابن الخطيب «^{٤٠}» والمقرئ «^{٤١}» . ولمحاولة الرد على هذا السؤال نحاول النظر في المسألة من الناحية التاريخية الصرفة : يتبين من المصادر الموثوق بها — رغم اختلافها بالنسبة لتحديد تاريخ وفاة المنصور — ان المنصور توفي في الشهور الأولى من سنة ٥٩٥ هـ . وهناك اجمال كبير في أن يكون قد مات يوم ٢٢ من ربيع الأول من هذه السنة (٢٢ يناير سنة ١١٩٩) «^{٤٢}» كما يمكن التأكيد بأنه دفن في مدينة تنمل الى جانب ابن تومرت وجده وأبيه «^{٤٣}» . ورغم أن موقف الدولة كان قد تحسن في اسبانيا بانهازم النصاري أمام جيوش الموحدين فإنه لم يكن قد استقر بعد في افريقية لوجود بني عانية ، ثم أن ولي العهد لم يكن قد بلغ العشرين ، وعلى هذا لم تكن الظروف تسمح للمنصور بأن يتخلى عن مهام الحكم لينفرغ للعبادة والرحلة المتصوفة نحو الشرق . ولكننا في نفس الوقت نعلم أنه كان قد

(٣٩) الاستقصا ، ج ١ ص ١٨٤ .

(٤٠) رقم الحل ، ص ٥٩ .

(٤١) النفع ، ج ٢ ص ١١٩ .

١٤٢١ ابن عذاري (Anonimo) ص ٨١ . يقول المؤلف ان ابنه محمدا اعلى العرش يوم ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، روض القرطاس . ص ١٤٢ ، ١٥٢ يقول انه مات ليلة الجمعة ٢٢ من ربيع الاول سنة ٥٩٥ ، ابن الخطيب ، رقم الحل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الاول ٥٩٥) ابن الابار . تكملة الصلة ، طبعة Cookra بمديرية سنة ١٨٨٧ ، ج ١ ص ٢٧٠ (شهرا بعد موت ابن رشد الذي توفي في ٩ من صفر سنة ٥٩٥) ، ابن الانير ، ج ١٢ ص ٩٥ (١٨ من ربيع اثناني سنة ٥٩٥ ، ١٨ من جمادى الاول سنة ٥٩٥ . الحل الموشية لمؤلف مجهول ، طبعة الرباط ، ص ٣٤ (ربيع الاول سنة ٥٩٥) ، عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٢٢٤ (اول صفر سنة ٥٩٥) ، ابن خلكان ، الوفيات ، ج ٢ ص ٢٧٩ (اول جمادى الاول ٥٩٥ ، ١٧ ربيع الثاني ، اول صفر) .

(٤٣) الحل الموشية ، طبعة الرباط ، ص ١٣٤ ، روض القرطاس . ص ١٤٢ . انظر F. Ferriol, Les ruines de Tinnel, Hespéris, 1922, p. 163.

أظهر الرغبة في المسير الى الشرق ومصر لتطهيرها من البدع واطهار الدين الصحيح «^{١٤}» . ونحن نذكر أن هذه الفرصة كانت سحبت له عندما طلب صلاح الدين اليه أن يمدّه بالمعونة العسكرية التي كان يرغب في تحقيقها كل المسلمين .

نظن أن رفض المنصور تلك المساعدة كان له صدى في نفوس المغاربة المقيمين بالشرق . وكان عدد كبير منهم يحارب بالشام . هذا الصدى هو الذي دعا الى نسج خيوط هذه القصة المأثلة بأنه ترك سلطانه واتخذ طريق الاراضي المقدسة - حيث لقي النصارى صدمات عنيفة من المسلمين - وهناك مات قرب المجدل . نستنتج من هذا أنه يمكن اعتبار حالة الزهد هذه في نظر مؤلفي هذه القصة كاعتذار من جانب المنصور يشترى به نفسه . وكمثل من أمثلة الورع والدين الصحيح يضربه المغرب للمشرق . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أيضا أن القصة الحرافية التي ظهرت - وهذا شيء غريب - في المشرق اما هي مغربية الاصل . يؤيد ذلك قصة مغربية - لحما ودما هذه المرة - تقول أن يعقوب لم يتجه نحو الشرق من أجل العبد والزهد . انما ذهب الى الاندلس كم رابط في الثغر للجهاد ضد الكفار «^{١٥}» .

(٤٤) عبد الواحد المراكشي . المعجب . ص ٢٠٦ - اطراش حمر . الرحلة . طبعة لندن ، ١٩٠٧ ص ٥٣ ، ٧٨ ، ٧٩ . يرى الكاتب الذي يرور مصر في تلك الفترة أن كل الدلائل تظهر أن الموحدون سيفتحون مصر وأن المصريين أنفسهم يشمقون الى ذلك) .

(٤٥) الزركشي . تاريخ الدولتين ، طبعه فسطاطية . ١٩٥٠ ص ١١ .

« الأقسام الجغرافية لجزيرة العرب »

كما تصورها المصادر العربية

حدود الجزيرة العربية :

احتلت المصادر العربية في رسم الحدود الجغرافية لبلاد العرب . ويرجع اختلافها في ذلك الى تباين المناهج التي اتبعتها في تناول الموضوع ومعالجته . وسنستطيع ان نستخلص من بين هذه الخلافات أربعة آراء رئيسية في معالجه الموضوع .

اما الرأي الاول فهو رأي فقهاء الدولة ورجال التشريع فيها . ذهبوا في تحديدهم لربعة البلاد العربية الى اتخاذ التقسيم الإداري - الذي اعتمد عليه ديوان الخراج في تحديد أعمال الدولة - اساسا يستندون اليه في مذهبهم الذي ذهبوا اليه .

« ذكر ابن وهب عن مالك قال : أرض العرب مكة والمدينة واليمن » (١)

« وقال احمد بن المعدل حدسي يعقوب بن محمد بن عيسى الرهري قال : قال مالك بن انس جزيرة العرب المدينة ومكة واليمامة واليمن » (١)

« وقال المعيرة بن عبد الرحمن : جزيرة العرب مكة والمدينة واليمن وقرى يثاقتها » (١) .

فهذه النصوص الثلاثة تنفق على تحديد رقعة بلاد العرب « بمكة والمدينة واليمن » ولكنها تختلف بعد ذلك في شأن اليمامة . وقد اعتمدت هذه النصوص على وجهة النظر الفقهاء التي كانت تأخذ - في تحديدها للامصار وكور الاقاليم وما شمل عليها من انقيصات والمدن - بالحدود السياسي الذي حددته الدولة . فالأعمال الرئيسية في بلاد العرب كانت مكة والمدينة واليمن . وكانت نجد تدخل ضمن عمل المدينة .

اما اليمامة فاختلافهم في شأنها راجع الى اختلاف وضعها بين العصرين الاموي والعباسي . ففي عهد الامويين كانت اليمامة تضاف احيانا الى المدينة ،

(١) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٥

واحيانا تفرد براسها فتكون قضية مستقلة . وبهذا نستطيع ان نفهم الاختلاف الذى نراه بشأنها فى النصوص التى رويت عن مالك . واما فى عهد العباسيين فكانت اليمامة والبحرين وعمان عملا واحدا من أعمال العراق . « البحرين من أعمال العراق » . وحده من عمل باحثة جرجان . واليمامة على حياها ، وربما ضمت اليمامة الى المدينة ، وربما افردت . هذا كان فى أيام بنى أمية . فلما ولى بنو العباس صيروا عمان والبحرين واليمامة عملا واحدا « (١) » .

فحدود البلاد العربية على هذا الراى هى التى تدور حول مكة والمدينة واليمن تدخل فى ذلك نجد لانها كانت تعتبر من أعمال المدينة دائما . وقد تدخل اليمن ضمن هذه الحدود . واما فى عهد العباسيين فكانت تضاف الى أعمال العراق . وتدخل فى ذلك توابع اليمن من الاحقاف والاشجار اذا اعتبرنا الضمير فى « قرياتها » يعود على اليمن .

أما عمان والبحرين فتخرجان عن هذا التحديد اذ كانا دائما من أعمال العراق فى عهد الامويين والعباسيين على السواء . لذلك اخرجها مالك والمعيرة والزهرى من أعمال بلاد العرب .

ومرجع الفقهاء فى هذا — كما نفهم من قول ابى اسحق الحربى — هو عمل عمر بن الخطاب فى خلافته « واخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من جزيرة العرب » ، الا انه لم يخرجهم من نجران ولا اليمامة والبحرين فسميت العروس « (٢) » . فعمر قد اعتبر بلاد العرب قاصرة على أعمال مكة والمدينة وبهذا اخذ الفقهاء اول الامر فيما يظهر ، ولكنهم امام عمل الامويين والعباسيين — الذين اضافوا اليمن الى أعمال بلاد العرب — لم يكن لهم بد من ان يعدلوا عن رأيهم الاول . و اضافوا اليمن كذلك الى رقعة البلاد العربية .

وقد تآثر بعض الجغرافيين بهذا الراى فى تحديدهم لرقعة الجزيرة العربية .

واما الراى الثانى فيحدد رقعة البلاد العربية تحديدا جغرافيا . فيجعل البحر حدها الغربى والجنوبى والشرقى . ويكمل هذا الحد من ناحيه الشرق نهر الفرات الذى ينقطع بعد ذلك فى شمال سوريا ، ثم يتجه حتى يصل الى خليج العقبة .

قال ابن حوقل « والذى يحيط بها (ديار العرب) بحر فارس من عبادان — وهو مصب ماء دجلة فى البحر — فيمتد على البحرين حتى ينتهى الى عمان ،

(١) ياقوت : معجم البلدان — مادة « البحرين »

(٢) البكرى معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

ثم يعطف على سواحل مهرة وحضرموت وعدن حتى ينتهي على سواحل البحر الى جدة ، ثم يمتد على الجبار ومدن حتى ينتهي الى ايله . ثم قد انتهى حينئذ حد ديار العرب من هذا البحر . وهذا المكان من البحر لسان ويعرف ببحر القلزم - والقلزم مدينه على طرفه وسيفه - فاذا استمر على تاران وجبيلان وصل الى القلزم وينقطع حينئذ . وهو شرقي ديار العرب وجنوبيها وشيء من عرييها . ثم يمتد من ايله على مدائن قوم لوط والبحيرة الميه التي تعرف ببخير زغر الى الشراة والبلقاء وهي من عمل فلسطين ، وادرعان وحوران والشنية وغوطه دمشق ونواحي بعلبك وهي من عمل دمشق ، وتدمر وسلمية وهما من عمل حمص ، ثم الى الخناصره وبالس وهما من عمل قنسرين . وقد انتهى الحد الى الفرات . ثم يمتد الفرات على ديار العرب حتى ينهي الى الرقه وقرقيسيا والرحبه والدالية وعانة والحديثة وهيئ والاسار الى الكوفه ومستعمرغ مياه الفرات الى البطائح ، ثم تمتد ديار العرب على نواحي الكوفه والحيره على الحورنق وعلى سواد الكوفه الى حد واسط فتصائب ما جاور دجله وقاربها عند واسط مقدار مرحلة ، ثم تستمد وتسمر على سواء البصرة وبطائنها حتى ينتهي الى عبادان .

وهذا الذي يحيط بديار العرب : فما كان من عبادان الى ايله فانه بحر فارس وشمل على نحو ثلاثة ارباع ديار العرب وهو الحد الشرقي والجنوبي وبعض العربي . وما بقي من حد الغربي من ايله الى بالس فمن الشام . وما كان من بالس الى عبادان فهو الحد الشمالي . ومن بالس الى ان تجاور الاسار فمن حد الجزيرة . ومن الانبار الى عبادان فمن حد العراق « (١)

وبحر فارس الذي ذكر في هذا النص يقصد به الخليج الفارسي ، وبحر اليمن ، ثم البحر الاحمر . وقد اطلق المؤلف عليها جميعا اسم بحر فارس .

وسبق مع هذا النص اماما نص الاصطخرى الذي يورده في المسالك والممالك ٢ . لم يحلف عنه الا في كلمة واحدة قد قر كلمة « البحيرة الميتة » . الواردة في النص : البحيرة الميتة . وهذا الاتفاق قد يدعو الى الظن ان هذا الحدود الجغرافي للبحر العربي قد سبقهما اليه مصدر سابق اعتمدا عليه واحدا منه . ولما كان الاصطخرى قد عول في كتابه على كتاب صور الاقاليم لابي زيد احمد بن سهل النحوي الذي ذكره المقدسي على انه امام هذا العلم (٢) فمن المحتمل ان يكون هذا النص الذي بنى عليه هو نص ابي زيد اللخمي . وقد يرجح ذلك اطلاقه اسم بحر فارس على البحر الاحمر وبحر اليمن .

(١) ابن حوقل : صورة الارض (لندن ١٩٣٨) ١٨/١٩

(٢) الاصطخرى : مسالك الممالك (لندن ١٩٢٧) ١٢/١٣

(٣) المقدسي : احسن التقاسيم (لندن ١٩٠٦) ٦٨

فالبحر الاحمر في المصادر القديمة غير الفارسية كان يضاف الى الحبشة لا الى فارس فكان يسمى بحر الحبشة .

فهذا التحديد الجغرافي الذي يشتمل عليه النص يتفق - فيما يبدو - مع لفظ الجزيرة الذي أضاعه العرب الى بلادهم فقد تصوروها والماء يحيط بها من جهاتها . « قال الخليل سميت جزيرة العرب جزيرة لان بحر فارس وبحر لحش وامرات ودجلة احاطت بها وهى أرض العرب ومعناها » (١) .

ولا يذكر بحر الروم في هذا التحديد مع الحاجة اليه لاستكمال صورة الجزيرة من ناحية حدها الغربى . والظاهر ان بعض الاعتبارات الجغرافية او التاريخية قد جعلت الحد العربى لبلاد العرب يعتمد قليلا عن ساحل البحر الابيض . فالحد كما يرسمه ابن حوقل والاصطحرى يتجه من ايلة الى البحر الميت ثم الى الشراة والبلقاء وحوران وغوطة دمشق ونواحي بعلبك ، اى ان هذا الحد هو الانكسار الاخدودى الفاصل بين سلسلة الجبال الساحلية المطللة على البحر الابيض وبين الهضبة الداخلية المطللة على البادية . فهذا الانكسار يقوم حائلا دون اتصال الاجزاء الداخلية بالساحل بصفة عامة . ويتكون من وادى العربية الواصل من العقبة الى البحر الميت ، ثم من الاخدود الذى يشغله البحر الميت ونهر الاردن ، ثم من سهل البقاع الذى تقع فيه بعلبك ، ثم من مجرى نهر العاصى حتى اقليم الغاب ، اذ يتجه الانكسار بعد ذلك نحو الاراضى التركية حتى مرعش .

وهذا الحد يظهر اكثر وضوحا وتأكيذا في اجرائه الجنوبية منه في جزئه الشمالى . فوادى العربية واخدود البحر الميت والاردن يكون شبه خندق طبيعى يحول دون القبائل العربية واقليم الساحل ، ويكون مشابها لذلك الخندق الصناعى الذى اتخذه كسرى في الناحية الشرقية من البادية ليحول دون البدو ويرف المراق .

وقد اخرج هذا الحد شبه جزيرة سينا من دائرة البلاد العربية ، ولكنه كان جديرا ان يدخل الامارات التى كانت تقع في شرفيه في حدود البلاد العربية . ولكن الاعتبارات السياسية - التى كانت تجعل هذه الامارات تابعة لاقليم الشام - اقتطعتها من حيز الجزيرة العربية وازافتها الى اقليم الساحل . « ويتصل بأرض العرب بناحية ايلة بربة تعرف بنيه بنى اسرائيل وهى بربة وان كانت متصلة بديار العرب فليست من ديارهم ، واما كانت بربة بين ارض العمالقة واليونانية وارص القبط ، وليس للعرب بها ماء ولا مرعى ، فلذلك لاتدخل في ديارهم . وقد سكن طوائف من العرب من

(١) البكرى : معجم ما استمعج (القاهرة ١٩٤٥) ٦

ربيعة ومضر الجزيرة حتى صارت لهم بها ديار ومراع . ولم ار احدا من
الجزيرة الى ديار العرب لان نزولهم بها وهى ديار لغارس والروم في اضعاف
قرى معمورة ومدن لها اعمال عريضة فنزلوا على خفارة فارس والروم ، حتى
ان بعضهم تنصر ودان بدين النصرانية مع الروم مثل تغلب من ربيعة بارض
الجزيرة وعسان وبهراء وتنوح من اليمن بارض الشام « (١) . فلادارات
السياسية التى كانت تنشأ على اطراف البادية خاضعة لغارس او الروم كلت
لا تعتبر من بلاد العرب رغم دخولها في حيزها الجغرافى . ولهذا فان كثيرا من
الجغرافيين كانوا يفضلون في تحديد الحد الجغرافى من هذه الناحية استعمال
عبارة « مشارف الشام » او « اطرار الشام » وذلك للاعتبارات السياسية
والتاريخية التى كانت تدخل ذلك الاقليم في بلاد الشام « وقال الاصمعى :
جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من اقصى عدن ايثن الى اطرار الشام
- هذا في الطول - والعرض من جدة الى ريف العراق « (٢) .

واما الراى الثالث فيوفق بين الرايين السابقين فيراعى في تحديده لرقعة
البلاد العربية الاعتبارات الجغرافية والاعتبارات الادارية في تقسيم الدولة .
وخير من عبر عن هذا الاتجاه المقدسى في كتابه احسن التقاسيم « وهذه صورة
جزيرة العرب . وقد جعلناه اربع كور جليلة واربع نواح نفيسة . والكور :
اولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر . والنواحى : الاحقاف ، الاشجار ،
واليمامة ، وقترح « (٣) . فهو بهذا السديد يقصر الجزيرة العربية على الجزء
الذى لطيف به البحر من الخليج الفارسى الى خليج العقبة والذى يحده من
الشمال خط يمتد من العقبة (ايلة) الى الخليج الفارسى . وهذا التقدير هو
الذى ذكره ابن حوقل على انه ثلاثة انواع ديار العرب ، ولكن المقدسى يقتصر
عليه ليخرج البلاد الشامية من حدود الجزيرة العربية مراعىا في ذلك الاعتبارات
السياسية والتاريخية التى كانت تجعل من الشام اقليما مستقلا . وهو في
تحديده كذلك لم يتقيد بالطام الادارى للدولة . الذى كان يعتبر البحرين
وعمان واليمامة من اعمال العراق ، والذى كان يأخذ به الفقهاء ولكنه غلب
وجهة النظر الجغرافية فادخل هذه الثلاثة في حدود الجزيرة العربية على الرغم
من تبعيتها الادارية للعراق .

وبصور لنا المقدسى جزيرة العرب في صورة طريقة تتم عن ادراك اصيل ،

(١) ابن حوقل صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ١٩ ، الاصطخرى : مسالك
الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

(٣) المقدسى : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٦٨

فيتخيلها صفة مستطيلة تمتد من قعر اليمن الى بادية السماوة وبابها الى بادية السماوة وتظهرها الى عدن ، ووضع في طولها سريران احدهما على امتداد الآخر ويجانب كل سرير فضاءان . « واعلم ان مثل هذه الجزيرة كمثل صفة فيها ادنى طول قد وضع فيها سرير من صدرها الى بابها بينه وبين الحائطين من يمين وشمال فضاء . والسرير قطعان . والسرير الداخل هو نجد اليمن وهي جبال تقع فيها صنعاء وصعدة وجرش ونجران وبلد قحطان . وعدن في الصدر في آخر الجبل لان ثالث الحيطان هو بحر الصين . وهذه السروات عامرة ، بها الاعناب والمزارع . والفضاء الذي عن يمين السرير تهامة . تقع فيه ريسد وبلدانها . والفضاء الذي عن يساره يسمى نجد اليمن تقع فيه الاحقاف ومهرة الى تخوم اليمامة . ومنهم من يدخلها وعمان في هذه الخطة . وهذا السرير مع الفضائين هي اليمن . والسرير المؤخر الى باب الصفة يسمى الحرة ، من تخوم اليمن الى قرح جبال كلها يابسة لا بيت الا مواقع المواشي والعضون والشام . يقع فيه لحرم والعمى ومعدن النقرة وتلك المحاذب . والعصاة اليمين يسمى الحجاب . وطية الحجاز قليلة يقع فيها ينبع والمروة والعميص . والسواحل عمارات ونحيل . والعصاة اليسرى يسمى نجد الحجاز يقع فيه العامه وفيد وما على الحادة من المنازل . ويسمى هذا السرير مع فضائيه الحجاز ويدخل حجر فيه . ويقابل باب الصفة البادية وهذا شيء رأته وقسمه والله اعلم » (١) . فالبادية بادية السماوة والشام والعراق خارج هذه الصفة او خارج الجزيرة العربية ، وهي بابها .

ويتفق هذا الراى مع الروايات التى نقلت لنا عن الاصمعى وابى عبيدة التى تجعل حدود جزيرة العرب من الشمال « اطرار الشام » او « مقطع السماوة » .

« قال الاصمعى جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس من اقصى عدن ابين الى اطرار الشام . هذا هو الطول . والعرض من جدة الى ريف العراق » . وابو عبيدة يذهب الى نفس هذا الحديد غير انه يعتبر الطول عرضا والعرض طولاً وينقل عن الاصمعى قولاً آخر يؤيده فيما ذهب اليه . « قال ابو عبيدة جزيرة العرب ما بين حفر ابى موسى بطواراة من ارض العراق الى اقصى اليمن في الطول . واما في العرض فما بين رمل بيرين الى مقطع السماوة » وينقل عن الاصمعى فيذكر ان طولها من اقصى عدن ابين الى ريف العراق في الطول وان عرضها من جدة وما والاها من ساحل البحر الى اطرار الشام » (٢) .

(١) المقدسى : احسن التقاسيم (ليدن ١٩٠٦) ٩٤/٩٥

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٦

وأما الراى الرابع فيريد ان يجعل احاطه الماء من جميع الجهات هو الاصل الاول فى مفهوم الجزيرة . وعلى هذا الاساس اللغوى فى فهم التسمية « جزيرة العرب » يذهب الى رسم حدودها الجغرافية ، جاعلا من الفرات وخليج فارس وبحر اليمن والبحر الاحمر والنيل وبحر الروم ماء محيطا بجزيرة العرب من جميع جهاتها . وهذا التحديد يخلف عن تحديد الاصطخرى وابن حوقل بان ادخل النيل وبحر الروم فى رسم الحد الغربى للجزيرة العربية .

« عن الزبير بن بكار قال حدثنى محمد بن فضالة : انما سميت جزيرة لاحاطة البحر بها والانهار من اطرافها واطرارها . وذلك ان الفرات اقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ، ثم انحط عن الجزيرة - وهى ما بين الفرات ودجله - وعن سواد العراق حتى دفع فى البحر من ناحية البصرة والابله ، وامتد الى عبادان ، واخذ البحر من ذلك الموضع مغربا مطيعا ببلاد العرب مسطفا عليها فأتى منها على سقوان وكاظمة ، ونعد الى القطيف وهجر واسياف عمان والشحر ، وسال منه عنق الى حضرموت وناحية ابين وعدن ودهلك ، واستطال ذلك العنق فطمن فى تهائم اليمن - بلاد حكم والاشعرين وعك - ومضى الى جدة - ساحل مكة - والى الحار - ساحل المدينة - والى ساحل تيماء وابلة ، حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها . وابل النيل فى غربى هذا العنق من اعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام . ثم اقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين وممر بعسقلان وسواحلها واتى على صور - ساحل الاردن - وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ، ثم بعد الى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التى اقبل منها الفرات محظا على اطراف قنسرين والجزيرة الى سواد العراق » (١) .

فالمشكلة التى يضعها امامنا هذا النص هى اعتباره السيل الحد الغربى للجزيرة العربية « وابل النيل فى غربى هذا العنق من اعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر حتى دفع فى بحر مصر والشام » وما يتبع هذا الاعتبار من ادخال بلاد النوبة والبحة وصحراء مصر الشرقية فى حدود الجزيرة العربية .

قد يكون الدافع لرسم حدود الجزيرة العربية على هذا النحو هو التفسير اللغوى لكلمة جزيرة مع شىء من السداجة ، أو الغفلة عن الحقائق الجغرافية ، أو مع شىء من المهارة فى صنعة التأويل والتخريج ، وان كان ذلك على حساب الحقائق الجغرافية ، ولكن قد يكون هناك بعض الاعتبارات الاخرى التى ادخلها صاحب هذا التحديد فى حسابه ، فلنحسن به الظن شيئا ما .

ان سكان الصحراء الشرقية في المنطقة التي تقع بين اسوان والبحر الاحمر يتصلون اتصالا وثيقا بسكان قلب الجزيرة العربية . وقد ادرك العرب هذه الحقيقة والتفتوا اليها وسجلها الجغرافيون منهم .

قال اليعقوبي في وصفه للطريق من قفط الى البحر الاحمر ووصفه لمناجم الذهب في هذه المنطقة « ومن الخربة (خربة الملت منجم قديم في هذه المنطقة) الى رحم معدن تبر . ثلاث مراحل . ويرحم قوم من بلى وجهينيه وغيرهم من اخلاط الناس يقصدون للسجارات » (١) ويقول في مكان آخر « ومن العلاقى

(واد بين اسوان والبحر الاحمر) الى موضع يقال له وادى الجمل مرحلة ثم الى موضع يقال له عتب ثم الى موضع يقال له كنار يجتمع الناس به لطلب البير وبه قوم من اهل اليمامة وربيعة » (٢) « ومن العلاقى الى موضع يقال له دح ينزله قوم من بنى سليم وغيرهم من مضر عثر مراحل » (٣) .

فهذه النصوص تبين لنا مقدار صلة الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية ونوع هذه الصلة وكيفيتها . فان كان بعض هذه النصوص يفسر وجود قبائل الجزيرة العربية في هذه المنطقة بأسباب تجارية واقتصادية ، اى ان وجودهم بها كان على نطلق ضيق ، فقد نجد نصوصا اخرى تفزو وجود هذه القبائل في هذه المنطقة لأسباب اخرى . فقد كانت وجهة القبائل البدوية في هجراتها من الجزيرة العربية ولذلك فان وجودهم بها لابد وان يكون على نطاق اوسع من ذلك الذي استخلصناه من النصوص السابقة . « واما اليمامة فواد والمدبسية . به تسمى الحضرة . . . وكانت قرارا لربيعة ومضر فلما نزل عليها بنو الاخضر جلت العرب منها الى جزيرة مصر فسكنوا بين النيل وبحر القلزم وقرب ربيعة ومضر هناك وصارت لهم ولتميم الدار التي لم يزالوا بها . وابنوا بها غير متبر كالمحدثه التي بظاهر اسوان وكالعلاقى وهو المنهل يجتاز به الحجيج الى عهذاب » (٤) .

واذا كانت هجرة القبائل العربية الى هذه المنطقة من الصحراء الشرقية ظاهرة غير مطردة حدثت من قبيل المصادفة فلا يجوز لمحمد بن فضالة ان يدخلها في اعتباره . ان كان قد راعى مثل هذه الاعتبارات — فيرى ان هذه البقعة من الصحراء الشرقية امتداد لقلب الجزيرة العربية . ولكن ربما كانت هذه الظاهرة ظاهرة مطردة في العهود البعيدة التي وعنها ذاكرة العرب فكان البحر لا يقف امامهم حائلا يمنعهم من العبور الى عدوته الاخرى والافلحة بها فمبر ابن فضالة عن هذا المعنى فادخل هذه المنطقة في حدود الجزيرة العربية .

(٣) = ٢٢٥

(١) اليعقوبى : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٢٢٣

(٢) اليعقوبى : البلدان (ليدن ١٨٩٢) ٢٢٤

(٤) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٣١

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالاعتبار تكشف لنا عن مقدار تأثير الجزيرة العربية بهذه المنطقة من الصحراء الشرقية وبالمناطق الواقعة الى جنوبها فلادريسي في وصفه لبلاد البجة يقول « ومن بلاد البجة بلد بختية وهي ايضا قرية مسكونة وبها سوق لا يعمل عليها وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معاشهم وهي اكثر مكاسبهم . والى هذه القرية تنسب الجمال البختية وليس يوجد على ظهر الارض جمال احسن منها ولا اصبر على السير ولا اسرع خطى وهي بديار مصر معروفة بذلك . » (١) فالجمال البختية التي يتغنى العربي بفضائلها هي - كما نرى من هذا النص - من نتاج العدو الغربية للبحر الاحمر وليست من نتاج الجزيرة العربية . فمثل هذه الظاهرة كانت جديرة ان تلفت صاحب هذا الراى الى ما كان بين الجزيرة العربية وبين العدو الغربية من البحر الاحمر من صلات ترجع الى عهود بعيدة .

فأمثال هذه الاعتبارات قد دفعت محمد بن فضالة الى أن يضيف هذا الجزء من الصحراء الشرقية الى حدود الجزيرة العربية . ولكن مثل هذا الراى قد يبدو لنا غريبا الآن لان فكرنا عن الحدود السياسية الحديثة تمنعنا من أن نصوره . ولكن يجب ان نذكر ان فكرة الحدود السياسية في الازمنة القديمة لم تكن لتسمع من ذلك . والبدو من شأنهم ان يتقدموا بحدودهم في الاقاليم الحضرية التي تحيط بهم الى اقصى ما يستطيعون والى ان توقفهم قوة الحضر . ومما يحسن ذكره ان حاميه الحدود الشرقية التي كان عليها ان تدود البدو عن ارض الحضر في مصر كانت في بعض عصورها عند مدينة أسوان (٢) .

(١) الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، مخطوط - صور شمسية بمكتبة جامعة الاسكندرية تحت رقم ١٩٤ (٢٦)

(٢) يقول ذلك جورجى زيدان عن استرانون وبلين « العرب قبل الاسلام ١٩٢٩ - ١٦٢ . وحتى في العصور الحديثة فان دى بوا - ايميه يصور لنا صورة مما بقى من صور هذه الصلات القوية بين بلاد العرب وصحراء مصر الشرقية ففي مقالة له عن القصير يذكر ان المدينة لا يسكنها الا التجار الذين يقبلون من بلاد العرب ومصر ، وان المدينة ليس لها سكان اصليون . وان المشايخ بها والادارة هم تجار من ينبع تعهدوا بأن يقدموا الى الحكومة المصرية حصصا مما يجيونه على المهاجر Du Bois-Aymé : Sur la ville de Q'oceyr. (Description de l'Egypte 2ème ed. vol. XI, 385.)

تقسيم الجغرافيين للجزيرة العربية :

والاسس التى اعتمد عليها الجغرافيون فى تقسيمهم للجزيرة العربية
اساسا :

اما الاساس الاول فيتحد من اقليم الحجاز وجباله محورا لهذا التقسيم .
ولعل اللغة العربية قد شاركت فى جعل هذا الاساس المتوارث اثر رسوخا فى
الاذهان من غيره ، فذهب اليه اكثر الجغرافيين .

فالحجاز معناه الفاصل او الحاجز حجز بين اقسام الجزيرة وفصل بينها
واكد هذا الفصل والتقسيم . « قال الحليل سمي حجازا لانه فصل بين العور
وبين الشام ، وبين تهامة ونجد ١١ . وقال الربيع بن يكار سألت سليمان بن
عياش السعدي لم سمي الحجاز حجازا فقال لانه حذر بين تهامة ونجد ١٢ ،
قال ابن الكلبي الحجاز ما يحجز بين تهامة والعروض وبينما بين اليمن ونجد ١٣ ،
فالحجاز هو الذى يفصل بين الشام وبين العور ، ويفصل بين تهامة والعروض
وبين اليمن ونجد فهو الذى فصل بين هذه الاقسام جميعا وحدد لكل قسم
منها حيزه الخاص .

والبكري يعرض لخط التقسيم هذا الذى طهر فى ثوب لغوى فيحاول ان
يصوغه فى اسلوب جغرافى فيقول « وجبل السراة هو الحد بين تهامة ونجد
وذلك انه اقبل من فعره اليمن - وهو اعظم جبال العرب - حتى بلغ اطراف
بوادي الشام ، فسمته العرب حجازا . وقطعته الاودية حتى انتهى الى ناحية
نخلة ، فمنه خيطى ويسوم - وهما جلان ينحله - ثم طلعت الجبال بعد منه
فكان منه الابيض - جبل العرح - وقدس وآرة ، والاشعر والاجر - وهما
جبلان لجهينة ... وطول السراة ما بين ذات عرق الى حد نجران اليمن -
وبيت المقدس فى غربى طولها - وعرضها ما بين البحر الى الشرف .

فصار ما خلف هذا الجبل فى غربيه الى اساف البحر - من بلاد الاشعر بن
وعك وكثانة - الى ذات عرق والجحفة وما والاها وصاقها وعار من أرضها :
العور ، غور تهامة . وتهامة تجمع ذلك كله . وعور الشام لاندخل فى ذلك .
وصار مادون ذلك فى شرقيه من الصحارى الى اطراف العراق والسماء وما يليها
نجدا . ونجد تجمع ذلك كله . واعراض نجد هى بيسه ، وترح ، وتساله .

(١) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

(٢) - ١١ (٣) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ -

والبكري يورد نفس النص غير انه يضع لفظ اليمامة بدل تهامة (معجم
ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ ، غير ان نص ابن الفقيه أوضح .

والمراغة، ورنية. وصار الجبل نفسه سرائته - وهو الحجار - وما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحار الى ناحية فيد والجبلين الى المدينة (١) ، ومن بلاد مذبح : تثليث - وما دونها الى ناحية فيد - فذلك كله حجاز . وصارت بلاد اليمامة والبحرين وما والاها : العروض - وفيها نجد وغور ، لقربها من البحر وانخفاض مواضع منها ومسائل اودية فيها - والعروض يجمع ذلك كله . وصار ما خلف تثليث وما قاربها الى صنعاء ، وما والاها من البلاد الى حضرموت والشحر وعمان ومايينها : اليمن - وفيها التهام والنجود - واليمن يجمع ذلك كله (٢) .

والمقدسى يتأثر كذلك بهذا التقسيم الذى تحمله التسمية اللغوية لاعلام الحرية بياخذه ، وبصوغه فى اسلوب جغرافى ، ويتخذ منه اساسا لتقسيمه مخالفا فى ذلك اعلام هذا الفن الذين سبقوه ومعلنا مخالفتهم له فى ذلك . فابوريد البلخى الذى يعتبر امام هذا الفن قد جعل الجزيرة العربية اقليما واحدا ، وهو لم يلتفت الى ما البت اليه المقدسى من ان جبال الحجاز تقسم الجزيرة قسمة طولية الى اقليمين متميزين ، وان اقليم الحجاز - الذى يختلف فى طبيعته عن اليمن - يقسم هذه الجزيرة - بتمايزه هذا - قسمة عرضية كذلك ، فيكون الحجاز هو القسم الشمالى وتكون بلاد اليمن هى القسم الجنوبى . ولذلك تنقسم الجزيرة العربية الى اربعة اقسام .

والمقدسى لا يعونه ان يدخل الاعتبارات الدينية والفقهية فى احتجاجاته . هذه الاعتبارات التى حرص على مراعاتها فى تحديد رقعة بلاد العرب وفى رسم اقسامها . « واليمن الجيلة والحجاز . فان قال قائل لم جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبيين قيل له اما اليمن فالنبي صلى الله عليه وسلم جعلها حيث فرق موافيقها فى الاحرام (٣) . واما خراسان فان ابا ريد جعلها اقليمين وهو امام هذا العلم بحاصنه فى اقليمه فلا عيب علينا ان جعلناها جانبين » (٤) .

ومثل الصفة التى يضربه ليصور به صورة جزيرة العرب بوضوح لنا كيف

(١) لعل كلمة (جلس) او ماشابها قد سقطت من هذا المكان . فالمعنى لا يستقيم الا بمثل ذلك .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١/٨ .

(٣) لاهل اليمن ميقانان تبعا لاختلاف الطريق التى يأتون منها فمن اتى من صنعاء عن طريق نجد فميقاته مع اهل نجد قرن المنازل . ومن اتى من طريق الساحل (طريق ريد) فميقاته يللم . فالطريق الاول هو الطريق الشرقى والاخر الغربى ويفصل بينهما جبل السراة .

(٤) المقدسى : احسن التقاسيم (لندن ١٩٠٦) ٦٨/٦٧ .

طبق الطريقة التى ذهب اليها فى تقسيم بلاد العرب . فهو قد اعتبر السريـر الاول الجنوبى جبال اليمن الذى تقع فيه صماء وصعدة وجرش ونجران وارض قحطان . والفضاء الذى يقع الى جانبه من ناحية البحر هو تهامة . والفضاء الذى يقع فى جانبه من الناحية المقابلة هو الاحقاف ومهرة حتى تخوم اليمن . ثم ينسب الى ان من الجغرافيين من يدخل اليمامة وعمان فى هذه المجموعة . واما السريـر الثانى الواقع الى الشمال من السريـر الاول فهو يختلف عنه من ناحية الخصب فالاول ارضه عامرة بالاعناب والمارع والثانى جبال كلها يابسة لا تنبت الا مواقع المواشى والعضور والشمم . والسريـر الثانى هذا هو الحرة وهى تمتد من تخوم اليمن الى قرح اى انها تقع شمال الاقليم الاول ويقع فى هذه الحرة مكة والعمق ومعدن القرة وتلك المجادب . والفضاء الذى يقع فى الجانب المقابل اى فى الناحية الاخرى هو نجد الحجاز يقع فيه اليمامة وفيد ويدخل فيه هجر . والسريـر الاول مع فضائيه هو اليمن . والسريـر الثانى مع فضائيه هو الحجاز (١) .

فهو يقسم بلاد العرب الى يمن وحجاز ثم يقسم كل واحد منهما الى جانب شرقى وجانب غربى واقليم مرتفع فى الوسط هو فى القسم الجنوبى جبال السراة ، وفى القسم الشمالى حرة الحجار . واليمامة ود تعتبر من اقليم اليمن الذى يمتد حتى عمان ، وقد تعتبر من اقليم الحجار الذى يمتد حتى هجر .

فجبال السراة وحرة الحجار هى المحور الذى يقسم بلاد العرب طولاً . وجبال الحجار القاحلة التى تحلف عن جبال اليمن والتى يتسع عرضها حتى يشمل اليمامة ونجدا تكون - بمرصها الممتد من الغرب الى الشرق - المحور الذى يقسم بلاد العرب عرضاً فيقع فى شماله هجر واليمامة ونجد والجليل ويقع فى جنوبه عمان والعروض والاحقاف والشحر واليمن . والحجاز نفسه الذى يفصل بين القسمين يقع فى وسط المجموعة الاولى . وعلى ضوء هذه الحقيقة - وهى ان جبال الحجار تقسم الجزيرة العربية طولاً وعرضاً - نستطيع ان نفهم النصوص السابعة التى اتخذت من الحجاز اساساً للفصل بين جميع اقسام الجزيرة العربية .

واما الاساس الثانى فيدع جانباً قلب الجزيرة وما تحويه من جبال وينتخذ ساحل البحر قاعدة لتقسيم الجزيرة . وابن حوقل والاصطخرى يأخذان بهذا الاساس وهما خير من عبر عنه . وهما يقسمان الجزيرة على اساس خطوط عرضية تخترق الجزيرة من غربها الى شرقها وتكاد تكون متوازية تقريباً . فهى تقسم الجزيرة الى مناطق مستعرضة يتلو بعضها بعضاً .

(١) سبق ان اوردنا نص المقدسى الذى يمثل فيه صورة جزيرة العرب .

وقاعدة هذه الخطوط ترتكز الى نقط على ساحل البحر . وأول هذه الخطوط هو الخط الذى يمتد من السرين على البحر الاحمر ، وهى ميناء قديمة تقع جسوب جنده بين الليث وامعقدة ، وسجته نحو الشمال الشرقى الى يلملم ثم شرقا الى الطائف ومنها الى الخليج الفارسى . والخط الثانى يبدأ من مدين (على البحر الاحمر) وهى واحه البدع الان وهى قريبة من الطرف الجنوبي الشرقى لخليج العقبة ، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقى الى الحجر ، ثم يشرق بعد ذلك الى جبل طى . ومنهما الى اليمامة ، ثم الى الخليج الفارسى . والخط الثالث يقع شمال الخط الثانى ويحصر بينه وبين الخط الثانى منطقة تمتد من اليمامة شرقا والمدينة غربا ومنقدم شمالا حتى تستغرق حدودها الشرقية بقية سواحل البحر . والخط الرابع يمتد من بالس غربا الى الانبار شرقا . ويصل بهذا الخط خطان رئيسيان احدهما من عبادان الى الانبار ويكون ضلع مسطيل سجه مساحته الى العرب حتى يلاقى مساحة المستطيل الاخر الذى يمتد من الغرب الى الشرق وتكون قاعدته من الخط الثانى الذى يصل بين بالس وابيلة .

فالاقليم الذى يقع حبوب الخط الاول هو اليمن . والاقليم الذى يقع الى شماله هو الحجاز . والاقليم الذى يقع بين الثانى والثالث هو نجد . والاقليم الذى يقع شمال الخط الرابع هو بادية الحررة . والاقليم الذى يقع غرب الخط الاول المتصل به هو بادية العراق . والاقليم الذى يقع شرق الخط الثانى المتصل بالخط الرابع هو بادية الشام .

« فما كان من حد السرين حتى ينهى على ناحيته يلملم ثم على ظهر الطائف ممتدا على نجد اليمن الى بحر فارس مشرقا فمن اليمن ويكون ذلك نحو الثلثين من ديار العرب . وما كان من حد السرين على بحر فارس الى قرب مدين راجعا الى الشرق على الحجر الى جبل طىء ممتدا على طهر اليمامة الى بحر فارس فمن الحجاز ، وما كان من اليمامة الى قرب المدينة راجعا على بادية البصرة حتى يمد على البحرين فمن نجد . وما كان من حد عبادان الى الانبار مواجها لنجد على ديار اسد وطفى ونعيم وسائر قبائل مضر فمن بادية العراق وما كان من حد الانبار الى بالس مواجها لبادية الشام على ارض تيماء وبرية خفاف الى قرب وادى القرى والبحر فمن بادية الجزيرة . وما كان من بالس الى ابله مواجها للحجاز على بحر فارس الى ناحيته مدين معارضا لارض تنوك حتى يتصل بديار طىء فمن بادية الشام . على ان من العلماء

بتقسيم هذه الديار من زعم ان المدينة من نجد لقربها منها وان مكة من تهامة اليمن لقربها منها « (١) » .

وفي هذا التقسيم اتحد ابن حوقل والاصطخري الساحل اساسا لتقسيمهما اذ كان كل نظام الملاحة هو الذي يميز المناطق الساحلية بعضها عن بعض وبالتالي فهو يميز المناطق الداخلية كذلك . فنظام الملاحة في جنوب البحر الاحمر حتى السرس او حدة يختلف عن نظامها في شماله لاختلاف نظام الرياح . ونظام الملاحة في خليج العقبة يختلف عن نظامها في قسيمي البحر الاحمر فكانت السرس ومدین نقطتين فاصلتين بين نظم الملاحة في البحر الاحمر ففصلت كذلك بين المناطق الداخلية في الجزيرة (٢) :

ولبحاول الآن ان يبين المنطقة الداخلية التي اعبر حدودها اساسا يعترف به في تقسيم الجزيرة العربية وتميز اقسامها .

الحجاز :

قوله العماء من كلمة « الحجار » معنى « الحجر » فهو حجر بين بهيمة والعروض وفيما بين اليمن ويحد كما هو من الذي ١٢ ، او بحر فيما بين نجد والسراد كما هو ان دريد ١٣ ، او بحر فيما بين القور وبين اسبم وفيما بين بهية وحد كما هو في الحجل ١٤ . عمر ان العنق له عه من مدائن البهيمه معنى الحجر بل فهم منها شئنا آخر وهو الاحجار بمعنى شدة اللون ١٥ ، احجره او باحجار . والحبل وكل ما تشد به وسطك لسمير سالك

١ ابن حوقل : صورة الارض ، السدس ١٩٢٨ ، ٢٠/٢١ - الاصطخري مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٥/١٤ .

٢ وبعض الجغرافيين من العرب مثل الادريسي وقد اوسع نظرية الاقاليم السبعة في وصف الجزيرة العربية فوقعت في الجزء الخامس من الاقاليم الاول وفي الجزئين الخامس والسادس من الاقلمس الثاني والثالث . ولما كانت مثل هذه الطريقة لا تعرض لجزيرة العرب عرضا حاصلا باعتبارها اقلما مستعلا فلم نشر الى هذا الموضع في تقسيمها اذ هو جزء من النظرية العامة في تقسيم العالم المعمور .

٣ ابن الفقيه : محضر البندان (ليدن ١٨٨٥) ٢٧ ، البكري : معجم

ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠١

(٤) = ١١

(٥) = ١٢

حجاز (١) . ولى هذا ذهب بعض من روى عنهم البكرى فقال « سمنى حجازا لانه احتحر بالجال . يقال احتجرب المرة اذا شددت ثيابها على وسطها . وأبررت عجيرتها وهى الحجرة » (٢) . وإلى هذا المعنى ذهب ابن السكيت فى نقله عن الأصمعى فيقول « ما ارفع من بطن الرمة فهو نجد الى سايا ذات عرف . وما احرم به الحرار : حرة شوران وحرة ليلى وحرة واقم وحرة النار وعامة سارل بن سليم الى المدنة » فما حجاز ذلك الشق حجاز كله (٣) . وصاحب المحيط يستعمل اصلا كلمة احتجرب بدلا من احتزمت فيقول « لانها احتجرب بالحرار الخمس حرة بن سليم وواقم وليلى وشوران والنار » فهذه الحرات هى سلسلة تتابع من الجنوب الى الشمال ويكون متوسط اتساعها مسيرة ليلتين سريعتين أو ثلاث (٤) .

فلذا الحجاز ود احرم والجبل أو بالحرار فسميت حجازا . او قد حجرب جبالها وحرارها بين نجد والسراد أو بين نجد واليمن أو بين نجد ونهامة أو بين الشام والفر فسميت لذلك حجازا .

والحجاز حجازان : الحجاز الاسود . وحجاز المدينة (٥) . اما الحجاز الاسود فهو سراد يعيق أو السراد لثاله . تبدأ بعد انتهاء السرايين الجنوبيين سراد الإردى فعز الحرس . وسراد فهم وعدوان فيما بينهما (٦) . فاذا انتهت هذه السراة السابعة عند حل شئت بدأت لسراد الثالثة واستمرت حتى انقاف . وعند ذلك يسد الحجاز الباقى حجاز المدينة . وهو سلسلة من الحرات تتابع من الجنوب الى الشمال حتى منطقة تولك . ولكن فى منتصف المسافة بين مكة والمدنة او مايقرب من ذلك عند نقطه يقال لها العرنج عرس (٧) . طبع ذلك الحجاز الثانى نهايته أيضا وبانتهائه تنهى الحجازان « طول الحجاز من حد العرنج الى السراد » (٨) . واد قد انتهى لحجازان بيذا قسم ثالث من اقليم الحجاز وان كان يحد تسمية مخالفه فيعرف بالجلس

(١) القاموس المحيط .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١

(٣) = ١٤

{ هذا التقدير هو تقدير النضر بن شميل (ياقوت : معجم البلدان - مادة « حرة ») .

(٥) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢ .

(٦) ابن الفقيه : مختصر البلدان (لندن ١٨٨٥) ٣١ .

(٧) = ٢٧ .

وبدا عند عقبة العرّاح ووجهه الى الشمال حتى اقليم الحجاب وتبوك .
والقسم الساحلي منه تحفه جبال هي امداد الجبال الشمالية المعروفة
بالسراة والحسمة والمصلد بجبال الشام « والعرّاح أيضا عقبة بين مكة والمدينة
على حادة الحجاج تذكر مع لهجات عن الحارمي - وحلها متصل بجبل
لبنان (١) .

فالحجاز هو الحجاز الاسود ، وهو الجزء الشمالي من سلسلة جبال
السراة ، بدأ من جبل تثلث في الجنوب وامتد الى الطائف في الشمال ، ثم
حجاز المدينة وهو سلسلة من الحرات ويحمل اسم الحجاز حتى عقبة العرّاح ،
ثم الاقليم الثالث وهو بقية اقليم الحرات الذي يحمل اسم الجلس ، ثم الجنب
ويمتد حتى تبوك او معان شمالا .

حد الحجاز الجنوبي :

يتكون الحجاز الجنوبي من ثلاث مناطق متجاورة تمتد من الشمال الى
الجنوب في موازاة الساحل ، ومع عند بهانه كل واحدة منها خط الحدود
الذي يفصل بين الحجاز واليمن من قبلها . وهذه المناطق الثلاث هي : المنطقة
التحديدية الداخلية - جبال السراة الوسطية - نهامة او منطقة الساحل
الخارجية .

وحظ الحدود في المنطقة التحديدية المحدودة بين سلسلة جبال السراة
وبين رمله حرين ، الربع الخالي ، يحدده لما اكر الحصار بين عدد بلدة غس
لها « الهجرية » او « المهجرة » عند شجرة تسمى « طلحة الملك » . ثم الى
سروم راح « مسارن انطرق من مكة الى صنعاء » قرية عظيمة فيها عيون وكروم .
وجرش منها على ناهه اميال . ثم الى المهجرة - قرية عظيمة فيها عيون .
وفيما بين سروم راح والمهجرة طلحة الملك شجرة عظيمة سمى العرب غير انها
اعظم منه وهي الحد بين عمل مكة وعمل اليمن « ٢ » . والبص الذي يعمل
عن فدانه والذي سقى مع نص ابن خرداذبه هذا صنف « وكان النبي صلى
الله عليه وسلم حجر بها بين اليمن ومكة » ٣ » والادري في مسارن الطريق
بين مكة وصنعاء يذكر هذا الحد كذلك مع وضعه طلحة الملك في قرية المهجرة
بفسها . « ومن سروم الى المهجرة وهي قرية عظيمة فيها عيون وبها شر
بعينه اعمر غمر » الماء « وبهذه القرية شجرة عظيمة تسمى « طلحة الملك »

(١) ياقوت : معجم البلدان - مادة « العرّاح » .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥ .

(٣) قدامة : الخراج (ليدن ١٨٨٩) ١٨٩ .

تشبه شجر الخلاف غير أنها اعظم منها وهى حد ما بين عمل مكة واليمن (١) والكبرى فى وصفه حدود اليمن يقول « وحدها الثالث طلحة الملك الى شروم . وشروم من عمل مكة » (٢) فهو يذكر شروم بدلا من شروم راجع وقامه كتبها كذلك شروم راج .

ونستطيع ان نستخلص السبب الذى من اجله صارت طلحة الملك هذه الحد بين الحجاز واليمن من نص لابن خردادبة « فمن صنعاء الى حيوان اربعة وعشرون فرسخا ، ومن حيوان الى صنعاء ستة عشر فرسخا . ومن صنعاء الى المهجرة . وهى تحت عقبة المضج عند طلحة الملك التى هى اول عمل اليمن عشرون فرسخا . فبين المهجرة وصنعاء سبعون فرسخا » (٣) والمهجرة وطلحة الملك تحت « عقبة المضج » الاسم من اليمن وهما دون هذه العقبة لعادم من مكة بعدد يدو اسم . فعقبة المضج هذه هى الحد بين الحجاز واليمن . والذى اتيح له ان يبعد عقبة من عقبات البادية يستطيع ان يدرك بما كلف تكون العقبة فاصلا بين اقليم وآخر .

وسط الحدود هذا الذى مع اسفل عقبة المضج ويعبر بالمهجرة او طامعه الملك سخن من مجموعة من السلاسل بعضها فى غرب طلحة الملك وبعضها الى الشرق منها . ويصح لنا ذلك من وصف الهمداني لمحجة صنعاء عن طريق نجد والقادم من صنعاء الى نجد قبل تمام خمسة عشر يوما او بعد ان يكون قد قطع ١٨٠ ميلا الى بلدة كنهه وهى اول حد الحجاز . ونقع على خط عرض واحد مع حرش الى تقع فى غربها على مسافة ثل من يوم . ومع الهجرة وثلاث التل تغصان الى الشرق من كنهه على مسيرة يوم كذلك . وخط العرض الذى تقع عليه كنهه كما ذكره الهمداني ١٤ هو ١٠٦ ١٧ . والمهجرة التى يذكرها الهمداني هى المهجرة التى ذكرها النصوص الاخرى . غير ان لعقبة « المهجرة » هو الاصح فيما يظهر . والراجح ان ابن خردادبة وقدامه والادرسى قد خلطوا بين « المهجرة » هذه التى هى نقطة الحدود وبين « المهجرة » التى تقع جنوبها فى ارض اليمن بمقدار ٧٢ ميلا بفرسا . كما خلطوا بين شروم راج التى هى على الحدود وبين شروم لفيض التى تقع الى الجنوب بمقدار ٥٠ ميلا . كما يصح ذلك من مقارنة منازل الطريق بين صنعاء ومكة عند هؤلاء وعند الهمداني .

(١) الادرسى : نزهة المشاق (مخطوط) الاقليم الثانى الجزء الخامس .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٦ .

(٣) ابن خردادبة : المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩) ١٣٥ .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب (ليدن ١٨٨٤) ٧/١٨٦ .

ونثيث هذه التي تقع على خط الحدود السابق وأعلىها كانت أبعد نقطة فيه إلى جهة الشرق قد سمي باسمها الجزء الجنوبي من نجد الحجاز ، كما سمي الجبل الذي يقع خلفها والذي نحدّه في الحرائط الحديثة باسم جبل نثيث . والبكري يحد نثيث هذه منطقة الحدود في بعض تحديداته . « ر - ر » - ناحيف شبت وما قاربها إلى صنعاء وما والإها من السلال إلى حصرموت والشجر وعمان وما بينهما اليمن - وفيها الهام وانحدود - واليمن يجمع ذلك كله » (١) .

ولكى نستطيع أن ندرك موقع هذا الحد من مكة الى هـى أنور بمطه في
الحجار نذكر منازل الطريق بين هذا الحد وبينها : من كـمه الى حـم ٢٠
ميلا - ثم الى بنات حرب ٢٠ ميلا - ثم الى الخسداء ٢٢ ميلا - ثم الى
بيشة نـعـطـار ٢١ ميلا - ثم الى سالة ١١ ميلا - ثم الى المـريـحـا ٢٢ ميلا -
ثم الى كرى ١٦ ميلا - ثم الى تربة ١٥ ميلا - ثم الى القـصـر ٢٢ ميلا -
ثم الى الفتق ٢٣ ميلا . والقوس هذه على خط عرس واحد مع الطائف
ومكة . والطائف ومكة تقعان الى الغرب منها . اما الطريق فليس هنالك طريق
ينحدر منها الى مكة ولكن يسير الطريق شمالا الى رأس المساق الى تبعد عن
الفتق ٢٢ ميلا . ثم يعود فيحدر الى الجنوب والغرب حتى قرن المسار
فمكة (٢) .

وخط الحدود في مملكة تهامة الساحلية بصفة الجغرافيون عند حسن الترتيب الواقع على ساحل البحر ثم يمتد هذا الخط الى الشرق حتى ينهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممدا على بعد اليمن « وما كان من حد الترتيب حتى ينهي على ناحية يلملم ثم على ظهر الطائف ممدا على بعد اليمن الى بحر فارس مشرقا ومن اليمن . ويكون ذلك نحو الثلاثين من ديار العرب . وما كان من حد الترتيب على بحر فارس الى قرب مدين راحبا في المشرق على البحر الى حالي طيء ممدا على ظهر السماء الى بحر فارس فمن الحجار « ٢٠ . وبحر فارس هسا سمل الحصح الفارسي وبحر اليمن والبحر الاحمر .

(١) البكري: معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

(٢) هذا التقدير هو تقدير الهمداني وقد رجحناه على غيره .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض ليدن ١٩٣٨ ، ١٩٠ - الاصطحرى : مالك

المالك (لندن ١٩٢٧) ١٤ ،

وهذا الحد يقع الى الشمال كثيرا من الحد السابق فهو اذا ارتفع الى الجبل فانما يرتفع الى ظهر الطائف اى فى الجزء الشمالى من سراة ثقيف . والسبب فى اتحاد هذا الخط حدا بين الحجاز واليمن من هذه الناحية يرجع الى اعتبارين .

فطبيعة السرى من بحرها فمطلة عسكرة وسخرة بحكم فى الطريق السرى وفى طريق انقل البحرى بين اليمن والحجاز . وتصف ذلك الادريسي بقول « والسرى من حصن حصين حسن موضعه كثيرة مياهه واولاه وحايه شىء معلوم ورسم مرسوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالحجاز والمناخ والرقى . وجانبه المحصلة تصل نصفها الى صاحب نهامة ونصفها الباقى الى صاحب مكة الهاشمى » ١١ . وبمقارنه وصف هذا المساء بوصف المواالى الاخرى التى تقع فى نفس الساحل مثل حلى وضنكان والسقية تحدها هى الحصن الحصين والميناء الامين فيما بين نهامة واليمن .

وهذا الحصن مع حلف جبل يللم الذى عروس الطريق الساحلى الواصل بين الشمال والجنوب بهذا الجبل الذى يمتد من الشرق الى الغرب شمال السرىين يحول دون سيطرة الحجاز على هذا الحصن .

والحر الاحمر من حيث الملاحة والرياح تنقسم الى منطقتين احدهما شماله والاخرى جنوبه . فعدل بين المنطقتين خط عرض حده . فاستحدث السرى من ناحية الملاحة يتصل بالمواالى الجنوبية فى نظامها ويختلف عن المواالى الشمالية التى هى معظم مواالى الحجاز .

فخط الحدود مد من « السرىين » حتى ينتهى على ناحية لملم ثم على ظهر الطائف . ومعنى ذلك انه سح من السرىين نحو الشمال الشرقى . والذي دعا الى مدده هذا هو جبل لملم الذى يمتد من الشرق الى الغرب والذي يتصل بسراة ثقيف .

وخط الحدود فى منطقة جبل السراة . وهى المنطقة الوسطى التى تقع بين المنطقتين السابقتين . حلف تماما لاختلاف موقعه فى هاتين المنطقتين . فالحد الاول الذى يحده الهجيرة يعطه امتداده يمتد منها غربا على جبال السراة فصعد الجبل عند عمن ثم يميل الى الشمال قليلا ويهبط الى سطح البحر عند مساء حمضة التى تقع الى جنوب حلى وبالقرب من جنوب السرىين . وهذا هو تحديد الهمداني الذى يعله عنه باقوب « فالى حدود الهجيرة وتثلث وكنهه وجرش ومحدرا فى السراة الى شعف عسر - وشعف الحد اعلاه - الى نهامة الى ام ححدم الى البحر الى جبل يقال له كرملى بالقرب من حمضة

١١) الادريسي : نزهة المسافر (مخطوط) الاقليم الثانى الجزء الخامس .

— وذلك حد ما بين كنانة واليمن من بطن بهامة « ١ » . والحد الثاني الذي يتجه من البحرين شمالا يندخل السراة العامة سداً شديداً في حدود اليمن . ثم يمضي بهذه الحدود شرقاً فيدخل فيها البحرين وهجر ١ ، وقبل هجر قصبة البحرين وقد عثها قوم من اليمن « (٢) » .

حد الحجاز الشمالي :

بدأت قبل الآن بعض المحاولات الحديثة لتحديد الحد الفاصل بين شمال الحجاز وحبوب الشام وكانت النصوص العربية القديمة عنصراً أساسياً في هذا التخطيط :

وأول هذه المحاولات محاولة لامانس واسمى فيها إلى وضع الحدود بين سوريا والحجاز في المنطقة الواقعة قريباً من واحة العلا في جنوبها ٢ . وهذه الفكرة يراها صاحب المحاولة الثانية — وهو Alois Musil ٣ — فكرة لامة لمن ينظر إليها نظراً سطحية ولكنها إذا بحثت على ضوء التفاصيل وجدت غير صحيحة من وجهة النظر العامة . فصاحبها لم يمرر من الحدود السياسية والحدود الجغرافية — كما أنه لم يمرر النصوص اللاتينية واليونانية أي اهتمام وكما أنه لم يشرح النصوص العربية — بل ذهب موريل بعد ذلك إلى وضع الحدود الشمالية للحجاز عند السفح الجنوبي لجبال السراة . حيث وضع بطليموس الحد الشمالي لبلاد العرب السعيدة . ويرى موريل بعد ذلك أن النصوص العربية رغم ما فيها من اختلافات — سبب عن غير الحدود السياسية في بعض النصوص — فإنها يستخلص منها جميعاً أن الحد الجغرافي للحجاز من ناحية الشمال هو المحدر الجنوبي لسفح جبل السراة كما حدده بطليموس قبل ذلك .

وسدو لي أنه قد كان للحجاز أكثر من حد واحد أو بمساره أخرى أن حدود الحجاز كانت ثلاث نقاط ، تقع كل واحدة منها على رأس شعب من الشعب الثلاث التي تصل بين الحجاز والشام . وأولى هذه الشعب تمتد على ساحل البحر وهي الشعب العربية ، والثانية تسير في المنخفض الرئيسي بين المدينة والعلا إلى تبوك ومعان — هذا المنخفض الذي كانت تسير فيه سكة

(١) ياقوت : معجم البلدان — مادة « يمن »

(٢) = مادة « البحرين » .

(٣) H. Lamons : *L'ancienne frontière entre la Syrie et le Hijaz* (3) (B.I.F.A.B. vol. XV, 69 ff).

(٤) The Northern Hegaz (New York 1926) 257

حدود الحجاز - وهذه الشعبة هي الشعبة الوسطى ، والشعبة الثالثة تسمى مع الطريق الوصل بين سلسلة الواحات التي تكونها خيسر وفدك الى تيماء ثم دومة الجندل وهذه الشعبة هي الشعبة الشرقية .

فحدود الحجاز كانت تنتهى في الشعبة الغربية الساحلية الى مدينة مدين التي توجد بقاناها الآن تحت اسم واحة البدع ، وهي اقصى ما اتصله في الشمال من ناحية الساحل ثم تميل بعد ذلك الى الجنوب والجنوب الشرقى مع طريق الحاج المصرى حتى شغب وبدا والسقييا الى ان تصل الحجز ثم وادى القرى . وابن حوقل والاصطخرى اللذان يتخذان ساحل البحر اساسا لفصيل اقسام الجزر العربية يؤكدان لنا ذلك في وضوح « وما كان على حد السرى على بحر فارس يطلق على البحر الاحمر وبحر اليمن والخليج الفارسى بحر فارس الى قرب مدين راحما في المشرق على الحجر الى جبل طىء مميدا على ظهر اليمامة الى بحر فارس ومن الحجاز « ١١ فالطريق الواصل من مدين الى الحجر اسفل الحبال والذي يكون الحد الشمالى للساحل للحجاز يمر بسبع وبدا وهذا سرح لنا من الكرى الذي يحدد به الحد الشمالى للحجاز « وحد الحجاز الاول بطن نخل واعلى رمة وظهر حرة ليلى والثانى مما يلى الشام شغب وبدا . والثالث مما يلى تهامة بدر والسقييا ورهاط وعكاظ والرابع مما يلى ساية ووثنان « (٢) .

وطريق الحاج المصرى يفصل لنا هذا الخط اكثر من ذلك . فمنارل المحجة يمر بالنقط الرئيسة في هذا الحد وهي كما يذكرها ابن رسة وابن خرداذبه وقدامه تتكون من المراحل الاتية : مدين - الاغراء - منزل - الكلابية - شغب - بدا - السرحتين - لىضاء - وادى القرى . واليعقوبى الذى يذكر منارل هذا الطريق سىء من الاختصار فد حفظ لنا - من حسن الخط - اسم هذا المنزل المجهول لدى اسحاب السديد الاول . فهو يقول من مدين الى منزل يعال له اغراء ثم الى قالس ثم شغب ثم بدا ثم السقييا . فهذا المنزل المجهول هو قالس . والىضاء هذه المدورة قبل وادى القرى هي احدى منازل الحجر .

واما في الشعبة الوسطى فان حدود الحجاز تمتد الى الشمال بعد النقطة التي تقع على محاذاة « مدين » فبوك تقع على محاذاة مدين « ومدين على بحر الفارم محاذية لتوك على نحو ست مراحل « (٢) . والحدود بين الحجاز

١١. ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٢٨) ١٩ - الاصطخرى : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧) ٢٤ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١١ .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٢٨) ٣٢ .

والشام تقع الى الشمال منها . فان حوئل نفسه - والاصطخري كذلك - حين يذكر أن تبوك يقولان (وتبوك بين الحجر وبين أول الشام على أربع مراحل في نحو نصف طريق الشام وهي حصن « ١١ » . تبوك بينها وبين أول الشام أربع مراحل . فإذا كانت في محاذة مدن وحدود الحجر تمر أدنى في الشعبة الوسطى - الى الشمال - مقدار أربع مراحل سمى حد يقطع في حدود السبعة لغربيه . واسمعون حيرة في اعتبار حدود الشام فيما وراء تبوك واسمار تبوك من الحجر « وحد الشام ما وراء تبوك وتبوك من الحجر » (٢) .

والطرف النهائي لهذه السبعة لم تحدده المصادر العربية هاما وذلك لان الطريق فيما بعد تبوك الى الشام يكاد يكون قفرا وكذا يكون مساره غير واضحة عند الجغرافيين . فهم يدركون مسار هذا الطريق الذي - بكماله - السامي على النحو الآتي : دمشق - مسرة - مسرة - ذاب المسرة - مسرة - تبوك . وسرع هدد يذكر في تاريخ الفوج الإسلامية المذكور أن « عبدة سار بجيش المسلمين الى مسرة ومن هناك سار الى الشام » . وكذا - مسرة - هذه كانت في حدود العرب .

وأتى ان النهاية الشمالية لحدود من هذه الناحية كانت الى الشمال مثلا ولكن الى الشمال الغربي فقد كانت تنهى في اغلب الاحيان الى واحه ممان .

وأما في السعة السرفيه فقد كانت حدود الحجر تقدم نحو الشام مسيره ثلاثة ايام من واحه بيماء . هذه الواحه التي تقع على الطرف العربي لصحراء البقود المسمى عند العرب برمل الهير و برمل صالح . « وسماء حصن عامر نبيه اربيه وهو أعمر من تبوك وسهما أربع مراحل . وبين بيماء وأول الشام ثلاثة ايام . وسماء مياه وبحل وميه بشار البادية ٢ . وإذا أردنا ان نعين المنطقة التي تنهى النوا الحدود من هذه الناحية مستطبع ان نضعها في المنطقة التي تدعى بها الطرف العربي للبلاد من حول الطينين والتي تكاد تفصل وادي السرحان وواحه الحرف (دومة الخندل) عن منطقة بيماء .

والسبب الذي من أجله صار الحدود الشمالية للحجر على هذه الصورة نستطيع ان ندركه اذا تنهنا الى بعض الاعمارات . فجمال الحسمى

(١) ابن حوئل : صورة الارض ليدن ١٩٣٨ ، ٢٢ - الاصطخري : مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧ ، ٢٠ - الادريسي : نزهة المشتاق مخطوط ، الاقليم الثالث الجزء الخامس وهو يذكر نفس النص تقريبا .

(٢) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥ ، ١٤٠٤ .

(٣) الادريسي : نزهة المشتاق (مخطوط) الاقليم الثالث الجزء الخامس .

العوائل الساكنة في تيماء وماحولها ان تدفع له الحرية مباشرة (١) . وقد تابع البابليون - بعد ذلك - ومن بعدهم الفرس نفس هذه السياسة . غير ان ميدن سيطرتهم ونعوذهم كان الى الجنوب من المنطقة السابقة وذلك لان مملكتهم كانت تقع الى الجنوب بالنسبة لمملكة الاشوريين فكان طريق سيطرتهم يقع الى الجنوب من صحراء العود فاعتمدوا على قلة طي ثم على كثرة عدد ذلك (٢) .

وطبيعة هذه المنطقة الجغرافية كانت تلعب دورا هاما في حفظ الوارث والمنافسة بين هذه القوى الثلاث المطاحية . فجبل الحسمى والشراة تفصل الساحل عن الاخدود الرأسي الاوسط الذي يسهله الطريق الرأسي الرئيسي بين الجنوب والشمال . ومناطق الحرة الوعرة حرة الرحلاء ودلى وحبر تفصل خط الواحات تيماء . وذلك . حبر . عبر الطريق الرأسي الاوسط . وتلحق هذه الواحات باقليم البادية ونجد .

حقا ان هذه الطرق تكاد تقع تحت رصعة منطقة مركزية في الجنوب تستطيع التحكم فيها . وهذه المنطقة هي منطقة المدرة ، او منطقة العرنج التي تقع شمالها قليلا ، وادي العري ، او منطقة الحجر او واحة ديدان ، العلا القريتان منها . فوادي اضم - الذي سحدر من حرة خسر عرب ثم يوجه الى الجنوب والجنوب الغربي حتى يصل الى المدرة ويوجه بعد ذلك الى الشمال حتى واحة ديدان ثم يسحدر صوب العرب فصب في البحر الاحمر عند الوجه ، قربا من مباء العوسد ، والذي يعرف الآن بوادي التحض - يمكن من السيطرة على الطريق السلاني . فواحة ديدان تسطر على طريق القفل الرأسي وهو الطريق الاوسط . والسنة اعربت وادي اضم يمكن من السيطرة على اقليم الساحل ، ووايه حتى مدن . واسعة العرفه عنه تمكن من السيطرة على حبر ثم بعد ذلك على ذلك تيماء . وقد تستطيع القوة الى تسطر على واحة ديدان العلا ان تدفع سطرها احد من ذلك حتى معان فسحدر منها مركزا تسيطر به على الهياك الشمالية لهذه الطرف

Musil : Arabia Deserta (New York 1927) 477 ff.

(١)

(٢) كانت كنده تسكن الى الشرق والى الجنوب قليلا من منارل طي في المكان المعروف بالشراف وهو يقع الان تعربا بين الرياض وحائل مع ميل قليل الى الغرب . ولا يخفى النزاع بين الفرس والروم للسيطرة على كنده وذيان وكلب وعيس وطى لسيطرتهم فوذهما على هذه المنطقة . وامرو القيس سيد جزيرة بيرا واطليم مدين كان حليفا للفرس اول الامر قبل ان يستميله الروم اليهم .

مستطوع من معان الحكم في الطريق الغربي وذلك بالسيطرة على الالات
 الله أو العقبة اذ يمكن الوصول اليها بواسطة الطريق الذي يربط بينهما
 خلال وادي الينم والذي يمر بجبل سعيم الجبل الشمالي من السراة . كما
 تستطيع السيطرة على طريق نيماء بالحكم في دومة الجندل خلال الطريق
 الواصل بينهما شمال جبل الطويق وشمال الحرات على الطرف الجنوبي للبلقاء
 أو بادية الشام . وبذلك ينقل خط الحدود الفاصل بين الحجاز والشام الى
 الخط الواصل من اللة الى معان الى دومة الجندل ، والذي يستند طرفه
 الغربي الى البحر وطرفه الشرقي الى القود . ولكن طبيعة هذه المنطقة لا تجعل
 مثل هذه السيطرة مزا سهلا . فبعدة الجبال الوعرة التي صعب فيها الاتصال
 قد حالت دون تماثل هذه المنطقة وجعلها مسرحا لمنازل أو لسعوب صغيرة
 يعيش بعضها في غرله وفي براع مستمر مع البعض الآخر . ففيها كان العمويون
 والمؤابون ، وأهل ادوم وسعيم ، ونهمود وأصحاب مدن ، والاساط وسكان
 طور بعل وغيرهم من امثال هذه الاوساط المستقلة المعادية . فنتج عن ذلك
 تفكك هذا الاتحاد وظهور المدن أو المقاطعات التي تعيش في حماية الحصون .
 وأن الظاهر الوحيد للعاون بين مدن هذه المنطقة مقصورا على اتصال كل
 مدنة أو مقاطعة في الضرع الداخلي الرئيسي بنقطة مع في حداثها على الساحل
 لتكون بمثابة حصن لها . أو على العكس من ذلك كان مقصورا على اتصال
 حصون الساحل بنقطة مركزية في الطريق الداخلي لتمنح هذه الحصون
 وتصرف محاربتها في داخل الحررة . فكانت كل مدنة داخلية مع فرضها
 على الساحل . أو كل حصن ساحلي مع نقطة ارتكازه في لاقليم الداخلي تكون
 وحدة متماسكة مستقلة يقوم وجودها على حساب غيرها من هذه الوحدات .

، يستطيع ان يربط ذلك وضوحا بأسعراض هذه الصلاب . فقد اتصت
 معان باللات خلال وادي السم ، واتصلت سلح ، يرا ، بآله ، الالات أو العقبة
 خلال وادي العربة ، واتصلت تنوك بمدن ، واحه البدع الان ، عن طريق ممر
 شدار - المار ، السبع الحوي لجبل السراة من البلقاء والمدنة - ، واتصل
 اقليم اعرج و وادي القري والحضر - وما يصل به من واحه ديدان
 (الملا ، وشعب وبدا ، بدا يعقوب ، والسقيا ، سقيا يزيد) - بالوعيند
 (الوعيند على الحرائط الحديثة) أو بالوجه خلال وادي اضم (وادي لحمض ،
 واتصل اقليم خيبر - وما يصل به من المروة ، ذي المروة ، وفدك - بالحوراء
 (هي ميناء Leukekomo القديمة كما يرى شريجر) ، واتصلت المدينة
 بالجار ، واتصل حصن ينح الساحلي بالمدينة كذلك .

ونظام القبائل في هذه المنطقة قد يربدا وضوحا في فهم طبيعتها وتبين

الحدود البشرية والاجتماعية فيها . فالقبائل العربية في هذه المنطقة ترجع الى نظم اربعة : ثلاثة منها قحطانية ، وواحد عدناني .

اما اول هذه النظم فالتنسب الذي يرجع الى الازد من قبائل اليمن وبضم الازد وخراجة وبخيلة والاوز والجرج بم عسان . وهذه القبائل امتدت ديارها على طول ساحل البحر الاحمر من اليمن الى سمن لحجار وكاب تسطر على طريقى النقل الرئيسيين بين اجنوب والسمال : الطريق البحرى والطريق البرى . فكان بعضها يسكن بهامه والساحل والبعض الآخر يسكن فى الداخل على طول الطريق الذى يخترق ساسية السراه والحجار والسراه . وكاب هذه القبائل تعمل فى النقل البرى والبحرى لسجارتها فى الوقت الذى كان يسبغط السسثيون والمعينيون على التجارة اعالمسه فى الحررة العربيه . ولا يعوتما ان سبه الى ان الازد هم بحارة العرب الذين كانوا يعبرون بهذه المهمة بين القبائل العربيه . وكانوا يحبون البحر الاحمر وبحر الامم والخليج الفارسى .

وامم النظم الذى هو النسب العدناني الذى يرجع الى اسماعيل وادى كانت تسكن مائله فى اوان الامر سلسله الحرات وطراوه اسرفيه الى بعد من السمال الى الجنوب من دومه الجدد نعر . الى حره بنى عقيل المعرفه بسرقة فهم وعدوان الواقعه جنوب الطائف بين سرقة ثقيف وسرقة شنوءة او الازد . والى كاب ديارهم نفع الى الشرق من دار مالى الجنوب الى ديارها فى النظم السابق . والمصادر اليهوديه تذكر اولاد اسماعيل على اهم هم ادوم وعلى اهم كانوا فى وادى فاران . اما ادوم فانها دومه اجدل تما حقق ذلك مورل واما فاران فهو معدن فاران الذى يقع فى حره بنى سلم وهو احد المعدنين القدمين المشهورين بديار العرب . احدهما فاران هذا . والاخر عقيق بنى عقيل (١) فى حرتههم والذى يقول فيه الرسول : « اى اياه وسلم مطرب ارض عقيل دعها . فارص ولاد اسماعيل هى اقليم الحرات شرقى سلسله الجبال وهو المشهور بالذهب . والشعر العربى يصف مضر بأنها « مضر الحمراء » (٢) . وهواون فى تفسير ذلك انه نسبة الى الذهب . فهذا التفسير له معناه . نقولون انه نسبة الى الادوم الاحمر الذى اخذت منه خيمنتهم الحمراء . وهذا له معناه كذلك فكلمه ادوم معناه فى اللغه

(١) انظر الهمداني : صفة جزيرة العرب (لندن ١٨٨٤) معدن فاران

١٧٠ عقيق بن عقيل ١٧٧ .

(٢) انشدوا فى ذلك :

اذا مضر الحمراء عب عباها فمن يتصدى موجهها حين تزخر

الغبرية الحمراء والبحر الأحمر كُنْ سَمِي بحر ادوم فنترجم ذلك بالاحمر (١) .
فلعل هناك صلة بين سعة الحمرة في مضر وبين نسبة الحمرة الى واحه ادوم .
اما العمل الرئيسي لقبائل هذا النظام الثاني فكان رمي الابل ونساجها في منطقة
الحراب وما سأل منها شرفا . وكانت هذه الابل تعد ليقبل متاجر الجنوبيين .
واما النظام الثالث فهو نسب القبائل التي تنتهي الى قضاعة من قبائل
الجبوت . ويشمل كل ربى اعين وبنى سليح وسوح وحرم وراسب وبهراء
وبلى ومهرة وعذرة وجبيلة وبهدة . وهذه القبائل تسكن المنطقة التي تقع بين
ساحل البحر الاحمر وبين طرق النقل الداخلى والى الشرق منه قليلا في
بعض اقسام الحراب في المنطقة الواقعة بين المنه شمالا والوجه جنوبا . وفرع
من هذه القبائل يسكن دومة الحيدل والحيرة . فهذه القبائل كانت تعتمد في
مقطعة اشبه بحرام او شرط يصل فيما بين الحيرة والخليج الفارسي وبين
مقطعة المنه ومدن على البحر الاحمر . وكانت هذه القبائل سيطرت على طريق
التجارة الواصل بين منطقة العرب والخليج الفارسي وبين منطقة حليج الفعير
والساحل . كانت هذه القبائل معاوية ول الامر مع قبائل الاردن اسي سيطرت
على الطريق من الجبوت الى الشمال . ويسمى في ذلك بإشاره لها معناها
وهولون ان ربما من الاردن الى البحر وتسمى هناك برعم من قضاعة
فحالفوا على العارون وسموا سوحا . ولكن هذه القبائل بعد ظهور الاشوريين
على مسرح الحياة العالم اضطرت لهجرتهم الى اليمن . ومما يجدر ملاحظته
انه كان على رأس هذه القبائل ملكات عن امثال ربيى وتسمى كن الى جوار
ذلك كاهن اميل . ومن بين هذه القبائل كذلك قبيلة عذرة التي اشتهرت
في الادب العربي بالهوى العذري . وادنا لاحظنا ان عباده « اشتار » القصيدة
التي كانت معروفة عند الساميين كانت تدور حول الحب وتهدف الى فهم
الموت والبقاء عن طريق الحب امكيا ان سبب معاداة نذر هذه القبائل بالحياة
الاشورية وبالنظام الاجتماعي الاشوري (٢) .

واما النظام الرابع فهو النسب الذي ينتهي الى كهلان من قبائل اليمن
والذي يدخل فيه لحم وسدة وطى وعامله وجدام . وكانت ديار هذه القبائل

٢١ Père: De la mer Rouge Description de l'Egypte 2ème (١)
édit.) - T XI, 198

(٢) لا ادري اذا كانت هناك صلة بين عباده « اشتار » وبين تسمية المعر
الواصل بين مدن وتوك وبالسالى بن مدين وسماء باسم معر « شنتار »
« ككتاب » . والهمدانى في تعدادده لسطوط بحر العرب (السواحل والموانى)
بعد منها تيه تيماء . وكلمه تيه كما يتضح من نصه معناها الساحل او المرسى
المصل بواد يصله بالداخل (صفه جزيرة العرب (لندن ١٨٨٤ ، ١٢٧) .

تمتد من الخليج الفارسي والفرات شرقا الى البحر الاحمر غربا قريبا من اقليم مدين . وكانت ديار هذه القبائل تقع على الحملة جنوب دار القبائل السابقة يفصل بينهما النفود الشمالي فكانت ديارهما تستركان في المنطقة الشماليه للحجاز . ولعل هذا الفرع لم يظهر الا في وقت متأخر حين بدأ الصراع بين الاشوريين والبابليين . فالاشوريون يحاولون السيطرة على الطريق التجاري بمجموعة القبائل التي ترجع الى فضاخه والبابليون يحاولون ذلك بالمجموعة التي تسكن جنوب المجموعة السابقة وترجع الى كهلاء . وور اعتمد لفرس على قبائل هذا النوع الثاني فيما بعد ذلك اذا اعتمدوا على ملوك الحيرة وكسره .

فالمنطقة الشماليه للحجاز هي هذا الاقليم الذي كانت تحتلظ فيه النظم الاربعه السابقة من انساب الحررة العرصة . وان كان هذا التحديد سيخرج المنطقة التي تقع فيها تبماء - والتي كانت منطقة معروفة - من الاقليم الشمالي للحجاز وور يكون ذلك اصح واحذر بالاعصار . فاقليم تبماء سفل ساديه نجد اكثر مما سفل باقليم الحرات في الحجاز فحل الفلطق وباده السماود تفصله عن اقليم الحجاز وبعض الحمرايين همرة من ولم ياد به الحررة ووربه عساف لاتصاله بدومة الجندل وتدمر .

الحد بين الحجاز ونجد :

يكون الحد الرقي لاقليم الحجاز من سلسله مساطق مسابيه . او بعضاها . بعضا من الشمال الى الجنوب وأحد كلما هبطا نحو الجنوب في الانحدار والانبعاج نحو الشرق حتى يلع ذلك أقصاه عند الوسط تقريبا ثم تعود بعد ذلك فتضيق وأخذ طرفاها في التجمع والالتصاف الواحد منهما الى الآخر حتى يلع أحدى الجنوب فيكون هناك أديم واحد . وهذه السلسله من المنطق الى تؤكد اسماءها وعلامها وجودها المسفل المنمر - برسه - بال بواسطة حدودها الشرقيه أو الغربيه عند الحدود بين الحجاز ونجد . وذلك تبعا للاختلاف من حيث اعتبارها في اقليم نجد أو اقليم الحجاز . وهذه المناطق هي على الترتيب من الشمال الى الجنوب : منطقة القرى - الحجاب - الجلس - نجد العليا - أرض العالية - تثليث .

منطقة القرى : هذه المنطقة هي المنطقة الشماليه والشماليه الشرقيه من اقليم الحجاز . وكان لها خصائصها المسفله التي مبرتها عن غيرها وأمردها بالتسميه التي عرفت بها . وهذه المنطقة هي التي تقع فيها واحات خيبر وفدك والسوارقه وامثالها . والاصمعي تؤكد لنا هذا السامر في نصه الذي يقول فيه « وما دون الرمل النفود . الى الراف من العراق » يقال له العراق . وقرى عربية آل قرية في أرض العرب نحو خيبر وفدك والسوارقيه وما اشبه

ذلك « (١١) والمغيرة بن عبد الرحمن في تحديده لبلاد العرب يقول « جزيرة العرب مكة والمدنة واليمن وقربانها » (١٢) . وهذه المنطقة وإن كانت تتصل بوادي القرى إلا أنها تستقل عنه في خصائصها . وهي منطقة تقع في وسط الحرات الوعرة قائمه في شبه عرلة واستغلال . ولما كان طريق الوصول إليها هو عن طريق الجنوب الشرقي من وادي القرى أو من وادي خيبر فاعتبرت هذه المنطقة من الحجاز . وتلامس هذه المنطقة عند حافتها الشمالية ولسمالية الشرقية حدود نجد أو حدود البادية . وفي شمالها الغربي تقع المنطقة المنخفضة التي يفصل بينها وبين بؤك والى يسميها منطقة المحتطب ، وبذلك يتم الإقليم الفاصل المحيط بها من الشمال الغربي والشمال والشمال الشرقي والذي يفصل بين نجد وشمال الحجاز .

فالحدود بين نجد والحجاز في هذه المنطقة تبدأ من منطقة المحتطب هذه وسحب إلى الشرق والجنوب الشرقي أسفل منطقة الحرات التي تقع عليها فذلك وحسب السوارقة حتى تصل برمل الهير و عالي (النفود) وهي بهذا تفصل بين تيماء التي تقع إلى الشمال عند الطرف الغربي للنفود وبين إقليم الحرات . فسماء من بادية نجد « ومنها مسار البادية كما يقولون » (١٣) وإقليم الحرات من الحجاز . ومما يجدر ملاحظته أن منطقة المحتطب هذه ينبت فيها الغضا وقد أعسر ابن الفصح ظهور هذا النبات علامه لتمييز نجد عن الحجاز فهو كما رى لانسب إلا في نجد « وقد قيل فرق ما بين الحجاز ونجد أنه ليس بالحجاز غضا فما أتى الغضا فهو نجد وما أتى الطلح والسمندر والأسل وأواحدته أسلة فهو الحجاز » (١٤) .

الحجاب : ومع شمال أرض فزارة ، ديسان وجنوب أرض كلب « فإن حاور بلاد سي فزاره إلى أرض كلب فأتى بالحجاب » (١٥) . والأصمعي يؤكد لنا ودفع هذا الإقليم بين عظماء و كلب « والجناب ما بين غطفان و كلب » (١٦) . « فإذا تحاور بلاد فزاره فأتى بالحجاب إلى أرض كلب » (١٧) . فالجناب يقع

(١١) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٥ .

(١٢) ٢١ - ٦ هذا إذا أعسرنا الصحر في كلمة « قربانها » يعود على جزيرة العرب . وإن كان من الممكن أن يعود على اليمن فهي أقرب مذكور إليه .

(١٣) كانت تيماء منارل طى (البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) مادة « تيماء ») وطى من قبائل نجد لذلك اعتبرت تيماء من نجد وليست من الحجاز .

(١٤) ابن الفقيه : مختصر البلدان (لندن ١٨٨٥) ٢٧ .

(١٥) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٢٥) ١٣ .

(١٦) = ١٤ ، مادة « جناب » .

(١٧) ياقوت : معجم البلدان - مادة « نجد » .

في منطقة الحرات الشمالية التي تكون الجهة الشمالية لاقليم الحجاز والتي تقع نجد والبادية اسفل منها . وهذه الحرات هي : الحرة الرجلاء . حرة راهص . حرة راجل . حرة نيلي . وحرة الرجلاء هذه في ديار بني القين « الحرة الرجلاء وهو علم لحرة في ديار بني القين بن جسر بين المدينة والشام » وحرة راجل في بلاد بني عس . وحرة راهص هي في ديار فرارة . وحرة نيلي لبني مرة بن عوف من ديار بني . ويكون هذه الحرات الجهة الشمالية لمنطقة المجلس .

وكان يسكن بالجانب هذا قبائل عذرة وبلي ، والجانب ارض عذرة وبلي (٢١) وكان بين اقليم الجانب وبين تيماء في المنطقة التي تكاد تقع على حدود البادية حصن لسموعل ، وبين جنبات وتيماء حصن الابلق المرقد الذي كان يسره السموعل « (٢) » .

الجلنس : اذا بصورنا الحجاز شجرة فرسه من الارض لها جذر طويل ضارب فيها ولها حرع قصير تعلوه مجموعه كيفية من الاغصان قد عمل العليم واهص في الجانب الاسر منها فعصر عن الجانب الايمن . كانت هذه الاغصان هي اقليم الجلنس وكان ساحل البحر الاحمر هو المقص الذي جار على جانبها الايسر وكانت اغصان جانبها الايمن هي الاقليم الممتد شرقا وشمالا حتى جلى طى . وكان راس هذه الشجرة هو اقليم الحرات الشمالية وكانت نقطة اتصال اغصانها بجرعها عند منتصف الطريق بين مكة والمدينة وان كانت الى مكة اقرب منها الى المدينة . اما جرعها فهو جبال الحجاز واما جذرها الطويل فهو جبال السراة .

والجلنس كما يحدده لنا ابن الكلبي ما بين الحقة وحلى طى وبعد المدينة منه « قال والجلنس ما بين الحقة الى حلى طى والمدينة حليسه » (٢١) . ويذهب الى هذا الحديد اصحاب عزام بن الاصمعي وبزنده وصوحا بعدد بعض الاماكن اسي يدخل فيه « الجلنس ما بين الحقة الى حلى طى . والمدينة جلسسه واعمال فذك وخيسر ووادي القرى والمروة والجار والفرع » (٢٢) والكبرى سكمول له . وصح هذه لحدود من الجنوب ثم من الشرق فيقول « الجلنس ما ولى بلاد هذيل » (٢٣) ويقول « وبلاد اسند الجلنس والقنان وابان الابيض وابان الاسود الى الرمة » (٢٤) .

(١) ياقوت : معجم البلدان - مادة « الحرار » .

(٢) الكبرى : معجم ما استعجم ، القاهرة ١٩٤٥ ، مادة « تيماء » .

١٠ = (٤)

١١ = (٣)

١٢ = (٦)

١٥ = (٥)

والجحفه هذه - وهى النقطة التى يبدأ عندها اقليم الجلس - منزل من منارل الحاج بين مكة والمدينة - بينها وبين المدينة ١٧٣ ميلا وبينها وبين مكة ١٠٣ ميلا . وهى قريبة من ساحل البحر الاحمر تعد عنه بمقدار ثمانية اميال فقط . وهى وفق حساب الهمدانى تقع على خط ١٠ ٢٢ من خطوط العرض . وجبلا طيء هما اجا وسلمى يقعان على خط عرض ٢٧ تقريبا على يسار الطريق الواصل من الحجاز الى الكوفة على مسافه ٤٠٣ ميلا من مكة ، ٢٤٧ ميلا من المدينة .

ولما كانت الجحفه تقع على ساحل البحر لا تبعد عنه الا بمقدار ثمانية اميال فقط ، ولما كان الجار فرضه المدينة على ساحل البحر قد عده عرثام بن الاصبغ من اقليم الحلس فاقليم الجلس يضم جزء من بهامه او العور وهو يمتد من الجحفه جنوبا مسرفا على ساحل البحر الى ما يخادى اجا وسلمى وخيبر وفلك .

واذا كان جزء من الجلس من قسمة العربى يقع فى اقليم بهامة فهل يقع قسمة السرفى جميعه فى اقليم الحجاز . او ان طرفا منه يقع فى اقليم نجد ؟ البكرى يحدد لنا حدود الحجاز من هذه الاحياء فيقول « ومن المدينة الى طريق الكوفة الى الرمة حجاز ، وما وراء ذلك نجد الى ان تتسارف ارض العراق . ومن طريق الصرة الى بطن نخل حجاز ، وما وراء ذلك نجد الى ان تتسارف الصحراء . ومن المدينة الى طريق صنعاء اذا سلك على معدن بنى سليم حجاز الى الجرد الى بجران الى صنعاء . ومن المدينة الى بطن نخل الى شبك . من ثلثه حجاز الى الربد . وما وراء ذلك الى الشرف الى اصباح وضربة واليمامة نجد » (١) .

وبطن نخل على الطريق من المدينة الى الكوفة وهى تقع فى شرق المدينة فى محاذاتها مع مل الى الشمال بمقداره درجه تقريبا وهى تبعد عن المدينة بمقدار ٤٩ ميلا ، عرض بطن نخل ٢٥ وعرض المدينة ٢٤ تقريبا . وفق حساب الهمدانى .

والربد على الطريق من مكة الى الكوفة على بعد ٢٠٠ ميل من مكة ٥٨٠ ميلا من معدن البقرة وهى مجمع طريقى مكة والمدينة الداهيين الى الكوفة . والربد بين معدن البقرة ومكة . وعرض الربد ٢٥ .

ومعدن البقرة وهى مجمع الطريقين تقع بين الحجاز وبين فيد وبينها وبين فيد ١١٩ ميلا وبينها وبين مكة ٢٥٨ ميلا وبينها وبين المدينة ١٢٨ ميلا وهى على عرض ٢٦ . وبطن نخل تبعد عنها بمقدار ٧٩ ميلا .

(١) البكرى : معجم ما استمعتم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

ومعدن بنى سليم على الطريق من مكة الى الكوفة بينها وبين مكة ١٦٠ ميلا وبينها وبين معدن النقرة ١٢٤ ميلا والريذة في منتصف المسافة تقريبا بين معدن النقرة ومعدن بنى سليم فبين الريذة ومعدن النقرة ٥٨ ميلا وبين الريذة ومعدن بنى سليم ٦٦ ميلا . ومعدن بنى سليم على عرض ٣٠/٢٢ .
وطريق البصرة من البصرة الى مكة يقع الى الشرق والجنوب قليلا من طريق الكوفة (من الكوفة الى مكة) والمسافة الواقعة بين الطريقين هي مسير ثلاث مراحل وهي المسافة الواقعة بين معدن النقرة في طريق الكوفة وبين الناح في طريق البصرة . ثم تأخذ المسافة بعد ذلك في الضيق حتى يلتقى الطريقان عند ذات عرق ، ميقات أهل العراق .

فالبكرى يصور لنا القسم الشرقي من الحجار مثلثا تستند قاعدته الى وادي الرمة شمال المدينة وضلعه هو الخط الواصل بين المدينة ومكة ووتره يتكون من عدة انكسارات فتبدا النقطة الاولى عند الماء الرمة بطريق الكوفة ويسير هذا الوتر حتى الريذة . ومن الريذة الى معدن بنى سليم ثم الطائف يضاف الى ذلك منطقة اخرى تقع بين بطن نحل الى طريق البصرة .

فحدود الحجاز وفق هذا الحديد تسهى في الشمال عند الماء الرمة بطريق الكوفة اي في ثلثي الطريق بين المدينة وجلى طى تقريبا وادا اخذنا في ذلك بتحديد عرام بين الاصبع الذي يجعل حد الحجاز « من معدن النقرة الى المدينة » (١) فننتهى هذه الحدود كذلك قبل ان نصل الى جلى طى بمسافة طويلة تقارب مائة ميل . وديار بنى اسد الى تقع في الحلس تقع في هذا الجزء الذي يخرج عن حدود الحجاز . وما ولى ديار هذيل الذي تقع في الحلس هو ديار سليم وهوازن وهي تقع في حد الحجاز هذا .

ولما كان جزء كبير من شمال الحلس مع خارج حدود الحجاز فقد دفع ذلك قوما الى اعتباره من نجد ويساعدونهم في ذلك ان الحجاز عندهم حجارا الحجاز الاسود وهو سراة شوء او الحجار والحجار الآخر هو حجار المدينة وبعضهم لا يسمونه من الحجار اذ يعتبر بهمه الحجاز عند العرج (٢) في الطريق بين مكة والمدينة . وهي تبعد عن المدينة بمقدار ٨٥ ميلا وعرضها ٢٢ « وكذلك اذا

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

(٢) يعتبر بعض الجغرافيين ان العرج هي نقطة اتصال جبال الحجار بجبال لبنان فلذلك يقصرون اسم جبال الحجاز على السلسلة التي تمتد منها نحو الجنوب « والعرج عقبه بين مكة والمدينة على جادة الحاج » تذكر مع السعيا - عن الحارمي - وجبلها متصل بجبل لسان « ياقوت : معجم البلدان - مادة « العرج » .

تصويت في نانا العرج الى اقصى بلاد ننى فرارة انت منهم فان جاوزت بلاد
بنى فرارة الى ارض كلب فالت بالحناب « ١١ » ولذلك اعسروا المدينة من تهامة .
واعسر بعضهم المجلس بجدا لاقليم العوز خاصة . « معنى تهامة والغور
واحد ومعنى حجار وحسن واحد . هكذا ذكر الزبير بن بكار عن عمه .
وقال عمه معنى حجار وحسن ونجد واحد « ٢ » والمجلس علم لكل ما ارتفع من
العور في بلاد نجد « (٣) » .

فالمجلس فيما يبدو اقليم قائم بداته يقع في شمال الحجار الاسود . وجزء
منه من الغور وهو الجزء المربع من الساحل . وجزء منه من نجد وهو امتداد
حرا ب حير ويلى نحو الشرق . وجزء ثالث منه من حجار المدية الذى عرف
فيما بعد مع الحجاز الاخر باسم الحجاز فقط .

وحدود الحجار الشرقية في اقليم المجلس هذا تقع عند اللقاء طريق العراق
بواى الرمة عند انحناء العاصى بن الرعدة والسرف وهو مايسميه الكرى
بجد الحجار الاول « واحد الحجار الاول بطن بطن واعلى رمة وظهر حرة
ليلى « (٤) » .

نجد العليا : ونجد نجدان عليا وسفلى « ويقال في نجد العليا النجد وفي
السفلى ارض نجد « ٥١ » والجد او نجد العليا هي ادنى الجدين الى الحجار
والسراة . تمتد من الشمال الى الجنوب في شرقى سلسلة الحرا ب الوسطى .
« وقال ابو منصور حرة للى وحرة شوران وحرة ننى سليم في عاليه نجد « ١١
وحرة للى في شمال حير وشرفها . وحرة شوران في شرقى وادى العميق
وفي شرقى المدية « قال عرام غير جبل المدية ، جبلان احمران عن يمينك
وانت بطن العميق تريد مكة وعن يسارك شوران « وحرة ننى سليم او حرة
النار في منازلهم حول معدن بنى سليم .

والعاصى ما بين الحجاز ونجد هو هذه الحرا ب فما سال منها نحو المشرق
والشمال الشرقى فهو من لجد وما سال منها نحو المغرب فهو من الحجاز « وقال
عمارة بن عقيل ما سال من الحرة حرة ننى سليم وحرة للى فهو العور وما سال

(١) البكرى : معجم ما استمعج (القاهرة ١٩٤٥) ١٣

(٢) ٨/٧ =

(٣) ياقوت : معجم البلدان - مادة « جئسى » .

(٤) البكرى : معجم ما استمعج (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب (لندن ١٨٨٤) ١٧٧

(٦) ياقوت : معجم البلدان - مادة « الحرا ب »

من ذات عرق مقبلا فهو نجد . وحذاء نجد اسافل الحجاز وهي وجرة والقنطرة . وماسال من ذلك عرق موليا الى المغرب فهو الحجار « (١) غير ان عمارة يقصر معنى الحجار في نصه على الحجار الاسود خاصة ويطلق لفظ الفور على اقليم المجلس وما ينقله ابن الفقيه يحدد لنا ذلك في صورة اكثر وضوحا ، قال جعفر اودية نجد تسيل مشرقه واودية تهامة تسيل مغربه « (٢)

فالمنطقة شمال وجرة والعمره التي عتبرها عماره من عقيل من الفور او اسافل الحجار هي منطقة المجلس الفجر على عرض ٢٢ . وهو عرض الجحفة وبينها وبين مكة ٧٣ ميلا ، وقد بينا ان القسم الشرقي من منطقة المجلس او ماسال من بطن الرمة شرقا او ماسال من حرة ليلى وخسر شرقا فهو نجد . وماسال من حرة شوزان شرقا فهو نجد . ويجمع ذلك عند اتصال المجلس بنجد في هذه المنطقة مريبا من الريدة . وماسال من حرة سليم شرقا فهو نجد كذلك وحده جبل حصن الذي قالوا فيه ان من رأى حصنا بعد انجد « حصن جبل بالعالية مشرف على التي الى جانب ديار سلم وهو انهر جبال نجد » فحوض هو الحد بين اقليم الحرة وبين نجد .

والخفرايون الذين اتخذوا ساحل البحر اساسا لتحديد الاقسام الداخلية للجزيرة يضعون نجدا في المنطقة الواقعة شمال المدينة فتكون الحدود بين نجد والحجار هي من ناحية الشمال فحسب ولعلمهم قد اصافوا اليمامة الى اعمال المدينة كما كان الحال في عهد الامويين فتكون الحدود بين نجد والحجار هي اقليم حرة خسر ومنطقته جلى طى الى ان تصل برمل الهبير ، العود) ومن ذهب الى هذا التقسيم ابن حوقل والاصطخري « وما كان من اليمامة الى قرب المدسة راحما على نادية البصرة حتى يمد على البحرين فمن نجد » (٣)

ارض العالية او العروص : وارض العالية التي تقع الى الجنوب من نجد العليا والى الشرق من الحجار كانت تعرف بالعروص او الاعراس . وهي المنطقة المشتركة بين نجد والحجار ويمتد مساحتها شرقا حتى اليمامة والبحرين وجنوبا حتى اليمن . وابن الكلبي يميزها ويرسم لنا حدودها في نصه الذي يقول فيه « وارض العالية والبحرين الى عمان من العروص » (٤) .

(١) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٤

(٢) ابن الفقيه : مختصر البلدان (ليدن ١٨٨٥) ٢٦

(٣) ابن حوقل : صورة الارض (ليدن ١٩٣٨) ٢١ - الاصطخري : مسالك

الممالك (ليدن ١٩٢٧) ١٤

(٤) البكري : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٠

ويذهب الى ذلك ايضا أبو اسحق الحرى فيقول « وأخرج عمر بن الخطاب اليهود والنصارى من جزيرة العرب الا انه لم يخرجهم من نجران ولا اليمامة والبحرين فسميت العروش » (١) فهذه المنطقة كانت منطقة واحدة متميزة تقع بين الحجاز ونجد واليمن والخليج الفارسى .

والجزء الغربى من هذه المنطقة الذى يقع بين جبال السراة ورمال الربع الخالى المعروفة برمله بنى سعد او رملة يبرين وان كان هو - فى حقيقة الامر - الطريق البرى الوحيد الموصل بين اليمن وبين اليمامة ثم الى البحرين وعمان، او بين بهامة والحجاز وبين هذه المناطق - خلال وادى الدواسر الذى يشق منطقة الرمال الفاصلة - فانه على الرغم من ذلك ان منفصلا ومستقلا من الناحية الجغرافية عن هذه المناطق . فان بحر الرمال كان يفصله عن اليمامة والبحرين وعمان وان كانت الصلات الاخرى الاجتماعية والاقتصادية تربطه بهما .

فالاعبارات الجغرافية صيغ هذا الاقليم الى الحجاز او الى نجد العليا الملاصقة للحجاز . والصوص تؤكد هذه الاضافة « والاعراض ايضا قرى بين الحجاز واليمن » (٢) . « واعراض الحجاز رساتفه الواحدة عرض » (٣) . « واعراض نجد هى بيثه وترح ونسالة والمراة ورنيه » (٤) وكلمة نجد المستعملة هنا هى نجد الحجاز او « ارض العالية » .

والحسن اللعوى قد تنبه الى ان منطقة العروش او الاعراض هذه هى فى واقع الامر مطلقان تفصل بينهما رمال الربع الخالى فاكد ذلك الفصل فى التسمية فكان يطلق العروش على اليمامة والبحرين وعمان . وكان يطلق اسم الاعراض على القسم الاخر .

والخط الواصل بين حصص فى الشمال وبين جبل تليلث فى الجنوب يطلق على الحامة العرسة لمنطقة الرمال الفاصلة وهى تكون الحد بين الحجاز ونجد فى هذه المنطقة اذا عتبرنا هذه الرمال من منطقة نجد .

تهامة :

يطلق على الساحل المحصور بين البحر وجبال السراة او الحجاز لفظ

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ١٢

(٢) ياقوت : معجم البلدان - مادة « عرض » .

(٣) القاموس المحيط - مادة « عروش » .

(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩

تهامة أو الفور ، غير ان الاغلب ان يطلق لفظ تهامة على الجزء منه الواقع في حدود اليمن ، فيقال تهامة اليمن ، ويعلب اطلاق لفظ الفور على الجزء الشمالي منه الواقع شمال الجحفة . ويطلق لفظ الفور أو تهامة — بدرجته واحدة من التساوى — على الجزء الاوسط منه الواقع في حيز الحرم حتى الجحفة .

واساس التخصيص في هذه التسمية هو الارتباط بحبال السراة . فسلسلة السراة التي تنتهى عند ذات عرق حيث تحصى النهاية الشمالية لسراة نقيف أو السراة الثالثة تنهى معها تهامة حيث يلغى طرفا نجد وتهامة بعد ان ختمى الحجار الاسود الفاصل بينهما . لذلك كانت ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجار " وذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجار . وقيل لاهل ذات عرق انهموم انتم ام منجدون فقالوا لامهموم ولا منجدون " ١ . وكانت الحدود الشمالية لتهامة تقع عند الخط الواصل من ذات عرق هذه الى البحر " واما تهامة فانها قطعة من اليمن حبال مسبكة اولها مسرف على بحر القلزم مما بلى عرسها . وشرقيتها ساحبه صعيدة وجرش ونجران . وشماليتها حدود مكة . وحنوبها من صعاء على نحو من عر مراحل " ٢ .

وفي المطة التي تحتل هذه الحجار الاسود تبدأ سلسلة حرات الحجار الى تنجه الى الشمال مكونه حجار المدينة الذي يعلو منطقة المجلس ابداء من حد الجحفة . وسير ساحل تهامة مواربا لهذا الحجار حتى اذا صادف اقليم المجلس مضى فيه قليلا الى مطة تقع في الشمال والشمال اشرفى من الجحفة حيث يلتقى هناك حجار المدينة أو اقليم الحرة وتهامة أو الفور واقليم المجلس . وهذه المطة التي يلتقى عندها الاقليم الثلاثة يعرف بالمرح " طول الحجار من حد المرح الى السراة " ٣ . والمنطقة التي تقع جنوب الجحفة هي الفور أو تهامة . والمنطقة التي تقع الى شمال الجحفة على ساحل البحر هي الفور فقط أى عور المجلس " فصار ما حيف هذا الحبل في غريبه الى اسياف البحر من بلاد الاشعرى وعك وكناه الى ذات عرق والجحفة وما والاها وصفها وغار من أرضها الفور . عور تهامة — وتهامة تجمع ذلك كله — وغور الشام لا يدخل في ذلك " (٤) .

(١) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩٤

٢١ ابن حوقل : صورة الارض ، لندن ١٩٢٨ ، ٣٦ — الاصطخرى : مسائل

الممالك (لندن ١٩٢٧) ٢٣

(٣) ابن الفقيه : مختصر البلدان (لندن ١٨٨٥) ٢٧

(٤) البكرى : معجم ما استعجم (القاهرة ١٩٤٥) ٩٤

ولما كانت المرح نقطة اتصال جبال الحجار بجبال لبنان « والمرح عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج تذكر مع السفيا - عن الحازمي - وجبلها متصل بجبل لبنان » (١) فاننا نستطيع ان نفهم لم خصص الجز من شمال الجحفة باسم الغور فقط - وذلك لان غور الشام لا يدخل في حد تهامة « وغور الشام لا يدخل في ذلك » . وكثيرا ما نجد هذه المنطقة تسمى « بسيف البحر » الى جانب تسميتها بالغور .

ولما ان الجزء الجنوبي من ساحل البحر يعرف بتهامة وكان الجزء الشمالي منه يعرف بالغور فان الجزء الاوسط جمع بين الاسمين فسمى تهامة ويسمى الغور ايضا .

ومن حدد مفهوم لفظ الحجار فقصره على الحجاز الاسود اى جبال السراة فقد اعتبر مكة من تهامة فهي دون هذا الجبل . محصورة بينه وبين البحر . ومن فهم من لفظ الحجار الحجارين جميعا : الاسود ، وحجاز المدينة فمكة عنده من الحجار لانها تقع في الهضبة المرتفعة التي ترتكز عليها جبال السراة او الحجار الاسود . وكذلك شأن المدينة فهي من تهامة او الغور عند من يقصر معنى الحجار على الحجار الاسود فقط وهي من الحجاز على المعنى الثانى فهي تقع فوق نفس الهضبة الحجازية التي ترتكز عليها سلسلة السراة . ومن لا يصرف الا بالحجار الاسود قد يعتبرها كذلك من نجد لانه قد يعتبر اقليم الجلس من نجد « على ان من العلماء بتقسيم هذه الديار من رعم ان المدينة من نجد لقربها منها وان مكة من تهامة اليمن لقربها منها » (٢) .



وبصوص الجغرافيين في رسم الحدود الحاجرة بين اقسام الجزيرة العربية تكشف لنا - عن طريق تحليلها واستعراض اوجه الخلاف بينها - عن بعض من مراحل التطور في حياة الجزيرة العربية . فقد كانت هذه المراحل تنعكس في اغلب الاحيان على الاعلام الجغرافية والعناصر الثابتة في حياة الجزيرة العربية . ولعلنا نوفق الى تتبع هذا التطور في مناسبة اخرى .

عبد المحسن الحسينى

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « المترج » .

(٢) ابن جوقل : صورة الارض (لندن ١٩٢٨) ٢١

تطور نظام الري في الدلتا

للدكتور محمد ابراهيم حسن

مصر مهد الزراعة العدمه قد حثها الطبيعة تربه خصبة ومناخا رائعا وماء موفورا . وقد اكبر رراع الوادى على استغلال تلك المرايا استغلالا منظما . وكان الرى الحوصى نظاما سائدا فى الوادى قبل ادخل نظام الرى الدائم ، فكانت الارض مقسمة الى احواض متراوح ماحه الواحد منها بين ٥٠٠ فدان و ٣٠٠٠ فدان . وقد كانت هذه الاحواض محاطه بأسوار عربضه استخدمت كطرق رراعية وفى وقت الفيضان تملأ الاحواض بالمياه . ثم تحجر عنها بعد أن تترك عليها طبقة من طمي النيل المخصب (١) .

ونظام الري الحوضي مزايًا كثيره يمكن ان تلخص فيما يأتى : أولاً راحة الأرض مدة الشراقي ، فعند ان يجمع المحصول في ابريل او ما و ترك الأرض بدون زراعة حتى تعمرها مياه الفيضان من جديد . واثاء فتره الشراقي التى تسبق الفيضان تجف الأرض فستبقى وسررت الى باطنها أشعة الشمس مما يؤدى الى ارتفاع الاملاح الى السطح بفعل الجاذبيه الشمسيه حتى اذا ما جاء الفيضان التالى غسل هذه الاملاح وحدد حصوه التربة . وهكذا كات الأرض دائمة الخصوبة قليلة الاملاح ٢ . ناسا ان نظام ري الحياض اعطى فرصة لنوع من الهجرة الداخلية الى مناطق اري الدائم لمظهر السرع وتجفيف المستنقعات وجنى المحصول والعمل في البناء والصناعة وغير ذلك .

(١) ب . س . جزار - الاحوال الزراعية في القطر المصري في اثناء حملته
نابليون بونابرت . من ص ١٠-١٦ . عام يمر ساهدا الجرز من كتاب وصف
مصر كل من الدكتور يوسف محاس وخليل مطران تحت اشراف الجمعية
الزراعية الملكية ، وقد نشر سنة ١٩٤٢ .

١٢١. ماكزى وشيلى بيرنز - النشرة العفيه رقم ٢٥ عن اساسى العلاحة المصرية وعلاقته بنقصى متوسط محصول القذار من القطن . وزارة الزراعة سنة ١٩٢٤ - تعريفا عبد العزيز فضاى - من ص ٦٤ - ١٣٥

وقد كانت الاراضى العالية تزرع في اثناء الفيضانات العالية . اما الاراضى المنخفضة المحاورة للرع وفروع الدلتا فكانت تزرع على مدار السنة .

ولما ولي محمد على امر مصر سنة ١٨٠٥ بدأ يعمل على زيادة موارد الثروة حتى يتمكن من التوسع في سياسة الاصلاح ومواحهة الاعباء العسكرية . وقد بدأ بالغاء نظام الانرام الذى كان يقيم بين الدولة والرياع طائفة من الناس يتصلون بالفلاحين ويجمعون منهم مقادير مغلطة من المال يقدمون بعضها للحكومة ويستبقون لانفسهم بعضها الاخر . وقد وضع الوالى نظاما جديداً اصح بمقصد مالكا لاكثر اراضى القطر . وكان من الطبيعى ان يبقى الفلاحين يزرعونها ويقدمون اليه نصيبه من خيراتنا . وقد استطاع محمد على بفضل الاسبلاء على الارض وتنظيم الرراعة ان يدخل في مصر غلات جديدة اهمها القطن وقصب السكر والتبلة والقنب .

وكان لانتشار رراعه هذه المحاصيل الجديدة نتيجة هامة هي تنفيذ سياسته مائية جديدة بداها محمد على واستمر العمل بها حتى الوقت الحاضر . وترمى هذه السياسة الى ضبط ماء النيل وادخال نظام الري الدائم ليحل محل نظام رى الحياض الذى عرفته مصر منذ ان عرفت الرراعة . وقد امر محمد على بحفر ترع الرساوية والساحورية والنعناعة وتطهير بحر شبين في وسط الدلتا ، ثم انتشرت الترع بعد ذلك في معظم جهات الدلتا (١) . وكانت الترع بممق في وقت التحريق الى منسوب يسمح بدخول مياه النيل المنخفضة . اما عملية تطهير هذه الترع فكانت تتم وفقا لنظام السخرة ، اد فرض على كل مركز ان يقدم ربع رجاله بالناوب من سن ١٥ الى ٥٠ سنة للعمل مدة تبلغ ٤٥ يوما في تعوية الحسور وتطهير الترع . وكان يعفى من السخرة رجال الدين وموظفو الحكومة والجار لدن يدفعون قدرا خاصا من الضرائب . وكان للمرء الحق ان ينخلص من عمل السخرة اذا دفع قدرا ماليا محدودا ، وقد شمل الاعفاء البدو والعمال في املاك الدولة والدائرة السنية (٢) .

(١) . الناس الاومى - تاريخ مصر في عهد الخديو اسماعيل (المجلد الاول ص ٧٠ وما بعدها . القاهرة سنة ١٩٢٣) ب . حرطة ترع الدلتا كما وضعها ليسان دى بلعون سنة ١٨٥٨ (من محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة - النسخة الفرنسية)

Julien Barois : Les Irrigations en Egypte. (Paris 1911, p, 144-182).

Linant de Bellefonds : Principaux travaux d'utilité publique en (٢)

Egypte, Paris 1873, p, 341-381

وقد كان معظم رى الوجه الحرى فى ذلك الوقت مسمدا على عدد من
الترع التى نخرج من فرعى دمياط ورشيد . ولاشك ان اذحال رراعة القطن
والحصولات الجديدة الاخرى ابرر شده الحاجة الى تطهير السرع وتعميقها
مما ادى الى استخدام آلاف من العمال وتكليف الحريته نفقات كثيرة . كل
ذلك دفع ليسان باشا ان يقدم الى محمد على مشروعا جديدا لتوفير المياه
يتضمن بناء قنطريتين على فرعى الدلتا ، الاولى على فرع رشيد تجاه كفر
منصور على بعد تسعة كيلو مترات من موقعها الحالى . والاخرى على فرع
دمياط تجاه دروه على بعد خمسة كيلو مترات من موقعها الحالى . واعمد
محمد على هذا المشروع الا ان بعضى الامراض بين العمال اوقف العمل فى سنة
١٨٣٧ مما ادى الى العودة الى تطبيق النظام القديم الذى يقضى بتعميق لترع
وتطهيرها بانقار السخرة على الرغم مما فى هذا النظام من عنف وارهق .

وقد واصل المهندس الفرنسى موجل بك مجهود سلفه ليسان باشا فحسب
المشروع الى نفس الباشا بعد ان اقتعه ناهيته فى ريادة نزوة البلاد . وبأن
اكتشاف صحور جيرية مية بجوار الاسكندرية تسهل مهمة بناء المنشآت
المائية . واستقر الراى على اقامة قنطريتين على فرعى رشيد ودمياط بجانب
راس الدلتا فى المنطقة المعروفة بطن الفرة حيث يسرع فرع الدلتا ويتضمن
المشروع ايضا حفر الرياحات الثلاثة . وفى سنة ١٨٤٧ وضع محمد على اساس
القناطر الخيرية . واستمر موجل بك فى العمل بعناية فائقة . وكان بناء القناطر
يسير ببطء فلم يطمئن عباس باشا الاول الى تقدم سير العمل فأقال موجل بك
سنة ١٨٥٢ وعين مكانه مطهر بك الذى مضى فى اتمام العمل . وفى سنة ١٨٦١
تم بناء القناطر الخيرية . وفى اواخر تلك السنة لوحظ ان القناطر اضعف من
ان تحمل ضغط المياه لمحجورة امامها . وعلى الرغم من الترميمات المتوالية
والرقابة الشديدة لم تقم القناطر بعملها على الوجه الاكمل بل تطلبت بعض
القواعد الاستثنائية فى الموارنة عنها وقت طلائع الفيضان حيث يكون الحاجة
الى المعاد فى الترعى على اشد حالتها (١) .

وفى سنة ١٩٢٢ تشكلت لجنة لبحث حالة القناطر . ووصلت اللجنة الى
ان حالة القناطر لاتساعد على الثقة فى امكان تقويتها لتقاوم الضغوط الجديدة
الناجمة من رفع المياه امامها . وقد اشارت هذه اللجنة بضرورة بناء قناطر
جديدة لتحل مكان القناطر القديمة الى اصبحت اثرا من الآثار الى تعزز بها

(١) الدكتور حسن زكى - مذكرة عن القناطر الخيرية فى القرن العشرين
(من مطبوعات وزارة الاشغال سنة ١٩٣٧) من ص ١ - ١٢ .

القومية المصرية (١) .

وفي سنة ١٩٣٦ بديء العمل في بناء القناطر الجديدة التي تمت سنة ١٩٣٩ ، وتقع الى الشمال من القناطر القديمة بسحو سبعة كيلو مترات . وتتكون قنطرة فرع رشيد من ٤٦ فتحة سعة الواحدة ثمانية امتار . على حين تتكون قنطرة فرع دمياط من ٣٤ فتحة سعة كل منها ثمانية امتار ايضا . وبكل من القنطرتين هويس للملاحة طوله ٨٠ مترا وعرضه ١٢ مترا . وقد رفعت هذه القناطر لاجلده فرق التوارن الى ٣٨٠ مترا بعد ان كانت ثلاثة امتار فقط في القناطر القديمة . هذا ومن الممكن ايضا الحصول على قوة مائية مقدارها ١٥٠٠٠ حصان على الاقل مدة تسعة اشهر من السنة ، ونحو ٥٠٠٠ حصان في الثلاثة اشهر الباقية (٢) .

وتعدى هذه القناطر الرياحات الثلاثة . اما الرياح الموفى فقد أصبح يغذى معظم برع وسط الدلتا وهو اهم الرياحات الثلاثة ، ولبه في الاهمية الرياح التوفيقى ثم الرياح البحري .

-
- (١) الدكتور حسن زكى - القناطر الخيرية من الوجهة التاريخية - من ص ٤٣ - ٥٧ من الكتاب السنوى السابغ لسنة ١٩٣٧ للمجمع المصرى للثقافة العلمية .
- (٢) احمد رغب - القناطر الخيرية ومشروع قناطر محمد على . القاهرة سنة ١٩٣٦ من ص ١٣ - ٢٧ .

نظام الصرف في وسط الدلتا

تنقسم الدلتا الى مناطق كثيرة للصرف . وتعتمد كل منطقة على مصرف رئيسي يسعه مصارف ثانوية . وعمار هذه المناطق بشبكة كبيرة من المصارف ومخططات الصرف .

١ - منطقة شرق المنوفية - وتبلغ مساحتها ١٢.٠٠٠ فدان وتشتمل على جميع الاراضي التي تقع الى شرق بحر شنين وجنوب الرياح العاصي ، وتدخل هنا الاجزاء الشرقية من مركز منوف وكل مركز فوسا وشرق مركز شنين الكوم والجزء الجنوبي الشرقي من مديرية الغربية الذي يحصر بين الرياح العاصي والحدود الادارية الشمالية لمديرية المنوفية (١) .

ومصرف العطف يمثل المصرف الرئيسي لهذه المنطقة ، ويبدأ حوضاً قرب نقطة فرع ترعى العطف والساحل ، ثم يحده نحو الشمال محترفاً وسط المنطقة حتى يصب في مصرف زفتى الرئيسي بعد أن يمر تحت قاع الرياح العاصي . وتصرف منطقة شرق المنوفية بالراحة طول السنة الى مصرف زفتى الرئيسي . هذا ويفترح انشاء طلمبات صرف عند بهانه مصرف العطف ، وسيساعد انشاؤها على صرف مياه المنطقة الى الرياح العاصي وقت الفيضان وبدئاً بخف الضغط على مصرف زفتى الرئيسي في ذلك الوقت . وفي غير هذه الفترة يسمم الصرف بالراحة على مصرف زفتى الرئيسي . أما مصرف زفتى الرئيسي فيصب بدوره في مصرف الغربية الرئيسي الذي يحمل مياه الصرف الى البحر الابيض المتوسط (٢) .

٢ - منطقة غرب المنوفية - تضم الاراضي التي تقع الى الغرب من بحر شنين والرياح المنوفى والى الجنوب من خط يبدأ من مدينه شنين الكوم منحها نحو الغرب حتى فرع رشيد . وبلغ مساحتها ١٦.٠٠٠ فدان ، وتشتمل على كل مركز اشمون ومعظم مركز منوف مع استثناء الاجزاء الشرقية (والجزء الجنوبي من مركز شنين الكوم . ويمثل مصرف سل الرئيسي المصرف

(١) راجع الخريطة المرفقة بهذا البحث والى تبين اهم البرع والمصارف ومناطق الصرف في الدلتا .

(٢) راجع خريطة مشروعات ري وصرف وسط الدلتا ١/١٠.٠٠٠ ، عمل وزارة الاشغال قسم المشروعات ستة ١٩٤٩ - ١٩٥٠ .
كذلك راجع التقرير السوى لوزارة الاشغال سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ الجزء الثاني ص ٢٩٤ .

الاساسي لهذه المصلحة ، وبدأ في جنوب مركز أشمون متجها نحو الشمال
الغربي في محاراة البرعة العنابية وإلى الشمال قليلا من قرية طملاي ، مركز
منوف ، سجه المصرف نحو الشمال الشرقي حتى ترعة الباجورية . وإلى
الشمال قليلا من قرية طملاي يصل مصرف سبل بفرع رشيد بواسطة وصلة
تعد من الشرق إلى الغرب . وتصرف منطقة غرب الموقية بالراحة في غير
وقت الفيضان على فرع رشيد بواسطة وصلة مصرف سبل . أما في وقت
الفيضان فطرا لارتفاع مستوى الماء في فرع رشيد عنها في مصرف سبل فإن
المصرف يحول على ترعة الباجورية وذلك بمساعدة طلمبات صرف محطة
شراناس التي تمت سنة ١٩٢٧ . هذا ولا يؤثر كثيرا مياه الصرف في مياه
ترعة الباجورية من الناحية الكيماوية وذلك لعظم اتساع هذه التربة وان
ما يصرف إليها مثل نسيبا إذا ما قورن بكميات مياهها العظيمة وضخامة
تصريفها في وقت الفيضان .

٣ - منطقة صرف - ومساحتها ٢٠٠.٠٠٠ فدان . وتشمل الأراضي التي
تقع غربي ترعة القاصد وإلى الشمال من خط يمتد من شبين الكوم مجها
نحو الغرب حتى فرع رشيد . ومصرف دنشواي يمثل المصرف الرئيسي
للقسم الجنوبي من هذه المنطقة . وبدأ مصرف دنشواي في جنوب المنطقة
ثم يجه نحو الشمال مواريا ترعة الباجورية وإلى الغرب منها ويصب في فرع
رشيد جنوب كفر الرباب . ويصرف هذا القسم بالراحة على فرع رشيد في
غير وقت الفيضان . أما في وقت الفيضان فيصرف أيضا على فرع رشيد
ولكن بمساعدة طلمبات صرف محطة كفر الرباب التي تمت سنة ١٩٤٢ وذلك
لارتفاع مستوى مياه فرع رشيد عن مستوى مياه مصرف دنشواي في ذلك
الوقت . أما باقي المنطقة فمصرفها الرئيسي هو مصرف نسر الذي يبدأ
إلى الشرق من كفر الرباب متجها نحو الشمال حتى يصل بمصرف نمر ٩ في
الركن الشمالي الغربي من مديرية القواضية . وتساعد محطة طلمبات الزيتي
على تحسين الصرف في هذه المنطقة .

٤ - منطقة مصرف الغربية - ومساحتها ٢٤٠.٠٠٠ فدان وتقع إلى
الشرق من ترعة القاصد وإلى الشمال من منطقة شرق الموقية . ويعتبر
مصرف رفس المصرف الرئيسي لهذه المنطقة ، وبدأ هذا المصرف جنوبا قرب
الرياح العباسي ثم يتجه صوب الشمال حيث يتصل بمصرف سماتاي الذي
يصرف القسم الغربي من هذه المنطقة . ويعبر مصرف زفتي هذا مكملا لمصرف
الغربية الرئيسي الذي يحمل مياه صرف المنطقة إلى البحر الأبيض ، وتساعد
محطة صرف رقم ٦ على تحسين صرف هذه المنطقة .

٥ - منطقة الطمبات وسط الدلتا - وهذه تحد جنوبا بخط كنشور ثلاثة أميال (١) ذلك الخط يفصل بين منطقتين مختلفتين من حيث نظام الصرف ، فالمطعة الجنوبية تتمتع بصرف طبيعي على حين أن المنطقة الشمالية تحتاج إلى صرف صناعي بواسطة الطمبات الرافعة . وقد اهتمت وزارة الأشغال بحفر شبكه كبيره من المصارف الرئيسة والثانوية التي تقطع هذه المطعة وتنحدر مع القسم الشرقي من هذه المنطقة بينما يمثل مصرف نشرب أهم مصارف القسم الانحدار العام صوب الشمال . ويعتبر مصرف العربية الرئيسي أهم مصارف القسم الشرقي . كذلك قد اشنت شبكة كبيرة من محطات الصرف التي من أهمها محطة صرف الزيتي على مصرف نشرب ومحطة صرف رقم ٦ على مصرف الغربية .

نظام الصرف في شرق الدلتا

٦ - منطقة صرف بحر البقر - وتبلغ مساحتها ٢٨٠.٠٠٠ فدان ، وتبدو على شكل مستطيل يحده غردا فرع دمياط وشمالا بحر منطقة صرف بحر حادوس . ويعتبر مصرف بحر البقر المصرف الرئيسي لهذه المنطقة ويبدأ في الونك الجنوبي الشرقي باسم مصرف تليس ثم تنحدر نحو الشمال الشرقي باسم مصرف بحر البحر حتى ينتهي عند بحيرة المنزلة . ويعتمد القسم الغربي من هذه المنطقة على مصرف القرطاميه الذي يتصل بدوره بمصرف فاقوس وهذا الأخير يلقى بمياهه في مصرف حادوس الذي يحملها إلى بحيرة المنزلة . أما وادي الطميلات فيصرف بواسطة مصرف الوادي الذي يمتد إلى الجنوب من ترعة الاسماعيليه وينتهي بمياهه في بحيرة التماسيح . وتبلغ مساحة منطقة مصرف الوادي ٢٠.٠٠٠ فدان . وقد انشئت محطة صرف الفصاصين على هذا المصرف لتساعد على تحسين الصرف . ولكن مصرف الوادي هذا لم يتمكن من صرف كل الوادي صرفا جيدا ولذلك لا يزال بعض الاراضي تعاني ارتفاع الماء الباطني ولا سيما في الاطراف الجنوبيه والشريط الذي يقع إلى الشمال من ترعة الاسماعيليه . وهناك مشروع يرمي إلى تعميق مصرف الوادي وإلى حفر مصرف آخر إلى الشمال من ترعة الاسماعيليه ليساعد على تحسين الصرف ؛

٧ - منطقة صرف بحر حادوس - ومساحتها ٥٥.٠٠٠ فدان ، وتبدو على شكل مثلث يمثل فرع دمياط صلهه الايسر بينما يعتبر ضلعه الايمن الحد

الفاصل بين منطقة صرف بحر البقر ومنطقة صرف بحر حادوس كما ان قاعدة هذا المثلث هي الفاصل بين منطقة طلبات شرق الدلتا ومنطقة صرف بحر حادوس . وبصرف القسم الغربى من هذه المنطقة على مصرف بحر حادوس الذى يحمل مياه هذا القسم الى بحيرة المنزلة ، ويمثل مصرف بحر صفت المصرف الرئيسى للقسم الشرقى من هذه المنطقة وينجّه نحو الشمال ليتصل بمصرف بحر حادوس قرب مصبه . وتعتبر هذه المنطقة فقيرة بالمصارف الثانوية ولاسيما فى قسمها الشرقى وهناك مشروع يرمى الى حفر شبكة من تلك المصارف لتصل معظمها بمصرفى بحر صفت وفاقوس .

٨ - منطقة طلبات شرق الدلتا - وتمتد الى الشمال الشرقى من منطقتى صرف بحر البقر وبحر حادوس ، ويحدها شمالا بحيرة المنزلة وبصرف هذه المنطقة شبكة من المصارف الرئيسية الى مناهمها مصرف بحر البقر ومصرف بحر حادوس ومصرف السرو . اما مصرف بحر البقر فيصرف الطرف الجنوبى الشرقى من هذه المنطقة . وهذا الجزء فى حاجة ماسة الى تحسين نظام الصرف وذلك لان انحداره ضعيف للغاية ويقترح انشاء محطة للصرف على مصرف بحر البقر حتى تحسن من صرف هذا الجزء كما ان هذه المحطة ستحسن ايضا صرف القسم الشمالى الشرقى من منطقة صرف بحر البقر التى سبقت الاشارة اليها . ويعتمد القسم الاوسط من هذه المنطقة فى صرف مياهه على مصرفى فاقوس وحادوس وكلاهما يلقى الصرف لضعف الانحدار ويقترح انشاء محطة للصرف عند نقطة التقاء مصرف فاقوس بمصرف بحر صفت كما يقترح انشاء محطة صرف اخرى على مصرف بحر حادوس قرب مصبه . وتساعد محطته على عيّد ومحطة الايراد على تحسين الصرف فى هذا القسم . اما القسم الغربى من هذه المنطقة فهو اوفر الاقسام الثلاثة حظا فى نظام الصرف وفى محطات الصرف ايضا ، فمصرفه الرئيسى هو مصرف السرو وفروعه الثانوية العديدة كما تساعد محطته السرو على تحسين الصرف فى هذا القسم .

نظام الصرف فى غرب الدلتا

٩ - منطقة مصرف ادكو - وهذه تبلغ مساحتها ٢٧.٠٠٠ فدان وتحد شرقا بفرع رشيد وحنونا بجزء من ترعه الحاجر وقد قطعت هذه المنطقة بكنج من الترع الرئيسية مثل ترعة الحاجر والنوبارية كما يحدها شمالا ترعة المحمودية . وتسد هذه المنطقة فقيرة فى نظام الصرف اذ لا تعتمد الا على مصرف رئيسى واحد هو مصرف ادكو وهى فى حاجة ماسة الى شبكة من المصارف الفرعية التى تتصل بمصرف ادكو .

١. - منطقة ظلمبات غرب الدلتا - وهذه منطقة واسعة تحد جنوبا بسرق بمنطقة مصرف ادكو ، وشرقا بفرع رشيد وشمالا بساحل البحر الاسود وجنوبا بسرعة النوبارية . ويعتمد القسم الشرقى من هذه المنطقة على مصرف ادكو الرئيسى الذى يحمل مياه الصرف الى بحيرة ادكو . ويمتاز هذا المصرف بمحطتين للصرف تساعدان على تحسين الصرف . أحدهما وهى محطة زرقون تقع على منتصف هذا المصرف أما الثانية وهى محطة حلقى الحمل تقع قرب مصبه وتساعد على نقل مياه الصرف الى البحيرة .

أما القسم الغربى من هذه المنطقة فيعتمد على مصرف العموم الذى يصب فى بحيرة مريوط والذى يتصل بجانبه الاسر كل من مصرف شرشانه ومصرف النوبارية وقد ساعدت هذه المصارف الثلاثة الكبيرة على تحسين الصرف فى هذا القسم وتعمل محطة المكس على رفع مياه هذه المصارف من البحيرة الى البحر الابيض وتحتاج هذه المنطقة الى التوسع فى نظام الصرف حتى تسهل تحويل الاطراف الشمالية الى اراض زراعية جيدة .

ارتفاع مستوى الماء الباطنى وضعف التربة

كانت معظم اراضى الدلتا حتى اوائل هذا القرن من افسى اراضى مصر واخصسها حتى عمها بنظام الري بالراحة تخفيفا للمجهود البشرى ؛ ولكن لم يتبع انتشار نظام الري بالرحه نظام دقيق للصرف مما ادى الى رفع مستوى الماء الباطنى فى كثير من المناطق ولا سيما النطاق الشمالى للدلتا (١) . ولقد ساعدت هذه المياه الباطنية على تخفيض درجة حرارة باطن الارض والحقا الضرر بكثير من الفلات ولا سيما القطن (٢) .

اراء هذه المشكلة اخذت وزارة الاشغال تهتم بسياسة حفر المصارف الرئيسية والفرعية . ولكن يشك فى امكان صرف جميع الماء الرائد من باطن الارض بواسطة انتشار المصارف على اختلاف انواعها مع السحاء فى نظام الري وتوزيع الماء .

(١) محمد عزب فكرى - اصلاح الاراضى فى الوجه البحرى (من نشرات الجمعية الزراعية الملكية سنة ١٩٢٠) ص ٢٩ - ٤٨ .

(٢) ١ - حسين كامل سليم - Twenty Years of Agricultural Development in Egypt, (1919-1939), p. 13 & 14.

ب - مانتزى تيلور - تأثير الري على درجة حرارة الارض (وزارة الزراعة - النشرة الفنية رقم ٣٥ ، تعريب محمود مرسى) ص ١٧ .

كذلك يلاحظ ان المصارف الى سيحفرها الرراع في حقولهم سيكون صغيره قد لا يتجاوز عمقها ٥٠ او ٧٠ سنتيمرا ، فاذا اسرب هذه المصارف واستمر نظام الري كما هو في الوقت الحاضر فمعنى هذا ان سقى مسوى الماء الباطنى في حقول الرراع الى عمق ٥٠ او ٧٠ سنتيمترا من السطح . وقد نت ان وجود الماء الارضى الى هذا المستوى القرب من السطح يساعد على احداث تعمرات كماويه معها نقر في طبيعه التربه وضعفها ، واذا كانت وراة الاشغال قد اخذت تسير على اساسه تعميق مصارفها العامة الى مترين ونصف ، فإن المصارف الخاصة لاندال على اعماقها القديمه ، فالعلاج لارعب كبيرا في تعميق مصرفه لان هذا يكلفه تضحيه جزء من ارضه الزراعيه ، ومن الصعب اكراد الفلاح الرقيق الحال على تعميق مصارفه الخاصه لان مل هذا العمل قد يعجزه بسبب كثرة تكاليفه ونفقاته .

وتصبح من هذه الاعراض السابقه ان الاعتماد الكلى على المصارف وحدها لاجل مشكله ارتفاع مسوى الماء الباطنى مادام نظام الترغ الحالية بعضى بان الماء يجرى فيها على مستوى عالى مكن الاهالى من الري بالراحة . وقد اظهرت الحارث عدم التناسب بين سرعه تدهور خصوبة التربه وبين كماء عمليات الصرف ، ومن خير الامثلة وادى الطميلات ومساحته ٢٠٠٠ فدان اذ تحول جزء منه الى اراضى ملحيه بسبب انخفاضه عن مسوى برعه الاعمالية . وعلى الرغم من وجود المصارف مند نحو نصف قرن فان عملياته استملاحه ورد ارضه الى خصوبتها القديمه ما رالت في مراحلها الاولى .

السياسة المائية

ان حير حل لمشكلة الماء الباطنى ان يحجج الراى الى انشاء نوع من التوازن بين نظامى الري والصرف . لذلك يجب ان توجه العناية الى وضع سياسة شاملة مسقرة للسير عليها في كل مايتعلق بشئون الري والصرف . وتعتمد هذه السياسة الشاملة على الانسج الهامة الاتية :-

(١) الدكتور يوسف ميلاد - « في مشروعات الري والصرف » ص ٣٤٧ - ٢٥٢ من اجات المؤتمر الرراعى الاول سنة ١٩٣٦ ، قسم الرراعة العامة .

Mosseri V. : Le Drainage en Egypte. Bulletin de l'Institut (٢) d'Egypte, 1909, p. 104.

١ - **مشروعات الري المستقبلية** - يجب ان يراعى في هذه المشروعات ان تكون الترع عميقة بحيث يكون مستوى الاراضى الزراعى اعلى من مستوى الماء في الترع بما لا يقل عن متر ونصف متر في رمن الفيضان . وان هذا المبدأ سيؤدى الى تحفيض مستوى الماء الارضى الى عمق متر ونصف على الاقل وهو عمق يسمح بنمو معظم الفلاّات النامية بنجاح كما ان فيه خير وقاية لخصوبة التربة . وسيشجع مثل هذا المشروع الاهتمام باستخدام الآلات الرافعة التى سيعلم الرراع الاقتصاد في اسهلاك الماء . كما ان العناية بزيادة السواقي سيؤدى الى زياده محصوله في تربيته المواشى وهذا مطهر هام من مظاهر التقدم الاقتصادى .

ولاشك ان سياسة اثناء الترع العميقة سيؤدى الى اقتصاد كبير في نفقات الصرف الحالية . كما سيرتب عليها تأخير ظهور تلف التربة الى سنوات كثيرة ويكون من الميسور العمل على تلافيه . هذا فضلا عن ان هذه الترع العميقة ستكون صعبة ومساحتها صغيرة فمن تكلف الدولة كثيرا في نزع الملكية ولن يحتاج الامر الى اقامه القناطر الكبيرة كالتى تبى الان بمغات باهظة ولن تحتاج عمليات الري الى عدد كبير من الحواجر والسدود التى تبنى على مجارى الترع الحالية لحجز مياهها ورفعها لمسوى الري بالراحة .

٢ - **في نظام الري الحالي** - انه من الصعب تغيير نظام الترع الحالية المرتفعة المنسوب وابدالها بسرع عميقة منخفضه المنسوب اذ ان هذا العمل يتطلب خفض القناطر الحالية . غير انه لوقايه الاراضى الواقعة على جانبي هذه الترع يمكن ان تحفر مصارف موارية لها يتراوح عمقها بين مترين ومترين ونصف على طول امتداد الاراضى الى لحفها الصرر . ويؤدى هذا الى خفض مستوى الماء الباطنى تدريجيا ١٠ . ولقد تأثرت بعض اراضى جنوب الدلتا بارتفاع مستوى الماء الساطى مما ادى الى ظهور بعض بفاع ملحيه وشدة

(١) يحسن الرجوع الى - ١ - ماكنرى نيلور ، تأثير الري على درجه حرارة الارض . ١ وراة الزراعة - السرة الفنية رقم ٣٥ - تعريب محمود مرعى) ص ١٧ وما بعدها .

Willecocks : *Egyptian Irrigation*, vol. 2, p. 449-518. -

Mosseri V. : *Le Drainage en Egypte*, Bulletin de l'Institut d'Egypte 1909, p. 104. -

د - دكتور يوسف ميلاد - في مشروعات الري والصرف (ابحاث المؤتمر الزراعى الاول ١٩٣٦ قسم الزراعة العامه ص ٢٤٧ - ٢٥٣ .

تماسك ذرات الدربة ، ومثل هذه الاراضي في حاجة ماسة الى اصلاح سريع حتى يعود اليها ما اشتهرت به من خصب قديم (٢٤) .

٣ - نظام الصرف - يحث الاهتمام الى تعميق المصارف الرئيسية الى مترين ونصف متر عن سطح الارض المجاورة وذلك تعميق المصارف الحقلية والاهتمام الى تعميق المصارف المعطاء والمصارف الحقلية ، وذلك حتى ينخفض مستوى الماء الجوفي بحيث يصح الارض صلاحه للزراعة ولا سيما في المناطق التي تأثرت كثيرا بالمياه الارضية .

وقد بدأت وزارة الاشغال منذ اوائل سنة ١٩٤٢ تسير على هذه السياسة وقد تم تعميق بعض المصارف الرئيسية في الدلتا كمصرف بحر البقر في شرق الدلتا ومصرف سبل الرئيسي في المنوفية ومصرف الغربية الرئيسي في الغربية كذلك بدأت الهيئات المسؤولة منذ اوائل سنة ١٩٤٣ في تنفيذ مشروع المصارف المعطاء . ولوحظ البدء أولا بالمناطق المحتاجة الى الصرف والتي تمتاز بظاهرة الملكيات العرقية والصغيرة وشدة كثافة السكان . وفقا لهذه الاعتبارات نفذ هذا المشروع في اجراء مسعته في الدلتا مثل مركز منوف والمنطقة التي تقع الى الغرب من مدينة طنطا (٢٥) .

ويكون المصرف المعطى من ابياب محارة يبلغ طول الاسوية منها قدم واحد وقطرها بوصان ويوسع ملامحه على عمق مترين او متر ونصف من سطح الارض المحاورة . ويبلغ طول المصرف المعطى مائة متر في المتوسط ، كما تبلغ المسافة بين كل مصرف وآخر حوالى سبعين مترا . وتتصل هذه لمصارف المعطاء بمصرف مغطى رئيسي يصل بدوره الى اقرب مصرف مكشوف وبهذه الطريقة تصرف المنطقة صرفا منظما دون ان يستغل اى جزء منها في عملية الصرف . ويبدو ان هذا نظام ملائم للمالك الصغير اذ يصح في مقدرته ان يستغل كل ارضه . وهكذا تحمل هذه الطريقة بأميننا لنظام الصرف فلا يتعرض المزارع الصغير لهذه المصارف بالردم او الحريق . وقد يبدو ان

(٢٤) شاهد الكاتب بعض اراضي المنوفية مثل منطقة شنوان وغرب تلا وقد تأثرت بارتفاع مستوى الماء الجوفي مما ادى الى ظهور بعض بقاع ملحية (راجع : محمد حسن - بعض مظاهر الحياة الاقتصادية لمديرية المنوفية من رسالة الماجستير سنة ١٩٤٥) .

(٢٥) يحسن الرجوع الى تقرير وزارة الاشغال عن المصارف المعطاء لسنة ١٩٤٤ و١٩٤٦ (هذه التقارير من محفوظات تفتيش رى ومشاريع وسط الدلتا) .

نظام المصارف المغطاة يتطلب بدل نفقات أكثر من استخدام نظام الصرف العادي ولكن ما يتضمنه من المزايا يعوض هذه النفقات .

٤ - تعريف الجسور وتقويتها - تعسر الدلاء من أشد جهات العطر تأتراً بالفيضانات العاليه وذلك لكثرة ترعها وفروعها ومنذ أن أدخل نظام الري الدائم في القرن الماضي حدث نحو خمسة عشرة فيضانا خطيرا بسبب عجزها حدوث خسائر جسيمة إذ أعرفت بعض الاراضي وظهرت آثار الرشع على شكل برك ومستنقعات في جهات كثيرة وأثرت التربة الطينية الثقيله لانها أشد انواع التربة احتفاظا بالماء الباطني ، وادى هذا الى ضعف محصول القطن والى ظهور الاملاح الصارة على سطح الارض . وعسر فيضان سنة ١٩٣٨ من أخطر الفيضانات التي حدثت إذ وصل ارتفاع الماء فوق مقياس الروصه الى ٢٤ ذراعا ١١ اصبعاً . لهذا اهتم وزارة الأشغال بتقوية الجسور حتى تحمي الزراعات الصيفيه من خطر الفيضانات . ويرجع تاريخ هذا الاهتمام بتقوية الجسور الى عهد محمد علي الذي فرض على كل مديريه ان يجمع رجالها لحماية جسورها اثناء الفيضان كما يبدو من الحدود الانى :-

وقد كان على كل مركز ان يمدم ربع رجاله بين سن ١٥ و ٥٠ سنه كل ٤٥ يوماً للعمل في تقوية الجسور وان يستمر العمل على هذا النحو اثناء فترة الفيضان . واستمر نظام السخرة هذا نافدا فيما ينحصر بمراقبه الجسور وتقويتها حتى سنة ١٩٣٧ اذ ألغى نهائيا واصبحت مراقبة الجسور وتقويتها تؤدي نظير أجور محدودة .

١١ - قسم مقياس الروصه حسب النظام الانى :- ١ - من الذراع الاول الى الذراع ١٦ كل ذراع = ٥٤ سم وكل اصبع = ٢ ١/٤ سم .

ب - من الذراع ١٧ الى الذراع ٢٢ كل ذراع = ٢٧ سم وكل اصبع = ١ ١/٨ سم . ج - ما بعد الذراع ٢٢ تتبع المقياس النظام الاول .

راجع امين سامى ياسا - تقويم النيل ، ص ٢٥ وما بعدها من الجزء الاول ، القاهرة ١٩٢٨

نوع الفيضان	متوسط المياه	نوع الفيضان	متوسط المياه
فيضان منخفض	من ١٨ - ٣٠ ذراعا	فيضان عال	من ٢٢ - ٢٤ ذراعا
متوسط	٢٢ - ٣٠	خطير	أكثر من ٢٤

المديرية	متوسط الاثار التي كانت تعمل في اعمال الري سنويا	متوسط مجموع رجال كل مديرية	المديرية	متوسط الاثار التي كانت تعمل في اعمال الري سنويا	متوسط مجموع رجال كل مديرية
الفرقية	٤٨٠٢٠	٩٦٠٤٩	المدينة	٢٦٠٧٣	٨٦٠٢١
الدقهلية	١٨٠٢٧٧	٦٨٠٢٧٧	البحرية	١٨٠٥١٧	٥٥٠٥٥٢
الغربية	٨٣٠٦٧٧	١٦٧٠٣٥٤	القليوبية	٤٣٠٦٠٨	١٣٠٨٢٥ (١)

ولتوفير هذه الاموال اتجهت وزارة الاشغال الى الاهتمام بتقوية جسور النسل وتهذيب مجراه ، وذلك ان تكون التقوية على اساس متين وليست مجرد تكويم احجار وطين على حاشى النيل (٢) . ولاشك ان مثل هذا المشروع سيكلف الدولة نحو اربعة ملايين من الجنيهات ولكنه سيوفر لها بعد ذلك نحو ١٥٠٠٠ ر. حنيه سنويا كانت تنفق على اعمال التقوية للجسور والسهر عليها، هذا فضلا عن حفظ المراعات الصيفيه من الفيضانات العاليه .

وهناك مشروع آخر سالحص في تصرف مياه الفيضان العالي في منخفض الريان اد ان مجرد تقوية حصور النسل لامنح خطر الفيضان الخطير الذى يهدد القطر يوما ما كما سبق ان هددته من قبل . لذلك كان لابد من التفكير في التخلص من مياه الفيضانات الخطيرة وربما كان مشروع منخفض الريان يمثل الحل الطبيعى المنسود للتخلص من مياه الفيضان العالي الخطير . وتبلغ مساحة هذا المنخفض حوالى سبعمائة كيلو متر مربع ، ويفصله عن منخفض الفيوم حاجز من الحجر الجيرى يبلغ متوسط عرضه خمس عشرة كيلو مترا . وهذا المنخفض الذى تقع الى حوب غرب الفيوم محاط بسلسلة من التلال متوسط عرضها ستة كيلو مترات ومتوسط ارتفاعها عن سطح البحر في معظم جهاتها حوالى ستة وثلاثون مترا . اما المنخفض نفسه فينخفض عن مستوى سطح البحر بنحو اثنين واربعين مترا في اعمق اجزائه (٣) .

Linant de Bellefonds . *Memoires sur les Principaux Travaux d'Utilité Publique* . (١)

ص ٤٥١ وما بعدها . كذلك الفصل الرابع من ص ٣٤١ - ٣٨١

Hussein Sirry . *La Defense contre les Hautes Crues du Nil* (Bulletin de l'Institut de l'Egypte, T. 20, session 1937-1938, p. 183-189) (٢)

(٣) ١ - الدكتور محمد عوض محمد - نهر النيل ص ١٣١

ب - ذكرنا محمد بسيونى - مشروع وادى الريان ص ٩٨ (مجلة المهندسين) تصدرها نقابة المهن الهندسية عدد سبتمبر واکتوبر ١٩٤٩ .

وبمخرج حفر قناة من بلدة داء على النيل حتى المنخفض . وتقدر طولها بنحو ٤٦ كيلو مترا . وموسط انحدارها ١ : ٢٠٠٠٠ . وعندما يصل مستوى مياه الحزان الى ٢٧ مترا فوق سطح البحر . سيصل مقدار المخزون فيه الى نحو ١٨٥٦٦٧٦٠٠٠ متر مكعب . ويمكن الاستفادة بالمياه ما بين مستوى ٢٥ مترا و ٢٧ مترا . أى بمقدار ١٢٦٣٩٢٠٠٠ متر مكعب أو ما يعادل ١٢٦٣٩٢٠٠ متر مكعب في اليوم . هذا القدر من المياه سيعمل على تحسين نظام المآويب لصيفيه سيغضى على مشكله خطيره من مشكلات الري الدائم في الدلتا اذ أن سوء المآويب السيفيه كثيرا ما أدى ويؤدي الى مناعب كثيرة وجرائم عديدة .

وسمكون متوسط حريف الفناء في النيل في فصل الصيف نحو ١٢٠٠٠٠٠ متر مكعب في اليوم . ولما كان متوسط حريف النيل في الصيف عند القاهرة هو ٣٤٠٠٠٠٠٠ متر مكعب في اليوم ، فإذا أضفنا إليها ١٠٠٠٠٠٠ متر مكعب من منخفض الريان فيحصل متوسط التصريف في القاهرة في الصيف الى ٤٤٠٠٠٠٠٠ متر مكعب في اليوم وهذه تورع على النحو التالي :-

البحيرة - ٨ مليون متر مكعب في اليوم .

المنوفية والمرية والقواذيه - ١٦ مليون متر مكعب في اليوم

الدقهلية والشرقية والقليوبية - ٢٠ مليون متر مكعب في اليوم (١) .

وهذا الحزان لا يؤثر على اراضي الفيوم لاسيما الحاجر المين بين المنخفضين . كما أن أملاح المنخفض القليلة لا تؤثر تأثيرا يذكر في مياه المنخفض المخرونة اذ ثبت أن نسبة الأملاح ضعفه (٢) . هذا ويرى البعض ضرورة الاحتفاظ بأراضي الحياض الباقية حتى تكون هي أيضا مفعدا للنخلص من الفيضانات العاليه الخطيرة ، وبلغ مساحة أراضي الحياض ٩٤٧٤٤٤ هكتار (٣) .

Willcocks : *Egyptian Irrigation*, P. 689

(١)

(٢) تقرير وزارة الأشغال ، قسم الخرائط ، عن مشروع وادى الريان سنة ١٩٤٤ (وهو من محفوظات القسم) .

(٣) ذكريا محمد بسيونى ، مشروع وادى الريان ص ١١٠ وما بعدها (مجلة المهندسين الى تصدرها نقابة المهن الهندسية ، عدد سبتمبر وأكتوبر سنة ١٩٤٩) .

(٤) الاحصاء السنوى العام سنة ١٩٤٥ سطبعه القاهرة سنة ١٩٤٨ ص ٢٠٣

هذه هي اسس السياسة المائية الحديثة التي تتبعها وزارة الاشغال وتنفيذها تدريجيا . ويجدر ان يبع تنفيذ هذه السياسة الاهتمام الكبير بتشجيع دوره زواغيه علميه يكون من اهم اغراضها اطالة فترة الشراقي حتى تسريح التربة وتخلص من بعض مائها الباطني . وتنتشر في الدلتا دورة ثنائية من ابرر عيوبها ان فترة الشراقي قصيرة فلما تعطى الارض الفرصة المناسبة للراحة والاستحمام . كما ان هذه الفترة القصيرة من الشراقي لا تظهر الا في السنة الثانية من الدورة كما يبدو ذلك من التوزيع الاتي (١) :-

نوع المحصول	المدة
قطن	من فبراير الى اكتوبر
قمح او برسيم	من نوفمبر الى مايو
شراقي	من مايو الى يولييه
دره	من اغسطس الى نوفمبر
برسيم	من نوفمبر الى ديسمبر

من هذا الجدول يضح انه من الافضل ان تستخدم وتشجع دورة ثلاثية كما يوضحها الجدول الاتي نـ

السنة	المدة	المحصول
السنة الاولى	من نوفمبر الى مارس	برسيم
	من ابريل الى اكتوبر	قطن
السنة الثانية	من نوفمبر الى مايو	خضر
	من مايو الى نوفمبر	شراقي
السنة الثالثة	من نوفمبر الى مارس	حبوب شتوية
	من ابريل الى يونيه	شراقي
	من يونيه الى اكتوبر	ذرة

فلهذه الدورة الثلاثه مرابا عديدة يمكن ان تلخص فيما ياتي نـ

(١) جلال فهم - دورة زراعة القطن في مصر - من مجلة الزراعة ص ٢٩٩ - ٣١٣ ، العدد الرابع - يولييه واغسطس سنة ١٩٣٧ .

١ - تبلغ مساحة الحاصلات القولية في الدورة الثلاثية ثلث المساحة الإجمالية بينما تبلغ الربع أو أقل في الدورة الثنائية . ولا شك أن للحاصلات البقولية أثر كبير في زيادة الأزوت في التربة . وزيادة مساحتها في الدورة الثلاثية معناه زيادة خصب التربة من هذا العنصر الهام .

٢ - تظل الأرض عادة من الحاصلات الشوية في شهر مايو : وبقي خالية من الزرع بعض الوقت ، ونظرا لشدة الحرارة في هذا الوقت يحدث بالتربة شعوق منسعة تفبد كثيرا في تهوية التربة . ولا شك أن هذه الحرارة التي تتحلل التربة تعيد إليها نشاطها . ولما كانت مساحة الحاصلات الشوية في الدورة الثلاثية أكبر منها في الدورة الثنائية فإن مساحة الشراقي تكون في الدورة الثلاثية أكبر تبعا لذلك فتعظم الفائدة .

٣ - لاحظ أن العطن يحاح إلى تكرار الري في شهور الصيف الحارة . ولا شك أن ازدياد مساحة في الدورة الثنائية يكون من أسباب عجز الماء صيفا مما يؤثر على الاخض في الزراعات الواقعة عند بهاب الريع . فإذا اتبعت الدورة الثلاثية أمكن التوفيق بين حاجة العطن وكميات الماء التي تستطيع الريع توريحها بانتظام وذلك يزيد في محصول العدا من العطن وقد يؤدي في الوقت نفسه إلى تحسين التيلة .

٤ - تؤثر الريات الموابية في ارتفاع منسوب الماء الباطني مما يؤثر في نمو النبات . ولا شك أن اطالة فترات الشراقي كما هو الحال في الدورة الثلاثية تساعد على تخفيض مستوى الماء الباطني وسهولة الصرف .

٥ - تمتاز الدورة الثلاثية بزيادة مساحة مايررع من حاصلات العلف مما يساعد على نمو الثروة الحيوانية ومما يسببه من زيادة في كميات الاسمدة . ولا شك أن لكل هذا قيمته الخاصة في تقوية التربة وفي تعويض بعض العناصر التي تفقدها .

هذه هي اهم مرايا الدورة الثلاثية التي اذا اشرب ستنساعد كثيرا على حفظ التربة من التدهور . وان الامل عظيم في أن تتخلص تربة الدلتا من مشكلاتها المختلفة اذا نفذت هذه السياسة المائية التي درسها الاخصائيون دراسة وافية .

المدريات	الارتفاع عند المصب بالمتر	طول المسار				طول الترع			
		طول الملاحة		غير صالحة للملاحة	غير صالحة للملاحة	طول الملاحة		غير صالحة للملاحة	غير صالحة للملاحة
		١٩٤٤	١٩٤٥			١٩٤٤	١٩٤٥		
مدريات الوجه البحري	البحر الجميلة	٥ متر فاقل أكثر من ١٠ متر	١٩٢٨٢	١٩٤١٦	١٦٨	١٤٢	١٦٨	٤٥٣	٢٢٢
			٢٢٤	٤٦	١٦٨	—	—	٢٢٥	٢١٣
			١٥٠	—	—	—	—	٩٤٤	١٠٥٥
الغربية	البحر الجميلة	٥ متر فاقل أكثر من ١٠ متر	٢٥٤٨	١٧٠.١	٩	—	—	١٦٢١	١٩٢١
			٢٥٧	٢٩٨	٤٧	١٠.١	٤٧	٤١٦	٥٣٦
			١٩٨	١٧٤	١٧٦	١٧٦	١٧٦	٢٢٢	٢١٨
الغربية	البحر الجميلة	٥ متر فاقل أكثر من ١٠ متر	٢٣٠.٢	٢٢٧٢	٢٢٢	٢٦٢	٢٢٢	٢٢٦٩	٢٢٧٥
			١٥٤	١٠٩	٢٠	—	—	١٤٧١	١٢٨٨
			٢١	٢١	١٤٢	٦٨	٢٠	٢٩٧	٢٦٠
الغربية	البحر الجميلة	٥ متر فاقل أكثر من ١٠ متر	١٠٨	٩٢	١٠٨	١٢١	١٦٢	١٨٤٤	١٦٤٩
			٨٥	٨٨	٨٥	٨٨	٨٥	٢٢٦٩	٢٢٧٥
			٨٣	٧٤	٨٣	٧٤	٨٣	٢٢٢	٢١٨

مصلحة الإحصاء والعداد ، الإحصاء السنوى العام (١٩٤٥ - ١٩٤٤) ، صفحة ٣٠٤ طبعة القاهرة ١٩٤٨

الترع الرئيسية في شرق الدلتا

الزمام المنزرع بالفدان	الطول بالكيلو متر	اسم الترع
١٧٧٠٠٠	١٢٨٥٠٠	الاسماعيلية
٢١١١٠٠	٨٤٠٠	الشرقاوية
٧٣٥٠٠	٢٤٢٥٠	الباسوسية
٤٠٤٠٠٠	٢٧٠٠٠	الرياح التوفيقى
٦٧٠٠٠	١٨٩٠٠	ابو المجا
٣٤٢٢٠٠	٤٣ —	المنصورة
١٢١٩٠٠	٦٣ —	البحر الصغير
٧٦٦٠٠	٢٣ —	بحر طناح
١١٧٢٠٠	٤٩ —	البوهية

الترع الرئيسية في وسط الدلتا

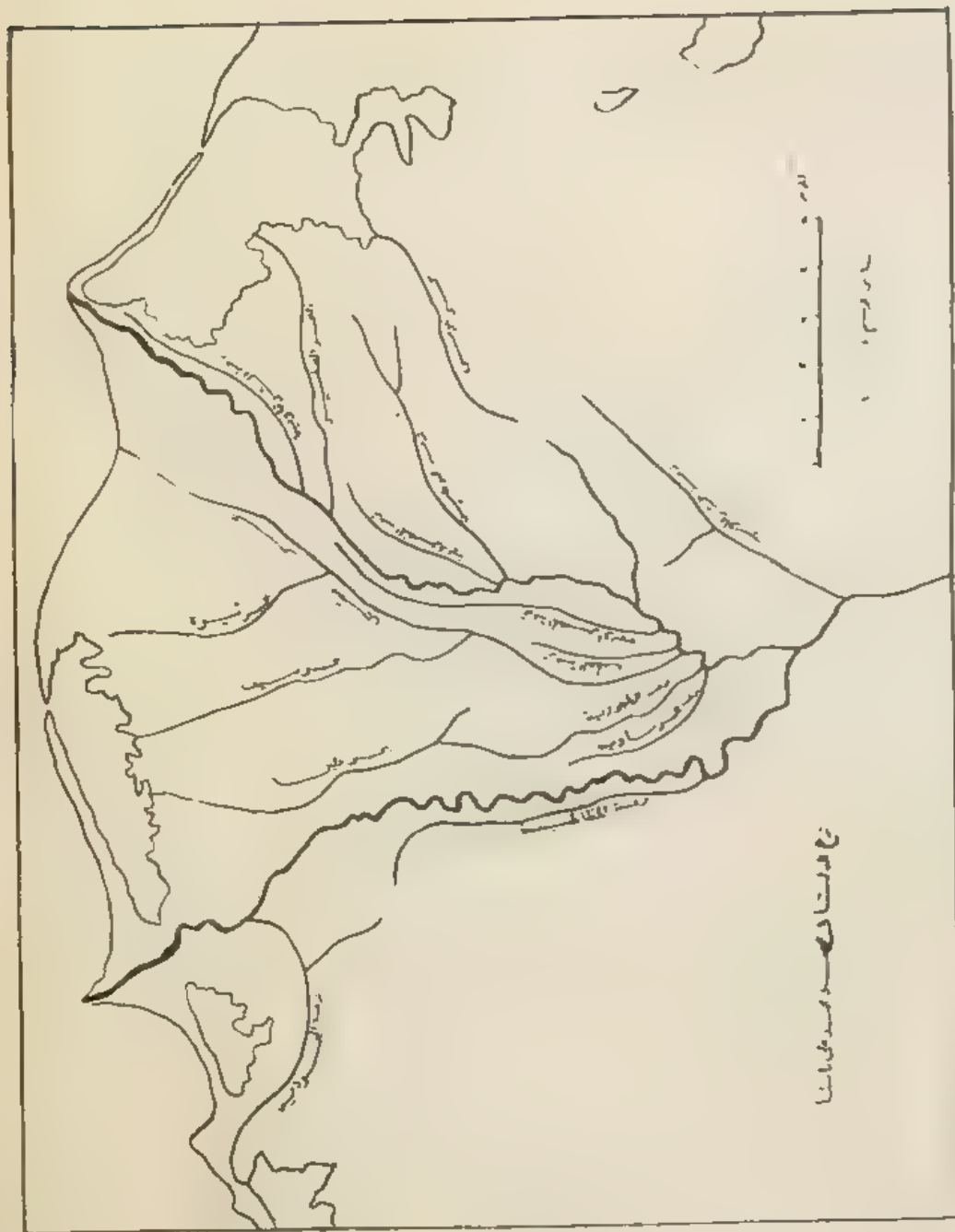
الزمام الذى يرويه في الغربية بالعنان	الزمام الذى يرويه في المنوفية بالعنان	اطول بالكيلومترو	اسم الترع
—	٥٠٠٠	٢٩٠٠٠	رياح الموفية
١٦٥٠٠	١٠٦٠٠	١٨٦	بحر شبين
١٠٥٠٠	١٦٥٠٠	٩٠٠٠٠	الترعة الباجورية
٩٧٠٠	٥٤٦٠٠	٩٢٨٠٠	الترعة النعامية
—	٣١١٠٠	٢١٢٣٠	الترعة السرساوية
٩٠٠٠	٢٩٣٠٠	٤٦٥٨٠	ترعة المطف
٩٦٠٠	٢٤٧٠٠	٢٧٢٦٠	ترعة الخضراوية
١١٣٠٠	٢٢٥٠٠	٢٧٦٣٠	ترعة الساحل
٣١١٠٠	٥٦١٠٠	٤٧١٧٠	ترعة البثانوية
—	٣١٠٠٠	١٠٩٤٠	ترعة النجايل
٢٢٥٠٠	٢٠٠٠	٧٢٠٠٠	ترعة القاصد

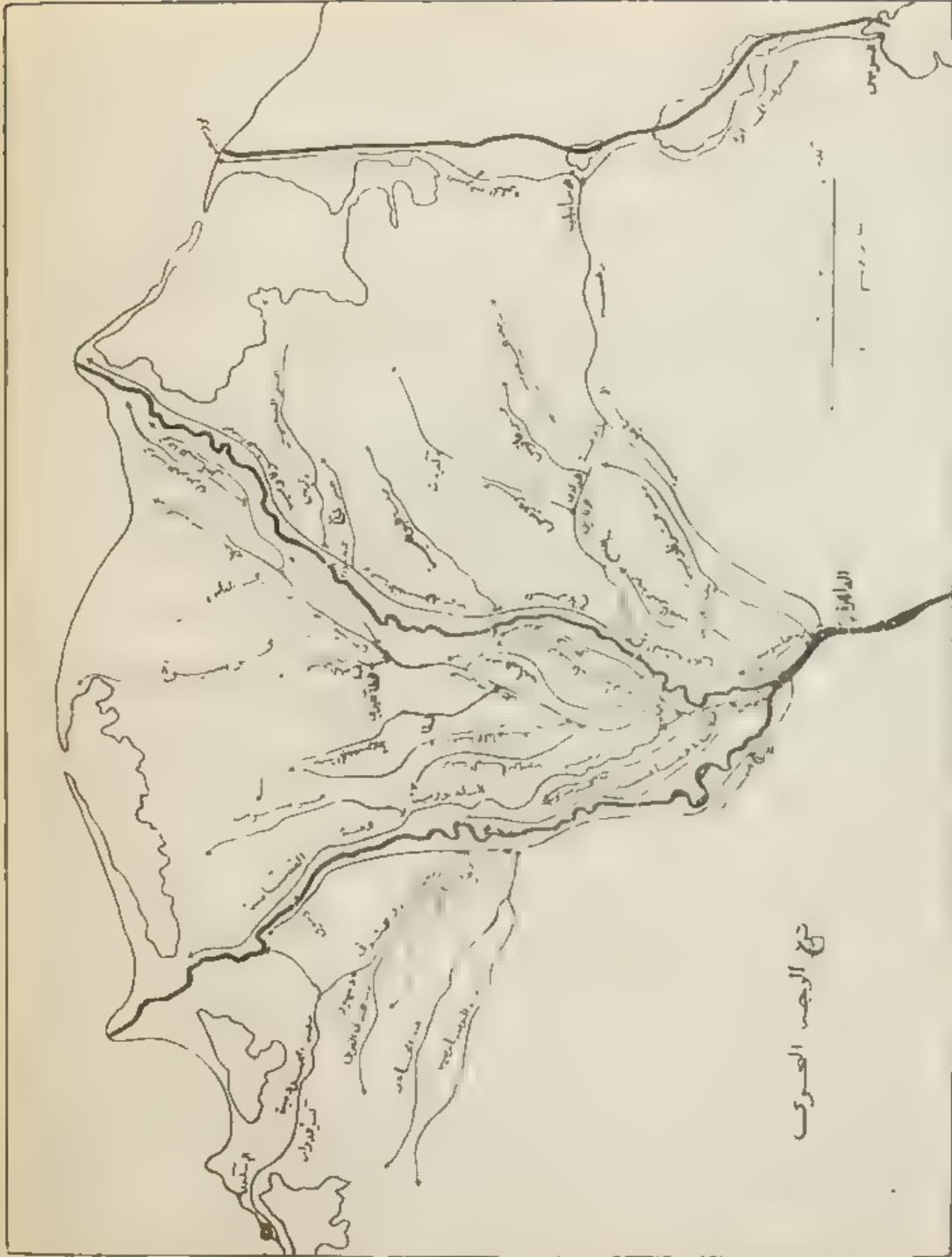
نقلا عن بفتيش رى قسم ثان (وزارة الاشغال سنة ١٩٤٦)

الترع الرئيسية في غرب الدلتا

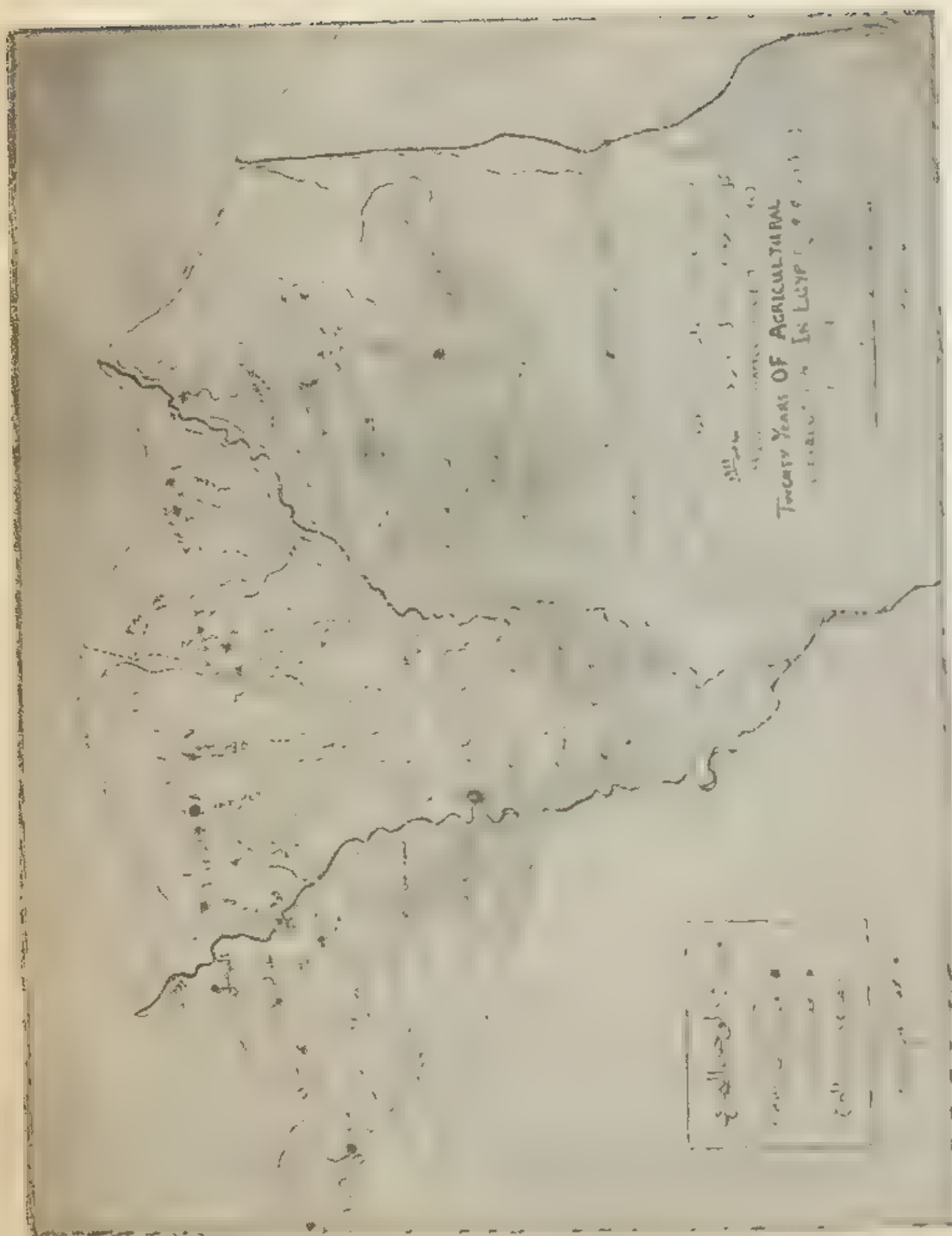
اسم الترعة	الطول بالكيلومتر	ايزام المنزرع بالهكتار
رياح البحيرة	٦٤ر٨٥٠	٧٢٣٥٠٠
النوبارية	٨١ر٢٠٠	١٧٠٥٠٠٠
الحاجر	٦٨ر٠١٠	٦٤١٠٠
ابو دياب	٣٦ر١٦٠	٤٥٨٠٠
الخنديق الغربى	٣٣ر٤٠٠	٥٨٩٠٠
الخنديق الشرقى	٤٣ر٤٤٠	٣٧٩٠٠
ساحل مرقص	٥٤ر٤٠٠	١٠٥٠٠٠
المحمودية	٧٧ر١٧٠	٢٤٧٠٠٠

نقلا عن تفتيش رى القسم الثالث (وزاره الاشغال سنه ١٩٤٦)





سبخ الرجب العرب



المراجع العربية

- ١ - أحمد محمود - الاسمدة الفسفورية . من نشرات الجمعية الزراعية الملكية قسم الكيمياء ، سنة ١٩٣٤ .
- ٢ - أحمد محمود - التسميد الاروتى والفوسفاتى وزراعة القطن ، من نشرات الجمعية الزراعية الملكية ، قسم الكيمياء سنة ١٩٣٧ .
- ٣ - أحمد محمود - تسميد القطن ، من ص ٧٥ - ٩٦ من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ .
- ٤ - أحمد راغب - مشروع قناطر محمد على . القاهرة سنة ١٩٣٦ .
- ٥ - الجمعية الزراعية الملكية - نسرة عن الاراضى العلوية وطرق علاجها سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٤٥ .
- ٦ - الجمعية الزراعية الملكية - الاسمدة وتسميد الحاصلات المصرية ، قسم الكيمياء سنة ١٩٣٥ .
- ٧ - امين سامى - تقويم النيل وعصر محمد على ، من ص ١٩٥ - ٥٨٤ الجزء الثانى ، القاهرة سنة ١٩٢٨ .
- ٨ - امين فكرى - الصرف وعلاقته بصحة النباتات ، ص ١٧-٢٧ ، من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ ، جزء الاوقات والامراض .
- ٩ - جلال فهم - دورة زراعة القطن فى مصر من ص ٢٩٩ - ٣١٣ من مجلة الفلاحة ، العدد الرابع يوليه واغسطس ١٩٢٧ .
- ١٠ - جيمس ادثر برسكوت - السباح البلدى فى مصر ، من نشرات الجمعية الزراعية السلطانية ، تعريب محمد عزيز فكرى .
- ١١ - حسن زكى - القناطر الحيرية ، من الوجهة التاريخية من ص ٤٣-٥٩ الكتاب السنوى السابع للمجمع المصرى للثقافة العلمية سنة ١٩٣٦ .
- ١٢ - حسين سرى - علم الرى ، الجزء الاول والجزء الثانى - القاهرة سنة ١٩٣٣ .
- ١٣ - حسين سرى - الرى فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٧ .
- ١٤ - حسين سرى - السياسة المائية فى مصر ، القاهرة سنة ١٩٣٥ .

- ١٥ - زكريا محمد بسيوني - مشروع وادى الريان ص ٩٧ - محله المهندسين - تصدرها نقابة المهن الهندسية - عدد سبتمبر - اكتوبر ١٩٤٩ .
- ١٦ - عبد العزيز أحمد - مشروع ظلمات صرف اراضى منطقة شمال الدلتا - من ص ١٣-١٧ من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ - جزء الزراعة العامة .
- ١٧ - عثمان ابازله - اصلاح الاراضى النور وكيفية توزيعها ، من ص ٣١-٤٢ من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ - قسم الزراعة العامة .
- ١٨ - محمد عوض محمد - نهر النيل - القاهرة سنة ١٩٣٠ .
- ١٩ - مصلحة الاحصاء - الاحصاء السنوى العام من سنة ١٩٠٠-١٩٤٨
- ٢٠ - مصلحة الاحصاء - الاحصاء السنوى للحب ، - سواب ١٩٤١ و ١٩٤٢ و ١٩٤٨ .
- ٢١ - نجيب ابراهيم - ندم الري والصرف في القطر المصرى من ص ٣-١١ من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ - جزء الزراعة العامة .
- ٢٢ - وزارة الاشغال - المقارنات السنوية لوزارة الاشغال من سنة ١٩٣٠ - ١٩٤٩ .
- ٢٣ - وزارة التجارة والصناعة - الاسمدة الكيماوية - صحيفه اسبوعية والصناعة - ابريل سنة ١٩٣٢ من ص ٦٥٥٦٤٩
- ٢٤ - يوسف ميلاد - في مشروعات الري والصرف - من ص ٢٤٧-٣٥٥ من ابحاث المؤتمر الزراعى الاول سنة ١٩٣٦ - جزء الزراعة العامة .

25 Audchau C.H. *Les eaux souterraines de l'Egypte, extrait des Annales des ponts et Chaussées, 1931, T.4.*

26 - Daresny G. : *Les branches du Nil sous la 18ème Dynastie Bulletin de la Soc. Royale de Géographie, T. 17, 2ème serie, p.p. 81 -115.*

27 Davis Gracie *The nature of soil deterioration in Egypt — Ministry of Agriculture technical scientific service, Bulletin No. 148, 1934.*

28 Elephteri Xilimas : *Le Nil, son limon et la terre Egyptienne — Le Caire, 1936.*

- 29 — Fourtau R. : *Contributions à l'étude des dépôts nilotiques* — Mémoires présentés à l'Institut Egyptien, T. 8, 1915 pp. 58 — 94.
- 30 — Hume W.F. : *The nitrate shales of Egypt* Bulletin de l'Institut d'Egypte, T. 8., 1916, pp. 145. — 169.
- 31 — Hussein Kamel Selim : *Twenty years of Agricultural development in Egypt, 1919 — 1939. Cairo, 1940.*
- 32 — Hussein Sirry. : *La défense contre les hautes crues du Nil*, T. 20, session, 1937 — 1938 pp 183 — 189, Bulletin de l'Institut d'Egypte.
- 33 — Hussein Sirry : *Irrigation development Egypt today, third edition, 1938, pp. 87—89.*
- 34 — Ismail Sirry : *Aperçu historique sur les travaux d'irrigation et de navigation en Egypte*. — Le Caire, 1926.
- 35 — John Atkinson : *Hand book of Egyptian Irrigation* part I 1934.
- 36 — Julien Barois : *Les irrigations en Egypte*, Paris, 1911
- 37 — Laurent de Belafonds : *Travaux sur les principaux travaux d'assainissement public en Egypte* — Paris 1873.
- 38 — Lozack, J. : *Le Delta du Nil, étude de géographie humaine* — Le Caire, 1935
- 39 — MacKenzie Taylor : *The Effect of sharaqui period upon the yield of cotton in Egypt* *Journal of Agricultural Research*, No 52, 1926
- 40 — Ministry of Agriculture : *The nature of soil in Egypt* Technical Bulletin, No 1986
- 41 — Mosseri V : *Le drainage en Egypte* Bulletin de l'Institut, 1902, pp. 104 — 115.
- 42 — Mosseri V : *Du Rôle des crasses du sol dans les dessèchement et l'assainissement permanent des terres d'Egypte*
- 43 — Mosseri V : *La fertilité de l'Egypte*, Congrès de Géographie 1926 T IV, pp. 135 — 168.
- 44 — Omar Toussoun : *La géographie de l'Egypte à l'époque arabe* T 1, La Basse Egypte, Trois parties, Le Caire 1927
- 45 — Omar Toussoun : *Les Anciennes Branches du Nil* Tome 1, époque ancienne, Tome 2, époque arabe — Le Caire 1922
- 46 — Pellet H : *Composition du sol Egyptien* Bulletin de l'Institut d'Egypte, T. 1 Koch R 1907 pp 93 — 99
- 47 — Roche M : *Importance de l'étude physique des sols* Bulletin de l'Institut d'Egypte série T 2, 1908 pp 47 — 54
- 48 — Roche M : *Essai l'étude des propriétés physiques des terres de la Haute Egypte* Bulletin de l'Institut d'Egypte, T 2 1908, pp. 55 — 63.
- 49 — Wilcocks, Craig. : *Egyptian Irrigation*, 2 vols., London, 1913.
- 50 — Wilcocks Craig : *The Nile Projects*, Cairo 1919.

الدين والدولة في عهد النبي

للدكتور محمد عبد العزيز نصر

— ١ —

لقد كتب الكثيرون من الكتاب والمفكرين في مشايق الارض ومعاربها عن الاسلام . ولكن مجال الكتابة فيه لا زال واسع امام المفكرين في الحاضر والمستقبل . ذلك لان كل جيل يفسره في ضوء تجربته الخاصة . وهناك في عصرنا الحاضر الذي امتار بثورة اجتماعه فرقت المجتمع الدولي الى معسكرين شرقي وغربي ، بل فرقت المجتمعات المحلية داتها الى طيفين يدين بعضها بمذهب الشرق والآخر بمذهب الغرب . نرى الاسلام يعاد تفسيره بآراء لمصلحه الغرب واخرى لمصلحه الشرق ، كما نرى بعض ابناء المسلمين يحسمون له حماسة تجعلهم يعدونه نظاما قائما بذاته لاهو بالنسبة ولا هو بالعربي وانما هو قوة منفردة يطمحون الى بعثها من جديد ليقدوا بها انفسهم وبلادهم مما يحيط بها من عوامل الاضطراب العالمي والمحلي .

وليس من غرضنا في هذا المقال ان نعالج التفسيرات السياسية الحديثة للاسلام وانما نشير الى بعض اتجاهاتها كي نبين الاهمية الجوهرية لمثل هذا الموضوع في مثل البقعة التي نعيش فيها من العالم . فالباحث الهندي « الشيخ مشير حسين قدواني » في كتابه : "Pan-Islamism and Bolshevism" يرى في الاسلام شيوعية اسبق واسمى من شيوعية البلاشفة في روسيا ، وهو دعوة الى « توحيد الله ، واخوة الانسان » ورفع الشريعة الاخلاقية والروحية واتقاذها الاقتصادي ، والعدم العقلي والمادي والحربة السياسية لكافة الامم وكافة الشعوب ، والعاء الملكة الخاصة والاستقلال والشم والاستعباد في كل مكان وفي جميع العصور « (١) ومن الطريف ان نرى شعبا آخر من شعوب الاسلام المصريين حين يسأله مندوب من ممثلي المعسكر العربي عن وجهة نظر الاسلام من الشيوعية يعطينا تفسيراً مناقضاً لتفسير الشيخ الهندي . فصاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد سليم حين كان شيخاً للجامع الأزهر قال « ان الاسلام وان من الشيوعية بما حوى من مبادئ خطيرة في تشريعاته ، لان جعل

(١) جريدة المصري عدد ٢٧ مايو سنة ١٩٥١ و ١٥ يولييه سنة ١٩٥١

للسيوعية وغيرها من الدعوات المتطرفة طريقا الى قلوب الناس . فهو يأمر بالتضامن والتكافل الاجتماعى الى أبعد مدى يتصوره الانسان . ولكنه في الوقت نفسه لا يتعرض للملكيات ولا يحدد منها . بل يفرض على هذه الملكيات للدولة من الحقوق المالية ما يراه كفيلا بقيام بيت المال او وزارة المالية لرعاية مصالح الدولة وحقوق الشعب » (١) ولقد ترجم عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية هذا الراى الذى يمثل قول الشيخ عبد المجيد سليم الى لغة السياسة الدولية التطبيقية حين صرح في اللحظة التى كان يسعى اثناءها وزير خارجية مصر ، الدكتور محمد صلاح الدين ، للحصول على تأييد روسيا لمطالب مصر العمومية ، ببيانه في باريس عن الاسلام والشيوعية اذ قال : « ان الاسلام كان دائما حاجزا منيعا دون تطرق السلافيين نحو الجنوب . » ثم قال « وسنبقى مخلصين لدينا واعداء نابئين للشيوعية » (٢) .

وان كان راي شيخ الجامع الأزهر السابق وراى الأمين العام السابق للجامعة العربية هما رايى رجلين يشعزان مصيبتين رسميتين . فهناك من الآراء ما يعبر في مصر دائما عن وجهه نظر متطرفة في فهم الاسلام والدولة . وهذا التطرف يمثل باردا الى اليسار وتارة اخرى الى اليمين . ويبدو هذا الاتجاه واضحاً اذا ما اطلعنا على كتابى « من هـا . نبدأ » (٣) و « من هنا نعلم » (٤) ونحن لانريد ان نشبع تحليل الادب السياسى الاسلامى المعاصر في هذا المقام ، اذ غاية مايسفى من هذه المقدمة لبحثنا في الدين والدولة اثناء عهد النبى هى توجيه النظر الى مثل هذا البحث في بلاد ظهر فيها «الاخوان المسلمون » واحتت احساسا مباشرا بقيام دولتى « الباكستان » و « اسرائيل » (٥) على اساس لايعرف الفصل بين الدين والدولة .

— ب —

فنعرض الحركات الاسلاميه المعاصرة اخذت تنظر الى الورا لتعرف كيف تسير الى الامام . وذلك بعد ان تبين للعالم كله ان النظر الى الامام فحسب لم

(٢) جريدة الاهرام عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥١

(٣) خالد محمد خالد — من هنا . نبدأ

القاهرة ١٩٥٠ (الطبعة الرابعة)

(٤) محمد الفزالى — من هنا نعلم — القاهرة ١٩٥٠

(٥) Joseph Dunner — The Republic of Israel, Its history and promise. New

York, Whittlesey House.

بعد ذلك الحلم النوصاء الذى سئل فيه مفكرو الثورة الفرنسية نعم الهادى للبسر الى بلوغ الفردوس على الارض . فالعلم لا يسير في مقدم مطرد نحو الكمال كما شاع بين المفكرين في يوم من الايام ، بل يتعرض الآن لحظر العودة الى عصور التوحش والهمجية . ومن ثم يكف بعض المسلمين الآن خاصة في الباكستان وفي مصر على التنقيب في تجربتهم التاريخية عليهم يجدون فيها بدور الصلاح والوصوح لحياة مضطربة منهكة . وفلسفتهم في ذلك فائمه على ان اعرد منا اقدر على الافادة من تجربته الخاصة منه على الافادة من تجربة جاره . وكذلك الشعوب . فالشعب الاسلامى يستطيع ان يدرك من ضروب القود في المجمع الاسلامى الاول ما قد لا يستطيع ادراكه في حشد المجتمعات الاخرى فديمها وحديثها .

ونحن نقصر هنا على ان نعرض لثلاثة مبادئ اساسية سحلى في نشأة الدولة العربية اثناء عهد الرسول . وتطابق الى حد بعيد على السالى ثلاث فترات ترى تقسيم عهد الرسول اليها :-

(١) العشر سنين الاولى من البعثة وهى فترة يكون الجماعة الاسلاميه في مكة ،

(٢) والثلاث سنين التى تعقبها وهى فترة تأسيس دولة المدينة ،

(٣) ثم العشر سنين التى تتم بها بعنه الرسول وحياته وهى فترة يكون الدولة العربية القومية .

وهذه المبادئ الثلاث هى :

(١) مبدا الوحدة الاجتماعية (٢) ومبدا المسئولية السياسيه والاجتماعيه

(٣) ومبدا القوة .

(١)

امامبدا الوحدة الاجتماعية ، فيبدو قويا اخادا مع ظهور الدعوة الاسلاميه . ويسير فعله في ببطء بادىء الامر ولكن يسير سيرا وثيقا اكيدا . اذ اخدا المؤمنون بالدين الجديد في مكة يقتربون بعضهم من بعض وكونون جماعه مترابطة بأواصر الاسلام ترابطا تكاد تخفى حلفاته وتندمى ذراته فيصيح وحدة تامة ، ان تميز افرادها فتميز اعضاء الجسم الواحد . وما ان تكونت الجماعة الاسلاميه الاولى من افراد يسهل احصاؤهم عدا على الاصابع حتى وضعت نواة المجتمع الاسلامى ونواة الدولة الاسلاميه في آن واحد . فربما ان المجمع

الحدود لا تمتد في سبيله على الاعداد المترادة من النشر بل على العقول المشابهة في التفكير والارواح الموحدة في الشعور ، وانه لا يسمد حياته من النشاط الذي امتاد مراولته العرب قبل الاسلام . بل ستمدها من شيوخ الدين الجديد الذي ينسج عقول اتباعه وارواحهم في نسج متماسك مجاوب . لقد قفز المجتمع الاسلامي فقرة مسانرة الى الوجود لانه اكتسب وحدة سريعة عن طريق الوحدة العقلية التي امتاز بها المسلمون والتي كانت الاساس المكين للمجتمع الاسلامي . ومن ثم يؤيد شاه الجماعة الاسلامية وطروف تكوينها راي المفكرين السياسيين الذين يمالحون شئون المجتمع معالجه سيكولوجية فمعروف المجتمع بأنه ترابط عقلي بين الافراد قبل ان يكون جوارا مطلقا او تعاقد اجتماعيا فحسب . (١)

ولقد كان هذا الترابط العقلي بين اعضاء الجماعة الاسلامية الاولى ، العامل الاول الذي جعلهم قوة منسفة على المجتمع المكي يخشى خطرهما على نظام مكة السنت سياسي واجتماعي واقتصادي . فالدين الاسلامي لم يدع الناس حمما الى عبادة اله واحد والى تحطيم آلهة العرب من الاوثان مقتصر بذلك على شئون الروح فحسب ، بل مست دعونه شئون الحياة ونظامها كذلك (٢) . ولهذا راي المشركون من اهل مكة ان ثورة الاسلام الروحية لابد من ان تترجم الى نوره اجتماعيه . فهو دين يخالف معتقداتهم التي ورثوها عن آباءهم ويتحدى في الوقت نفسه بطمهم الاجتماعية التي تسند الى هذه المعتقدات . ولذا لم يسمعهم الا ان يحاربوه . ولو فعلوا غير ذلك لعجبنا منهم . اذ لس آلم للنفس من تغل فكرة جديدة كما يقول والتر باجت (Walter Bagehot) ، (٣) ، والاسان حل على مقاومه كل ما يهدد صالحه واضطهاد ما يخالفه . ولقد تابدت محاور قرين على معتقداتها ومجمعها . فالمجتمع الاسلامي الاول قد يكون من الاساء والاباء والاحوسة والامهات والزوجات ، وتكون من الفقراء والاعياء ، والصمماء والافوياء . وتوحد بوحدة الايمان بالله ووحدته الاعتقاد بمبادئ الاسلام السامية .

واول ما تقابل هذا المجتمع الموحد الموحد تقالته في مشاهد الحنة التي

1. — Aristotle : Politics (Book III).

2. — Walter Bagehot : Physics and Politics.

T. W. Arnold — The Preaching of Islam (Chapter II).

London, Luzac and Company, 1935.

Walter Bagehot : Physics and Politics P. 106.

(in Works Vol. VIII edited by Mrs. Barrington).

كانت ولا تزال مواقف الاختبار لمبلغ تماسك المجتمعات وسلامة تكوينها .
 فاضطهاد قريش لاتباع الدين الجديد ممن لاحول لهم في دفع العدوان المتزايد
 يوما بعد يوم اضطر النبي الى ان يشير عليهم باختيار حل سلبى - الا وهو
 الهجرة الى الحنة التماسا لحمى النجاشي (٤) . وهذا اول حدث انفصالي
 من نوعه في مكة . فما كان من المكيين الا ان ارسلوا في انهم سفيرين - عبدالله
 بن ابي ربيعة وعمر بن العاص بن وائل - يحملان الهدايا الى النجاشي
 وبطارفته ليسلم المسلمين اليهما ويردهم عن جواره وبلاده الى موطنهم الاصلى
 حيث يلتقون جزاءهم على ما فعلوا . وهناك امام محكمة النجاشي نسمع في
 وضوح راي من الغريبيين والآخر . وابعدهم من ذلك فانا نكشف الاسر التي
 قام عليها المجتمع الاسلامي ، ونسبين صورة مقارنة بين النظام الاجماعي القديم
 والحديث . فسفيرا قريش يقولان عن اللاجئين المسلمين :

« ايها الملك انه قد صوى الى بلدك ما غلمان سبهاء فارقوا دين قومهم
 ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابدعوه ليعرفه نحن ولا انت وقد
 بعثنا اليك فيهم اشراف قومهم من آبائهم واعمامهم وعشائيرهم ليردهم
 اليهم فهم اعلى بهم عينا واعلم بما عابوا عليهم وعانواهم فيه . »

اما عن اللاجئين المسلمين فقد ناب عنهم في الحدث الى النجاشي « جعفر
 بن ابي طالب » فقال له :

« ايها الملك كنا قوما اهل جاهلية نعبد الاصنام وناكل الميتة ونأني
 الفواحش ونقطع الارحام وننسى الجوار وياكل القوى منا الضعيف ،
 فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه
 وامانته وعفافه فدعانا الى الله لتوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن
 وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوران وامرنا بصدق الحديث واداء
 الامانة وصله الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا
 عن الفواحش وقول الزور واكل مال اليتيم وقذف المحصنات وامرنا
 بالصلاة والركاء والصيام . . . فصدقناه وامننا به واتبعناه على ما جاء
 به من الله فصدنا الله وحده لاشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا
 واحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا
 الى عبادة الاوثان من عبادة الله وان نستحل ما كنا نستحل من الخبايا
 فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا
 اى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في حوارك ورجونا ان لا نظلم
 عندك ايها الملك . »

(٤) السيرة النبوية لابن هشام ا ح ١ ذكر المهاجرة الاولى الى ارض الحنة

ومن هذا الحوار الذى يروى على لسان المهاجرين يظهر جليا ان المسلمين منذ البدء كانوا لا يشعرون بتماسك جماعتهم فحسب ، بل يشعرون ايضا ان هذا التماسك قائم على مبادئ روحية واجتماعية ارفع من المادى التى يستند اليها المجتمع المكى . وكفى ان يبرز من افول المسوب الى المهاجرين اشارتهم الى ان فى المجتمع المكى كان « يأكل القوى الضعيف » حتى ندرك مدى اعتزاز المسلم بمجتمعه الذى اصبح ينتسب اليه ، ومدى استمساكه ببقائه مهما جلب عليه ذلك من صنوف الارهاب والتعذيب ، بل كان الاضطهاد فى ذاته سببا سلبيا اضيف الى الاسباب الايجابية التى جعلته يغنى فناء تاما فى النظام الاسلامى الروحى والاجتماعى .

— ٢ —

وان كان مبدا الوحدة الاجتماعية بين المسلمين هو المبدأ السياسى الاول الذى نلاحظ فعله فى تكون الجماعة الاسلامية اثناء العشر سنين الاولى من البعثة ، فذلك لانه يمهّد الى فعل المبدأ الثانى وهو مبدا المسؤولية السياسية والاجتماعية . فلقد ظهر مبدا المسؤولية السياسية والاجتماعية ظهورا ميز الدولة الاسلامية فى ١ - فترة التحضير لقيامها عن طريق المفاوضة والمعاهد مع اهل يثرب - ٢ - وفترة التنظيم بعد تأسيسها فعلا فى المدينة .

١ - اما فترة المفاوضة بين النبى وبين من لقبهم فى مواسم الحج من الأوس والخرج من اهل يثرب ، فقد انتهت كما نعلم ببيعنى العقبة الاولى والثانية . اذ اجتمعت كل الظروف المواتية التى تجعل من يثرب دولة المدينة الاسلامية الاولى . فأهلها من قبائل الأوس والخرج كانوا فى صراع دائم مستمر كان آخر أيامه يوم بعث الله قتل فيه غالب رؤسائهم ولم يبق الا عبد الله بن ابي بن سلول من الخزرج وابو عامر الراهب من الأوس . ولذلك كانت عائشة تقول « كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) ولقد خلق هذا الصراع جوا لا يطاق من الخوف المستمر من الموت يذكرنا بجو الحياة البدائية المتوحشة الذى يصفه « توماس هبز » (Thomas Hobbes) (٢) ويفترض دفعه الافراد الى تولية حاكم من بينهم يتنازلون له مختارين عن سلطاتهم وحررتهم فى سبيل ضمان الامن والحياة لهم . وانا لنلاحظ فى الظروف التاريخية لانه له المدح سببا فيها ومن ظروف نشأة الدولة الافراضية

(١) محمد الحضرى - ور اليعين فى سيرة سيد المرسلين ص ١٠٠ طبعة

رابعة ١٢٢٧ هـ

Thomas Hobbes — Leviathan.

(٢)

عند « هين » ، والتي تقوم في رايه على العقد الاجتماعى . فما ان دعا سيدنا محمد من قابلهم من اهل يثرب الى اعتناق الدين الجديد والى منعه من اعتداء قريش حتى وجدوا في هذه الدعوة فرصة نادرة لان يكونوا الانصار للنبي الذى بشر اليهود في يثرب بمقدمه ، وليحصلوا على رعيم ديسى وسياسى يعبد الى بلدهم الهدوء والاطمئنان بعد ان عجزوا عن الاتفاق على الخضوع لرعيم من بينهم . وان كان هنالك من يرى انهم كانوا على وشك تعيين عبد الله بن ابي بن سلول الا ان استاذنا عبد الحميد العبادى يذهب الى انه لم « تكن هناك رغبة صادقة في تملكه » (١)

ويعمى هذا المعام ن لعب النظر خاصة الى سعة العفة الثانية . وهى الميثاق الععلى لقيام دولة المدينة . اد فوق كونها معاهدة على الايمان بالله ورسوله، فهى معاهدة سياسية عسكرية ، تضمنت في نصوصها مبدأ المسئولية المشتركة بين صاحب الرسالة الاسلاميه وبين انصاره من الخزرج والاوس . ولقد حرص الطرفان على تأكيد هذه المسئولية بين الحاكم والمحكوم . فشروط الدعوة والايمان في هذه المعاهدة لم تقتصر على مجال الفكر والقول ، بل تعدته الى مجال العمل والتنفيذ . فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يطلب الى المسلم من يشرب ان يؤمن بقلبه وان يعلن ايمانه فحسب ، بل طلب اليه ان يمنعه بسيفه من اعتداء المعتدين منعه لدويه من الساء والبس . كما ان من لم يشرب احتاطوا للامر بدورهم بان طلبوا الى الرسول الا يهجرهم عند بلوغه النصر وان يدافع عنهم ضد اعدائهم من اليهود وغير اليهود دفاعهم عنه ضد اعدائه . فقبل كل منهما ماطلب اليه الآخر . ويروى لنا « ابن اسحاق » تفاصيل هذه المعاهدة على لسان كعب وهو من وفد الانصار فيقول :

« قمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالتنا حتى اذا مضى ثلث الليل حرجنا من رحالتنا لميعاد رسول الله صلعم نسلل نسلل انعطأ مسحف حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبه ونحن ثلاثة وسبعون رجلا ومعنا امرأتان من نساينا نسيبه بنت كعب ام عماره احدى ساء بنى مارن بن النجار واسماء بنت عمرو ابن عدى بن ناي احدى نساء بنى سلمه وهى ام منيع قال فاجتمعنا في الشعب ننظر رسول الله حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويوثق له . فلما جلس كان اول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال يا معشر الخزرج . . . ان محمدا منا حيث

(١) عبد الحميد العبادى - صور من التاريخ الاسلامى - العصر العربى

قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه . . . وهو
 في عز من قومه ومنعة في بلده وانه قد ابى الا الانحياز اليكم والحق
 بكم فان كنتم ترون انكم وافون له فيما دعوتكم اليه وما نعوه ممن
 خالفه فاسم وما تحمنن من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه
 بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة من قومه وبلده
 قال فقلنا له قد سمعنا ما قلت فكلكم يا رسول الله فخذ لنفسك
 ولربك ما احببت قال فتكلم رسول الله صلعم فلا القرآن ودعا الى الله
 ورغب في الاسلام ثم قال ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه
 سديكم واساءكم قال فاحد اسراء بن مهروز سده ثم قال . . . نعم
 والذي بعثك بالحق نبيا لئلا تمنعك مما تمنع منه اررنا قايعا يا رسول الله
 فحي والله انشاء الحروب واهل الحلقة وراثتها كائرا عن كابر قال
 فاعرض القول والراء . . . كلهم ر . . . ول الله صلعم ابو ابيهم بن السهال
 فقال يا رسول الله ان يسار بين ارحال حسالا وا . . . فاطمونها عنى
 اليهود فهل عسيت ان يحن فعلى ذلك ثم اظهره الله ان ترجع الى
 قومك وتدعنا . قال فسم رسول الله صلعم ثم قال بل الدم الدم
 والهدم الهدم انتم منى وانا منكم احارب من حاربتكم واسالم من
 سالم قال ابن هشام وقال الهدم الهدم يعنى الحرمة يعول حرمتى
 حرمتكم ودمى دمكم (١) . . .

٢ - ولكن هذه المسئولية السياسية التى تعاقب عليها السى والانصار من
 اهل يثرب لا تمتد جذورها الى مصدر العهد الاجتماعى فحسب . بل وجدت
 في الواقع ارضا خصصه في تعاليم الدين الاسلامى ذاته وفي منحه تنفيذها على
 يدى سيدنا محمد . اذ له بهاجر سيدنا محمد وابياعه الى يثرب حتى أعلن
 كتابه الدستورى المشهور الذى شره بن المهاجرين والانصار واليهود قيام
 الامه الاسلامة وتعردها بين كافة الامم . فهو يقول :

« هذا كتاب من محمد النبى بين المؤمنين والمسلمين من قرش ا واهل
 يثرب ومن نعمهم فتحى بهم وجاهد معهم . انهم امه واحده من دون الناس » (٢)
 وفي اللحظة التى أعلن فيها قيام الامه الاسلامية ، أعلن أيضا اشتغالها في
 دولة المدينة الاسلاميه السى تنظم شئونها الداخلية والخارجية وتصون وجودها .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (أمر العقبة الثانية - ٢ ص ٨٤)

(٢) محمد حمزة الله الحيدري آبادي - مجموعة الوثائق السياسية في العهد
 النبوى والخلافة الرشيدة ص ١ القاهرة - دار النشر والتأليف والترجمة والنشر ١٩٤٤

ولقد فصل هذا الكتاب الدستوري مبادئ الحكم في الدولة الجديدة . واهم ما يلفت انظارنا نحن الذين نعيش في عهد الاشرار واليهود وشيوع الخدمة الاجتماعية ، ان دولة المدينة لم تكن دولة بوليسية تحفظ لمن عنده ما عنده من حياة ومال فحسب ، بل قررت في وضوح تام مبادئ المسؤولية السياسية والاجتماعية .

ولقد اتخذ الضمان الاجتماعي شكلين يميزان جبا الى جنب ويكمل بعضهما بعضا . فهناك ضمان قبلي داخل كل قبيلة او طائفة والمهاجرون من قريش ، وقبائل الاوس والخزرج ، مسئول كل منها عن افرادها في سرانها وضرائها « فهم على ريعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عابهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » والنظام الاسلامي في هذا يقرر تقليدا عربيا سابقا ، وذلك لان كل قبيلة كانت بحكم عصبيتها مسئولة عن سلوك افرادها في الخير والشر ، في النصر والقتل ، في الفدية والثأر .

اما الجديد في مبدأ المسؤولية السياسية والاجتماعية ، الذي اضافته الاسلام الى نظم العرب ، فهو التمام عن اتحاد مبدأ العصبية القبلية مفررا وحده لعلاقات العرب ، واستغرافه في مبدأ اوسع واعم وهو مبدأ الاحود في الدين . فاعضاء الامة الاسلامية الجديدة لم يعودوا قبائل معزقة كما كانوا من قبل ، بل اصبحوا مواطنين في الدولة الاسلامية ، لا يقرر حق مواطنهم بالميلاد او الشرف او الدم بل يتقرر بالاشتراك في الايمان والجهاد في سبيله . ومن ثم كانت الدولة الاسلامية مسئولة عن مواطنيها كافة . فيقرر النبي :

« ان المؤمنين لا يركون مفرحا بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عمل »
« وان المؤمنين المقمن اشد هم على كل من نفي منهم او اسقى دسبمه ظلم او اثما او عدوانا او فسادا بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم . »

« وان سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . »

« وان المؤمنين يسيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله . »

ويقرر النبي في كتابه الدستوري ، غير ذلك من القرارات التي تنبع جميعا عن فكرة واحدة ، فكرة الاخوة والمساواة الفعلية بين المسلمين . والنبي لا ينشر هذه القرارات على الناس ويركها لاختيارهم يسمونها او بهجرونها كما يشاءون ، بل يعلن ان الامر في تنفيذها قد آل اليه وحده ، فهو صاحب السيادة الاوحد الذي يقضى باسم الله فيما يستجر من خلاف بين المؤمنين .

ولذا نرى أن المسئولية السياسية والاجتماعية بين المواطنين في دولة المدينة قد تضمنتها سيادة الدولة وسلطانها ، القائم على احكام الدين والذي يشمل برعايته كل من يستظل به حتى من غير المسلمين طالما يرعون نوااميسه .

(٣)

اما المبدأ الثالث وهو مبدأ القوة فيظهر في المرحلة الثالثة وهي مرحلة جدبرة بالاهتمام لان أسلوب الجماعة الاسلامية قد اتخذ طابع القوة المادية الى جانب القوة الروحية . ففي العهد المكي من الدعوة لم يكن في وسع سيدنا محمد الا ان يلجأ لوسائل سلمية امام اضطهاد قريش ، فيقبل الهجرة لاتباعه الى الحبشة ، ويقبل الحصار الاقتصادي والاجتماعي مع بنى هاشم وبنى المطلب الذي فرضه قريش في صحتها المعروفة . اما وقد اسردولة المدينة واصبح المجتمع الاسلامي الجديد قوة يستطيع ان تقف على قدميها في وجه العدو . فلا حاجة اذن الى مقالة الاذى بالحلم ومقالة عدم التسامح بالرضا . فالعنف والقوة رد القوه . وتقرر هذا الاجراء الجديد بوحي من عند الله في كتابه المقدس . اذا امر الله نبيه بالقتال دفاعا لا اعتداء .

وان قتال المشركين والدفاع عن دولة المسلمين الجديدة بالسيف قد عرف بين المسلمين بالفرو وعرفت المواقع المشهورة بين المسلمين والمشركين بالفروات . وكلنا يعرف غزوات بدر واحد والاحزاب (الخندق) والحديبية وفتح مكة وحسين والطائف وغيرها . فالغزو اذن اصبح سلاحا من اسلحة بناء الدولة العربية الاسلامية والمحافظة عليها . ولقد كان اسلوبا حاسما في بناء الدولة الاسلامية . وبلاحظ المطلاع على تاريخ هذه الغزوات انها كانت سجلا عينا بين الطرفين ملئت صفحته بالدموع والدماء ، وملئت بالام انسانية ابعد من هذه الالام ودلائل لان المعيدة الحديدة كثيرا ما عرف بين الاب وابنه والاح واخيه والام وابنها . فالمهاجرون الى بئر لم يكونوا سوى قطع من قلوب قريش ودمائها . ورغم كل هذه المحن التي ابلى بها الفريقان لم يكونا ليسفرا على شيء سوى ابتداء الصراخ . اذ ليس بينهما من وسط للطريق يلتقيان فيه . فليس بين الوحيد والشرك وسط ، وليس بين دولة الاسلام ودولة قريش من التقاء سوى الفناء أو التسليم . وكانت النتيجة ان سلمت دولة قريش وان دخلت في دولة الاسلام العامة تحت لواء الدولة العربية الجديدة . وما كان تسليمها الا نتيجة الهزيمة في الميدان ، ولقد تبعها القبائل العربية المشهورة مثل ثقيف وهوازن بعد ان غلبت على امرها امام قوة سيدنا محمد الى ما كانت لتقهر قهرا جزئيا الا لتنتصر انتصارا عاما . فسيف الاسلام كان الفصل النهائي في قيام الدولة العربية القومية .

مامعنى هذا فى نشأة الدولة العربية ان صله الفرو بقيام الدولة العربية
 يدكرنا فى هذه المرحلة من مراحل تكوينها بما ذهب اليه دعاة مذهب القوة فى
 نشأة الدولة خاصة «جيمبوفتس» (Gimpłowicz) وتلميذه «أوبنهايمر»
 (Oppenheimer) من «ان الدولة اثناء المراحل الاولى من تكوينها هى نظام
 اجتماعى فرضته جماعته منتصرة من الناس على جماعة منهزمة مدفوعة بالعرض
 الوحيد وهو تنظيم سلطان الجماعة المنتصرة على الجماعة المنهزمة . . ولكن
 بهمنا ان نسأل فى هذا المقام عن ماهية هذه القوة التى استخدمها المسلمون فى
 تأسيس دولتهم . أهى قوة مادية وحسب ؟ أهى قوة السيف وحده ؟ أم ان
 السيف اداة فى يد قوة اعظم منه ، هى القوة المصوية للجماعة الاسلامية اسلحة ؟
 ان مثل هذا السؤال يبين لنا ان القوة المادية ما هى الا تعبير لقوة معنوية
 معجزة . فالسيف الذى استعمله المسلمون لـ . . من طرار سير الفزار
 الذى استعمله المراكور . وسيف المسلم لم يكن تسفا حديدا مل
 القبله الدرية فى ايامها يستعملها قوم ليبعدوا بها قوم اخرين فى طريقه
 عين . بل كان الاداة العليده للحروب العربية . واما الكسف الحدد
 فيما دار من غزوات بين المسلمين والمشرىين هو الدين الاسلامى فى بدنه وما
 اثار من ايمان قوى بين المؤمنين ومن اسطهاد لايعل قوة عن ذلك الايمان .
 ولقد كانت العله آخر الامر للايمان على الانكار والكفر . ولقد كان السيف
 فى يد المؤمن افعل منه فى يد الكافر ؛ لماذا ؟

ان ذلك يرجع الى ان الدين الاسلامى كان ثورة روحية واجتماعية .
 ولقد هزت هذه الثورة نفوس المسلمين هزا عتيقا . وفى هذه الهزة النفسية
 خلصوا من كثير من العظم والتقاليد التى كانت تملأ نفوس غيرهم من العرب
 بالضباب ، وتثقل ارواحهم بأعباء تقال . فانطلقت نفوس المسلمين من معالها
 واصبحت حرة بفيض بالحوية فى عالم المثل الدينية والاجتماعية الجديدة .
 واذا تخلص المسلمون من عادات العرب وخرافاتهما ومن التقاليد الثقيلة الموروثة
 تخلصوا فى الوقت نفسه من الخوف من الموت . وكان هذا مصدر قوتهم
 وتفوقهم على اعدائهم . فالمسلمون كافراد كانوا يرون ان العيش فى ظل
 الاسلام عزة فى الدنيا ونعيم فى الآخرة . ولقد جاء الاسلام بنظام يضمن للمسلم
 اتصال الدنيا بالآخرة ، ويضمن له الحياة المقيمة ، فاستشهد المسلم فى الجهاد
 ليس فناء بل لقاء سرمدنا . ويبدو ذلك حين نلاحظ ما كان الفريقان
 المتحاربان يستعملانه من شعار فى الغزوات وما كانا يتخذانه من دوافع تحفز
 اليهم على القتال . فالمسلمون حرصوا على ان لمحقوا الى الله فى الماسهم
 النصر ، اما المشركون فقد التجأوا الى دوافع محسوسة من دوافع الحماسة
 العربية التقليدية . فيقول ابن اسحق عن مناشدة الرسول ربه النصر فى
 يوم بدر :

« ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ، ورجع الى العريش فدخله ، ومعه ابو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتأشدر به ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم لانفسد وابو بكر يقول يا بنى الله : بعض مناشدتك ربك : فان الله محزر لك ما وعدهك . وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : ابشر يا ابا بكر ، اناك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناباه النفع » (١)

وقال ابن اسحق ايضا :

« ثم حرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس فحرضهم وقال : والذى نفس محمد بيده ، لا يعالكم اليوم رجل يقبل صابرا محسبا . مقبلا غير مدر . الا ادخله الله الجنة . فعزل عمر بن الحمام ، اخو ربي سلمة . وفي يده تمرات يأكس : يخرس . انفسا بنى ربي ان ادخل الجنة الا ان غسني هؤلاء . ثم قدس التمرات من يده واحد سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل » (٢)

وحكنا ان تلمس الفرق بين هذا الدافع الدبني الحدد في ميدان الحرب وبين غيره من الدوافع الحماسة التي تراها بين الفريق الآخر حين نسمع في احد « هذا بنت عمة وهي تحرض اهل مكة على القتال » او يقول ابن اسحق :

« فلما التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها ، واخذت الدروع يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم ، فقالت هند فيما تقول :

وبها بنى عبد الدار ، وبها حماة الأدبار

فرايا يكل بنار ، ضريا يكل بنار .

وتقول :

ان نعلوا نعلاني وتعرش النصارى

او تدبروا ففارق ، فراقضير وامق (٣) ارايا

ويرى الفرق ايضا حين نشهد في غزوة « حنين » ان مالك بن عوف النصري قد ساق مع الناس « اموالهم واباءهم ونساءهم » ليجعل « خلف كل رجل

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ ص ٢٧٩)

(٢) السيرة (٢ ص ٢٧٩)

(٣) السيرة (٣ ص ٧٢)

(٢١)

(٢٢) السيرة (٣ ص ٧٢)

منهم أهله وماله ليقاتل عنهم « (١) .

وهكذا نرى ان الاسلام قد اضاف الى القوة العربية في ذلك الوقت عاملا روحيا الهيبا وجعلها تؤتى ارواحا تستطيع النفس الشريفة في عالم النجاعة والتضحية بالنفس . وبدا يصدق ما ذهب اليه « كارليل » (Carlyle) من ان الجيوش التي تخشى الله هي خير الجيوش ، وما لاحظته « والتر باجت » « من ان الناس كانوا يضحكون من كرومويل حين كان يقول لجيوشه ، ثقوا بالله واحفظوا البارود جافا ؛ على حين ان الثقة بالله كانت تعادل البارود في فونها ان لم نغفقه . وذلك لان التركيز العظيم للشعور المترن يجعل الناس يجراون على اقترحام أى شيء وفعل أى شيء » (٢) .

ولكن لم يغف أثر الدين الاسلامي في الجماعة الاسلامية وفي مواطني الدولة الجديدة عند تزويدهم بالقوة المستمدة من عاملى الخوف من الله وعدم الخوف من الموت ، بل في الواقع اسند الى اعداء من ذلك . فقد خلق لنا مجتمعا موحدًا متماسكا جاءت وحدته وتماسكه نتيجة لاجتماع المسامحين على معتقداً واحده ومبادئ واحدة وسلك واحد مما ربط كما ذكرنا بين اديانهم ونسجها جميعا نسجا موحدًا متماسكا جعلهم يفكرون وسلكون ويعملون في حافة السلم والحرب كما يفكر الرجل الواحد ويسلك ويعمل . وفوق ذلك فان هذا التوحيد والتماسك بين افراد المجتمع الاسلامي قد قام — كما ذكرنا ايضا — على مبادئ اخلاقية واجتماعية راقية نسله . ومن ثم بلغ اوج القوة المادية والمعنوية بالنسبة لمجتمعات العرب المحيطة الى امورها هذا التوحيد وهذا التماسك كما امور المبادئ العالية الى ان اسند اليها مجتمع وعمل بها استطاع ان يتغلب على المجتمعات المفككة الضعيفة . وفي هذا ترى تطبيق نظرية « والتر باجت » التي ساقها في كتابه « الطبيعة والسياسة » اذ ذهب الى انه في التنافس على البقاء بين الناس تغلب الجماعة الفرد . وتغلب الجماعة المسقة الجماعة المفككة ، وفي تنافس الجماعات المسقة تغلب الجماعة الاحدة بمبادئ ارفعى وانبل . وفي هذا الصراع بين الجماعات خاصة في العصور الاولى من تاريخ البشر نشأت الامم وقامت الدول بما فرضه الغالب على المألوف من اساع لنظمه وخضوع لسلطانه .

(١) السيرة (ج ٤ ص ٨١)

Walter Bagehot — *Physics and Politics* P. 50

(٢)

ولكن من الجدير ان تؤكد بعد الحديث عن المبادئ الثلاثة السياسية التي لاحظنا فعلها في نشوء الدولة العربية القومية انه ماكان في وسع هذه المبادئ ان تعمل في الفراغ . وانما اكتسبت حيويتها ونفوذها لا من الناحية النظرية العامة بل من ناحية العامل الشخصي الذي جعلها تعيش بين العرب في حياتهم الخاصة والعامة . ولقد تمثل هذا العامل الشخصي في محمد عليه الصلاة والسلام . ففي تفكيره وفي سلوكه ، وفي قراراته وفي عمله ، كان المثل الحي لما انطوت عليه رسالته السماوية من تنظيم اجتماعي .

فمنذ البدء نشاهد رجلا مصمما على اثناء مجتمع جديد ، وبصيرا بمعالمه ومنهاج بنيانه ، ومدركا للحقيقة العظيمة ان المجتمع الجديد لن يقوم الا على حساب المجتمع القديم . وسد هذا الصراع بين نظم سعى الى الميلاد ونظام يسقى واد الوليد المطاع الى الحياة ، من قلق السادة في قريش على وحدة محمهم وتوكيدهم الشكوى بأن محمدا لا يحط من قدر آلههم وعقولهم فحسب بل يعرف جماعتهم . ولقد اتانا له ذلك في حديث عام معه رجاء عدوله عن دعوته ، محددين الاقتناع وسيلاتهم الى ذلك بدل التهديد والوعيد . والحديث الابي كما يورده ابن هشام يشتمل على هذا الانهاج :

« فقالوا له يا محمد اما قد دعا اليك لكلملك وانا وابنه مانعلم رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شئمت الاء وعبت الدين وشئمت الالهة وسعقت الاحلام وفرقت الجماعه فما بقى امر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك او كما قالوا فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا وان كان هذا الذي ياتيك رؤيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمعون السابع من الجن رؤيا فرما كان ذلك بذلنا اموالنا في طالب الطلب لك حتى تبرئك منه او نعدرك فقل لهم رسول الله صلعم ما بي ماتقولون ماجئت بما جئتكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل على كتابا وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربي وبصحت لكم فان تقبلوا مني ماجئكم به فهو حظكم في الدنيا والاخرة وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم او كما قال صلعم » (١)

(١) السيرة لابن هشام (ج ١) مدار بين رسول الله صلعم وبين رؤساء

قريش

١٧٥

وفي الواقع ان البون كان شاسعا بين وجهتي نظر الطرفين وما كان لاقناع
 أو ارهاب ن يعنى بهما الى السقاء احبارى . وما كان لهم محمدا ان يعرف
 جماعة مكة اذا هي اصررت على مواصلة نطاقها القديم والممك بأسسه الوثنية
 لان محمدا كان يدرك انه بالدين الاسلامى سيستطيع توحيد هذا التفرق
 وخلق جماعة جديدة متماسكة على اسس جديدة ، افدر على مغالبة الحياة
 من الاولى ، واقدرك على ان تهيب لك سلطانا واسعا يوطد مركزها بين قبائل
 العرب وغير العرب وحميها من اخطار الغزو التى كانت تتهددها قبل الاسلام
 من القبائل المنافسة ومن الحملات الخارجية مثل حملة الفيل المشهورة . فهو
 من البدء كان شاعرا بان الدين الذى اوحى اليه لى يكون دين دولة او دساق
 دولة وانما سيكون فى ذاته دولة . ولهذا حين عاد اشراف مكة الى محاولته
 افاعه برك دعوته ، وجاءوا الى ابي طالب يستعينون به على ذلك عسر محمد
 عن هذا المطمح العظيم . وهو فى هذا المزمع سافق . رآه بعض المحسن من
 المكرر ان شأ . محمدا كان صاحب رسالة ولي كى تساحب دولة . فابى
 هشام يقول :

« فيمض اليه ابو طالب فجاء فقال يا ابي احي هؤلاء اشراف قومك
 قد اجتمعوا ليعطوك ولياخذوا منك قال فعلى رسول الله صلعم نعم
 كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العرب قال
 فقال ابو جهل نعم وانك وعشيرك كلفاء قال يقولون لا اله الا الله وتحملون
 ما يعبدون من دونه قال فصفعوا بأيديهم ثم قالوا انريدنا بمحمد ان
 تحمل الآلهة الهيا واحدا ان امركم لمحمد قال ثم قال بعضهم لبعض انه
 والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون فانطلقوا وامضوا على
 دين آباؤكم حتى يحكم الله بينكم وبينه » (١٢) .

ولكن القوم ما كانوا ليمضوا بما بعدهم محمد من ملك العرب والمعم ، فهم
 احرص على صيانة سلطانهم الراهر المستتب من ان يحروا وراء تأسيس دولة
 خيالية . وهم قوم واقعون يعرفون ماكانوا يحنون من حكمهم لمكة ، والهيمنة
 على جميع انواع النشاط المتصلة بعبادة الاوثان ، وولاية مناصب الدولة
 ووظائفها مثل السدانة والسقاة والرفادة والعقاب والتدوة والقيادة والمشورة
 والاشفاق والاعنة والسفارة والايثار والحكومة والاموال المحكرة والعمارة ،

- (١) على عبد الرازق - الاسلام واصول الحكم (الكتاب الثانى - الباب
 الثالث) القاهرة سنة ١٩٢٥ . (الطبعة الثانية)
 (٢) السيرة لابن هشام (٢ ص ٥٥ - ٥٩)
 ٣. جورجى زيدان - تاريخ المدن الاسلامى (ج ١ ص ٢١ - ٢٢)
 القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٥٢

فما كانوا ليسوا كوا غنما محققا يستمتعون به الى غنم موعود لا يحقق الا بهجرانهم
ماضيهم وحاضرهم وصالحهم المحسوس . وعلى قدر ما للواقعيه من اثر محمود
في توجيه السطم وحياة الافراد والمجمعات ، الا انها كثيرا ما تعمى اصحابها عن
ادراك ما في آراء من يسمون اردراء بالخياليين من خصوبة وما تنطوي عليه من
امكانيات الحق والابداع . فما ان منهم الا ان ابعوا الافئاع بالهديد والوعيد ،
وهم في ذلك مخلصون لمطلق عقيدتهم وصالحهم الخاص . الا ان المبشر بالدين
الجديد والدولة الجديدة لم يكن اقل منهم اخلاصا لعقيدته . فهو اول المؤمنين
برسالته وهو اول المؤمنين بسعيدها . فلا جدوى من ايمان لا يصحبه تنفيذ ،
او كما قد كان يقول سقراط ، من معرفة لا ترافعها ارادة وفعل ، فالمرء
الصادق في دأبها ارادة العمل . وبين شخصية الرسول وما قدر لها من اثر
في تنفيذ الرسالة الاسلاميه من رده على عمه ابي طالب حين عظم عليه « فراق
قومه وعداوتهم ولم يلبث نفسه ناسلام رسول الله صلعم ولا خذلانه » اذ قال
قوله المشهور « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على
ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته » (١)

لقد كان محمد اذن اول المؤمنين بالله ، وكان محمد اول المؤمنين ببسط
سلطان الله على الارض . ولكن كيف يبسط ذلك السلطان وكيف يتعد رسالته ؟
ان ذلك العمل الهائل لن يتم الا اذا كان محمد نفسه المل الحق لرسالته والقوة
المبلى لقومه . ولم يكن ذلك امرا عسيرا على محمد اذ ساء شاة اهله لحمل
هذه الامانة العظمى التي ائتمه عليها ربه . فشخصيته التي تمت جوانبها
واكملت دأبها عند رول الوحي تحاوت تجاوبا فعلا والمهمة الجديدة .
ولذا لم يكن لدى محمد حاجة الى ان يغير اسلوب سلوكه بعد الرسالة ، فاعماله
في نشر الدين وبناء الدولة ليست سوى امتداد لمهجه في حياته الخاصة قبل
ذلك . فعن طريق محمد سحلى في جمعه المنسجم بين صفات السيد وصفات
العامل . اذ جاء من اسرة لها السيادة فورت عنها التبل والترف ولكنه جاء من
فرع لم تجمع له السيادة الاقتصادية الى جانب السيادة في الحكم ، فكان عليه
مد الطهولة ان يعمل ليكتسب قوته وان يكسب اساء جهاده في سبيل العيش
ان السيادة الحقيقية لا تقوم الا على العمل ، وان العمل وحده هو اساس
السادة في الدولة الجديدة . فراعى الغنم في الطهولة والعامل في تجارة خديجة
بين مكة والشام في مستقبل العمر وحد امرا طبيعيا ان يواصل اسلوبه بعد البعثة
فيكون بناء في مسجد المدينة وان يكون جنديا في غزوات الاسلام . فان هشام
يصف لنا وصول النبي الى المدينة واحده في بناء مسجده ومساحه فيقول :

(١) السيرة لابن هشام (١٠١) ١١٠ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨

« قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ،
ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده
ومسأكه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرعب المسلمين
في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار . ودأبوا فيه ، فقال
قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل ، للدك منا العمل المضلل (١)

وان هذا النبي الذي قاد المسلمين إلى الاشتراك في بناء المسجد يوحى من
عمله ، فادهم كذلك في ساحات القتال . وكانت قيادته لهم في أوقات الهزيمة
لا تقل روعة عن قيادته لهم في أوقات النصر . إذ كان أدري قومه بتغلب الأيام
واعمقهم إدراكاً لما تتطلبه المحن من احتمال لا يعل في قيمته عما يبديه المرء من
شجاعة في اقتحام الخطار . ولذا كان للمسلمين بعد « أحد » حير العاملين على
نقوبة روحهم المعنوية وصيانتها من الوهن والضعف بسبب الهزيمة التي لحقتهم
في ميدان القتال وما أحدثت من بلاء وحراح واستشهاد . كما كان عند فرار
المسلمين في غزوة « حنين » حين التقوا ببوارق المعبد الذي حول التهرمة
إلى نصر يشبهه في المحنة وقدرته على العادة في أخرج الأزمات وأدعاهم إلى العزم
والهلع . ونحن نرى في الوصف الذي سبقه ابن اسحق عن موقف النبي
وهو يشاهد فرار المسلمين ويدعوهم إلى معاودة القتال صورة تامة لمن
القيادة في الجو العاصف حين يمحض القائد أقصى امتحان :

« قال ابن اسحق : وحدثني الزهري ، عن كثير بن عباس عن أبيه
العباس بن عبد المطلب ، قال :

أبى لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد - حين - يهزمه إلى هباء
قد شحرتها بها ، قال : وكنت أمراً حسيماً شديد الصوت . قال :
ورسول الله صلى الله عليه وسلم حول حين رأى ما رأى من الناس
أن الناس أيها الناس ! ولم أر الناس أروى على شيء . فقال بعباس :
أصرح . يامعشر الأنصار : يامعشر أصحاب السمرة ، قال : فأجابوا :
لييك لك . قال : فيذهب الرجل ليشئ غيره . فلا يقدر على ذلك ،
فأخذ درعه . فيعد فيها في علفه . ويأخذ سيفه وترسه . ويقفحه عن
غيره ويخلى سبيله . فيؤم العدو حتى يسهى إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم . حتى إذا اجتمع إليه منهم مئة ، استقبلوا الناس ،
فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : يا لأنصار . ثم خلصت آخر :
يا للفرح . وكانوا صبراً عند الحرب . فأشرف رسول الله صلى الله

(١) السيرة لابن هشام (ج ٢ ص ١٤١)

عليه وسلم في ركائبه . فنظر الى مجتلد القوم وهم يجتلدون ، فقال :
« الآن حمى الوطيس » (١) .

وهكذا كانت نشأة محمد في بيت من بيوت السيادة علمه حكم غيره ،
وحضوعه لتجربة في كسب العيش علمته كيف يصفى الى غيره عاملين متكاملين
لتكوين الزعيم المثالي . فلقد كان اجتماع هذين العاملين داعيا الى مرونة
التفكير والسلوك والقدرة على معالجة الناس والامور معالجة بلغت كمال التوفيق
حتى لم يرتب احد في انها موهوبة . ولعل هذه الساحة هي أبرز ما تتميز به
تصرفاته في تدبير شئون الجماعات والافراد في ظل الدولة الجديدة التي اقامها
والتي كانت متسجحة هذه الدولة هي التي تقرر هذه التصرفات دور التزام
سنة جامد او متعرج نظري محدد . وربما كان في ذلك ما يفسر لنا موقفه من
المؤاحدين بين المسلمين والمساواة بين المهاجرين والانصار اول تأسيس الدولة في
المدينة ، وموقفه من الانصار والمؤلفة قلوبهم عندما اشرفت الدولة العربية
الاسلامية على السام . فصالح الاسلام هو الذي قرر الخطه الاولى كما قرر
الخطه الاخيره . وسدوا عدا جليبا من قول الرسول للانصار في تلك الحالة
النايبة حينما وجد الانصار في انفسهم شيئا من ايثاره المؤلفه قلوبهم عليهم :

« يا معشر الانصار : ما قاله بلغتنى عنكم ، وحدة وجدتموها على في
انفسكم . ألم آتكم صلافا فهداكم الله ، وبالله فاعناكم الله ، واعدا
فالف الله بين قلوبكم ! قالوا : بلى ، الله ورسوله امن وافضل . ثم قال :
الا تحبسونى يا معشر الانصار قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ الله
ولرسوله المن والفضل . قال صلى الله عليه وسلم : أما والله لو شئتم
انقلتم ، فلصدقم ولصدقم : أثبتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا
فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فأسيناك . اوجدتم يا معشر
الانصار في انفسكم في لعنة من ادسا بالفت بها قوما ليسلموا ، ووكلمتم
الى اسلامكم . الا ترضون يا معشر الانصار ، ان يذهب الناس بالشاة
والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده
لولا الهجرة لكنت امرا من الانصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت
الانصار شعبا ، لسلكت شعب الانصار . اللهم ارحم الانصار ، وابناء
ابناء الانصار » (١)

وان كان صالح الاسلام هو الذي يقرر تصرفات الرسول حسب اختلاف
الظروف وفهمه العميق لآخلاق العرب ، فانه لم يكن متعسفا في قراراته او

—

(١) السيرة لابن هشام (ج ٤ ص ٨٧) .

(١) السيرة لابن هشام (ج ٤ ص ١٤٢ - ١٤٣) .

معردا بها . فهو في هذا الخطاب الرائع الذي وجهه الى الانصار يحرص على تبرير تصرفه في المفاضلة بينهم وبين قريش وقبائل العرب الاخرى معتمدا في ذلك على ما امتاز به اهل المدينة من ايثار وما عرف به اهل مكة من اثره . وبحرصه على هذا التبرير يدلنا على انه حاكم يتبعى بناء حكمه على رضى المحكومين لا فرضه فرضا قاهرا تصفيا . وان كان في هذا الموقف قد برر فعله بعد انتهائه ، الا انه في غير ذلك من المواقف كان لا يأتى امرأ يمس الصالح العام الا اذا تزود بمشورة المسلمين غير مفرق بين رأى كبير فيهم او صغير . ومتى استمع الى جوائب الراى المختلفة واهتدى الى قرار معين التزم ذلك القرار بعزم باهر ، وعد تنفيذه جزءا لا يتجزأ من سيادته على قومه في دولة الاسلام الجديدة . فما كان رده على من دفعه الى الخروج لمقابلة قريش في غزوة «أحد» حين ظنوا انهم بمشورتهم قد استكروهو على ذلك الا ان قال قوله الباتر . « ما ينبغي لنبى اذا ليس لامته ان يضعها حتى يقاتل » (١) .

(١) السيرة لابن هشام (ج ٣ ص ٦٨) .

(السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها
مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى القاهرة
١٩٣٦ ٤ ج)

العمل والمجتمع

للدكتور حسن الساعاتي

لامراء في اننا قد وصلنا الى اخطر مرحلة في تاريخ البشر ، فالتقدم العلمي يسير بخطى واسعة جدا والرقى الفنى فى الصناعة ظفر طفرات عظيمة . وقد اصبح الآن فى الامكان انتاج ما يلزم للقضاء على الجوع والمرض والخوف ، كما اصبح فى استطاعة الانسان الآن ان ينشئ نظاما اجتماعيا تنافس فيه الفرص لكل فرد لكي يعيش ويستغل مواهبه ويحقق طموحه ويكون فى مأمن من غائلة الجوع والمرض ، ومن مرارة الكفاح المصنى لجرد الحياة والحصول على ضرورتها .

ولكن هذه لاغراض لم تحقق بعد على الرغم من تمكن الانسان من العلم والمقدرة العظمى . ولارال الشر مقامسين عن الوصول الى الاهداف السامية التى يصبون اليها . فمعد الازمة لاقتصادية العالمية التى استحكمت حلقاتها عام ١٩٢٧ حتى اوائل الحرب العالمية الثانية شاهد العالم مآسى كثيرة اذ وقف دولاب العمل فى مصانع كثيرة وتعطلت جموع غفيرة من العمال عن العمل كما اطلقت مواد غذائية بكميات كبيرة فى الولايات المتحدة وكندا بينما كان الملايين من البشر فى انحاء كثيرة من العالم جوعا محتاجين قوتهم الضرورى . وانها لسخرية بالغة ان تكشف الحرب العالمية الثانية بلاء البطالة والفاقة عن الناس ، فقد استغابت تلك الحرب كل تقوى الانتاحسة ، وترتب على ذلك وجود العمل لكل من يطلبه .

ولقد اصبح واضحا انه بينما توصل العلماء الطبيعيون الى اختراع آلات ضخمة لزيادة الاسراع فى كل بواحي الحياة احقق زملاؤهم الاجتماعيون فى تنظيم المجتمع حتى يمكن استغلال هذه الآلات لخلق عالم متقدم آمن يفصل عالمنا من وحوشه مختلفة . فقد صاحب نشوء المجتمع الصناعى تدهور قدرتنا على العيش والعمل جنسا الى جنب فى صفاء ووثام . وهاهى ذى صناعات كثيرة هددتها واضعفتها الخلافات المتكررة التى تحدث بين العمال من جهة واصحاب الاعمال وهيناتهم الادارية من جهة اخرى .

ووسط هذه الحلات وذلك التناحر ظهرت بوادر طيبة وادلة قوية على امكان تحقيق الوثام والتعاون فى الميدان الصناعى بوجه خاص ، وفى المجتمع بصفة عامة . ولتحقيق ذلك لابد من فهم الحياة الصناعية ووجوهها المعقدة ودراسة عالم المصانع التى يعرض فيها ملايين العمال جل حياتهم ، وبحث

وسائل الاتصال بين المصانع والهيئات الاجتماعية التي تحيط بها وتأثر بها يحدث فيها من وجوه النشاط المختلفة . فكل من الحي والمصنع وجماعه العمل تركيب اجتماعي خاص يتكون من العلاقات المتبادلة بين الافراد المخلفين . وبينما توجد بطبيعته لحال فروق فردية فان جروعا كبيرا من سلوك الفرد - فيما يتعلق باعماله واقواله وتفكيره - يعبر عن مركزه أو وضعه في التركيب الاجتماعي أكثر منه يعبر عن اتجاهات شخصيته الخاصة (١) . وليس الامام بالشئون الصناعية لارما للمعنيين بالبحث والدراسة في الميدان الصناعي وحدهم . بل انه أصبح مكملا لعلمه الفرد في هذا المجمع الحديث المعقد .

ولكي نرسم صورة واضحة للعوامل الشريفة في الصناعة أو بمعنى أدق لموقف العمال واصحاب الاعمال بعضهم من بعض . يجب ان نعهد لذلك بلمحة تاريخية للتقدم الصناعي في العصور الحديثة . والتاريخ الصناعي الحديث سجل للجهود المحلقة التي بدأت منذ نيف ومائه وسبعين سنة ولا تزال تبدل للاقتصاد في اوسائل المحلقة المدخلية لتحسين الانتاج وزيادته . وكذلك لاستعمال المواد الخام المدخلية لا اسراف فيه ولا اهمال . فقد كان العامل قبل الانقلاب الاجتماعي يسكن تحت اسراف « المليونير » في ورشة الصغيرة اما بمفرده أو مع نفر من زملائه . وكانت قوة الانتاج اليدوي محدودة كما كان في اسطوانات العمال أن يقتصر مع صاحب العمل الذي كان يوفيه أجره باليوم منه عادة أو بالقطعة في بعض الاحيان . ولما كان كل من صاحب العمل والعمال يعملان جسا الى حب وسر كان معا في ظروف عمل واحدة فان التعاون بينهما كان امرا مسورا . وفي سبيل زياده الانتاج زياده كبير مع الاقتصاد في الجهود والزمى سعى اصحاب المصانع المنزلية الصغيرة وعمالها . ويقدمو للعمل في المصانع التفرقة مع زملائهم المهاجرين من المناطق الريفية . فأصبحت المدخلية بعد ذلك مدخلية من الزمان نفسه . عددا عديدا من العمال (٢) .

ونجم عن وضع العمال ورؤوس الاموال تحت ادارته واحده ان بلغت الاداة الصناعية الآلية درجة عظيمة من الانفلاد ان كان اصحاب الاعمال يعتقدون اعتمادا راسحا في ان السبيل الوحيد لزيادته لانتاج وانفائه مع الاقتصاد في الزمن والجهود هو تحسين الآلات ونفا لاجد الطرقات العلمية واستحداث المخترعات الحديثة بينما اهتمت الاداة الصناعية الشريفة ، العامل ، اهمالا

Miller, D.C. « The Social Factors of the Work Situation. » American () Sociological Review, 11 300 - 314, June 1946.

G. M. Modlin & F. T. de Vyver, « Development of Economic Society. » (٢) 1946, Parts I, II, III.

كثيرا مده قرن من الزمان أو أكثر . وعلى الرغم من ذلك الإهمال الذي لقيه العامل في تلك الحقبة الطويلة فقد جنى إلى حد لا ينكر ثمرة ذلك الإهمال الطاهر في انقراض الآلات الصناعية إذ سهل عليه العمل وحقق وظائفه . بل إنه أصبح في جن احتلات آتية لا يطلب إلا مهارة قليلة . ولكن ترتب على ذلك أن فقد العامل كثيرا من قدرته وأصبح ناهيا لئلا ينأى في المحل الثاني من مساهمة لها . ومما دعم تلك الفكرة عند أصحاب الأعمال سهولة الحصول على الأيدي العاملة واستبدال غيرها بها في مدة وجيزة في كثير من الأحيان .

ومن أهم آثار التقدم الصناعي ونمو الأعمال الصناعية واتساعها انقطاع الرابطة الشخصية التي كانت قبل ذلك تصل بين صاحب العمل وعماله في النظام الصناعي الحديث السائد . وما زاد تلك الصلة قوة ونسبا في الماضي إذ رآه كل من الآخر والمُحَوَّر في العمل حشا إلى جنب وسط ظروف عمالية واحدة . أما النظام الصناعي الحديث الذي قضى ظروف التقدم الصناعي بعد أو حد قوة عماله وأبعده فغلب العمال عن أصحاب الأعمال الذين ساد بهم اعتماد حد غرب . وهو أنه من الممكن العاضى عن أثر العمل وظروفه السيئة على العمال . إذ كان هم أصحاب المصانع فاصرا على الحصول على الأيدي العاملة وليس على الإبقاء عليها وتحسينها على ذلك تزايد عرض العمال في سوق العمل . فغلبت حال العمال وظهور ذلك في اتجاههم العامل غير المُفَرَّج . وما هم إلا أن . من أصحاب الأعمال ولا العمل ولا المسهلين أنفسهم ومن بينهم أسر العمال ، بهذه السجدة السيئة التي عادت عليهم جميعا باضطرار متفاوتة (١) .

ولا مرأى في أن أصحاب الأعمال والعمال المسهلين ينفقون جميعها في أن الغرض الأساسي للصناعة هو إنتاج أكبر كمية من السلع المصنوعة أعظم انتفاع بأول ثمة وأدنى مجهود وأقصر وقت . ولكن كل فئة منهم تقيس ذلك الغرض بمقاييس أساسها . فالمستهلكون يريدون شراء السلع الحديثة بأول سعر ممكن وأصحاب الأعمال يطمعون في تحقيق أكبر ربح ممكن والعمال يطلبون أعلى أجور ممكنة نظير الاشتغال ساعات قليلة كل يوم مع المنع بتعنة الضمانينة لا على أنفسهم فحسب بل على أسرهم أيضا في الحال والاستقبال . ولا شك في أن تحسين الأحوال الصناعية يعود عليهم جميعا بفوائد جلية لأنه يؤدي إلى تحقيق أهداف كل فئة منهم .

وليس من السهل تقدير قيمة تحسين الأحوال الصناعية وبخاصة ما يتعلق منها بشئون العمال بقدر ما لموسا . أي بالفروش والجنهيات ، لأن فائدتها في كثير من الأحيان تقاس بطريق غير مباشرة بعدة عوامل مخلعة كثبات القوة

(١) انظر (Modin & de Vyver) ، المصدر نفسه ، القسم الثالث .

العاملة وارتفاع مستواها الفنى وقلة العيوب والمرضى ونقص الاصابات الصناعية . كل ذلك عوامل ذات آثار فعالة في الميدان الصناعى خاصة وفي المجتمع بوجه عام ، لان استقرار الافراد واسرهم يسبغ الماسك الاجتماعى . ولئن اقتضى تحسين الاحوال العمالية رفع الاسعار بنسبه ضئيلة فان المستهلكين لا يضيرهم ان ينفقوا نورا يسيرا على مشربياتهم مادام ذلك يعود بالخير على العمال الذين يعتبرون عنصرا أساسيا في تكوين المجتمع الحديث ، لا كافراد فيه فحسب . بل لانهم ينسجون ايضا لسلع التى تسع الناس وتقلل من متاعبهم . ولا مرأى في ان الساعين الاجتماعى ضد البطالة والمرض والمحر والاصابات . وتحسين احوال العمل داخل المصنع وخارجه . ورعاية العمال صحيا من الناحيتين الجسميه والعنسيه . ومنحهم وقتا لراحه بأجر بديهي . فيه عن انفسهم المال الحاجم عن طبيعه العمليات الصناعيه الآليه . ان ذلك قد زاد اجورهم الجمعه وسط قدرتهم على البيع بالحياة كفى رضى كفاءتهم الصناعيه على كسره الانتاج وامانه ، وهذه النسيجه من غير ان يسك برضى المستهلكين وتزيد بيع اصحاب الاعمال .

وليس من العدل ان نقول ان اصحاب الاعمال لم يسدوا أى مجهود فعلا في تحسين احوال العمال وضروف عملهم منذ بدأت الصناعيه في تصاق واسرع لان ذلك قد حدث فعلا ولكن رويدا وبحظى بطيئه في قدره طويته من الزمان . وكان ذلك نظريتين : الاولى بالرام اصحاب المصانع عن طريق التمرج تحسين حال العمال واحوال العمل كوفير الوسائل الصحيه في المساح والعويض عن الاصابات وتحديد ساعات العمل وتقييد سفل الاحداث ولساء . والطريقه الثانيه طوعيه اذ قام بعض اصحاب الاعمال بتحسين الاحوال الصناعيه من بلغاء انفسهم . وقد عرف هذا النوع من لاصلاح الباعلى بأسماء محلقيه مثل « التحسين الصناعى » او « اعمال البروده » او « خدمه العمال » . ولها اسماء تدل على ان اصحاب الاعمال قد قاموا بهذه الاصلاحات الاجتماعيه في الماضى مدفوعين بنزعه للخير لا جريا وراء المنفعه الماديه فحسب .

ولا يكون بعيدين عن الصواب اذا قلنا ان علماء الاجتماع بوجه عام لم يظهروا اهتماما كبيرا بالصناعه كمسدا للملاحظه ولجريب والتطبيق واستنباط مبادئ اجتماعيه عامه تفيد العلم من ناحيه والميدان الصناعى من ناحيه اخرى . ولكن جل اهتمامهم كان موجها بصفه خاصه الى لمسكلات الاجتماعيه الناحمه عن الانسفال بالصناعه ، وانسفال الصناعه المعروف بالتصنيع . فكارل ماركس يحاول في كتابه « رأس المال » ان صف مفاسد النظام الصناعى في انجلترا والوسائل التى ستعمل بها اصحاب الاعمال الاقواء برؤوس اموالهم ، على قلتهم ، العمال الصغفاء على كثرتهم . ثم يستخلص نظرياته الماديه الخاصه بغااض القيمه التى يشرى الراسماليون عن طريق

اسفلالها (١) . وعلى الرغم من تحيزه الظاهر للعمال وحملته الشعواء ضد اصحاب الاعمال فان بحثه ذو قيمة منهجية وتاريخية في علم الاجتماع الصناعي . وليس ادل على فهمه لوضع العمل بالنسبة لوجه النشاط الاخرى في المجتمع من قوله « بتحليل عملية العمل الى عواملها الاولى البسيطة نراها عبارة عن نشاط ذي هدف مقصود هو انتاج القيم الاستعمالية اى ملاءمة المواد الطبيعية للحاجات الانسانية او هي الشرط العام للارام لاتمام التبادل في المادة بين الانسان والطبيعة ، او انها الحالة التى تعرضها الطبيعة دائما على العباد لاسابية ، وبذا تكون مسئلة عن اشكال الحيات الاجتماعية او بالاحرى منتزعة بالنسبة الى كافة الاشكال الاجتماعية » (٢) .

ويصير « روبرت اوز » (Robert Owen) فيلسوف الانسراكى الرائد الاول في هذا الميدان ومؤسس علم الاجتماع الصناعى من الناحية التطبيقية . فهو اول من كون سورة مثله للمنتسح بوضعه محضها صغيرا . وكان بينهم بحسب الروابط الاجتماعية وسميها بين العمال والادارة على اساس اجتماعى بحسب . وقد اسحت له الفرصة عام ١٨٠٠ ليدبر مصنعا كبيرا للمنسوجات في « نيولرك » باسكتلندا وكان يعمل فيه الفان من العمال منهم خمسمائة طفل . وقد اتوا كما وصفهم « مجموعة من اكثر الناس جهلا وفقرا جاءوا من جميع انحاء اسكتلندا وكانوا يحوون كل الصفات المعروفة عن لجهل والفقر » (٣) . وقد كتب روبرت اوز عن هذه المجموعة بعينها بعد اسبوع سنة ما يابى : « هذا أصبح أولئك الناس انفسهم اماء محدثين هادئين ومظمين بشكل طاهر ويدرل واحد بينهم كسلان او سكير او لص من بدء السنة الى نهايتها » (٤) وقد كانت طر منه في اصلاحهم ان يسيطر عليهم سيطرة الولد على انثائه فكان سمعى احوالهم فلا يدع صغره ولا كبيرة الا لاحطها ابتغاء تقويم المعوج وهدم الحائل وهداه الصال . وفر ذلك الاسلاح الروحى باصلاح آخر مادى فقام بحسين مساكن العمال وتوسيعها كما اسن سنة جديدة وهى نظف المسكن مرة كل اسبوع ورشه بالجير مرة كل سنة على حساب الساكن . ثم اهتم بقاء الشرب فوسع شبكة المياه التى تمد العمال بالماء القى كما امر تكسى شوارع « نيولرك » واقام فيها الحراس . ومن اجل اعمال هذا الفيلسوف لانسراكى تأسس مجر كبير تابع للشركة التى كان يمثلها

١. انظر الجزء الاول - الباب السابع ترجمة الدكتور راشد البراوى

٢٩٤٧ .

(٢) المصدر نفسه - جزء اول ص ١٤٠ .

(٣) K. Frankel & Others, « The Human Factor in Labour, » 1920, pp. 22 ff.

(٤) المصدر نفسه - الفصل الاول .

ليشتري منه العمال سلعا اجود من السلع التي تباع في المتاجر الاخرى وبمن يقل عن الائتمان السائدة بنسبة خمس وعشرين في المائة . ثم استفاد من ربح ذلك المحر في الاتفاق على مدرسه للاطفال افتتحها سنه ١٨١٦ وسماها « مؤسسه لاصلاح الشخصية » . وكان يستعمل بناء المدرسه كقاعة لسليه العمال في المساء . ولم تقف جهوده عند هذا الحد فقد وهب العمال قطعة ارض صغيرة لاصحها من اراد منهم ونى للمرضى والعجزة مستشفى كامل الاعداد ، وشجع العمال على الادخار فبعت اموالهم المودعة في صندوق السوفير ثلثه آلاف جنيه في سنه ١٨١٨ ، ومنع تسهيل الاحداث الذين لم يسعوا العاشرة من عمرهم كما انقص ساعات العمل من اربع عشرة ساعة في اليوم ، كما كان سائدا في ابامه . الى اسى عشره ، منها سبعة وربع لنارول اعداء .

وقد عادت مشروعات روبرت اون على اصحاب المصنع الذي كان يديره بربح اربى على عشره آلاف جنيه في مدة ثلاثين عاما وذلك بعد دفع سبعة الاف جنيه اجورا لعمال ثاء تعاطيه عام ١٨٠٧ وبعد سحب المبالغ التي صرفت امانات خيرة للمعمرين منهم . وقد شجعه ذلك النجاح على كتابه مقاله الثالث الذي نشر عام ١٨١٦ بعنوان « وجهه نظر جديد » مجتمع ، وفيه وجه لفرل الى اصحاب الاعمال وكن من سباحير عمالا يستحقهم لسجوا على منواله لان ذلك على حد قوله في مصلحة المجتمع وفي مصلحة المصنع ، ومن الواضح ان روبرت اون كان صاحب اول « مدية فائدة » بحفظ « الفعل في » بيولترك « حيث كان ذلك المصنع الكبير الذي اشرف على ادارته بنفسه . فلمس بشكل واقعي اثر الهيثاب الاجتماعية المحلقة في الفرد الذي يتعامل معها منذ ان بدا حياته الاجتماعية . ولذلك وجه عنايته الى الاسرة والاهل والمدرسة والهيئة التي تشغل وقت فراغ العامل بنفس الدرجة التي احرص بها محل العمل اى المصنع . تلك هي النظرة الاجتماعية السليمة نحو فهم العمال فهما اجتماعيا كامليا . فالمصنع اخذ من حساب العامل نصيبا مثله في ذلك مثل الهيثاب الاجتماعية الاخرى التي لكل منها نصيب في حياته . اما ان يعتقد صاحب العمل ان العامل يعيش لمصنعه فقط فامر ثبت خطؤه . فان الاهتمام بالعامل يجب ان يتعدى المصنع الى الهيثاب الاجتماعية الاخرى التي يتعامل معها الفرد . ونقصد بالاهتمام هنا من الناحية الاجتماعية تغيير شخصية الفرد لكي يلائم المجتمع الصناعي الحديث الذي تغيرت فيه العظم الاجتماعية الى حد كبير عما كانت عليه عندما كان المجتمع اول تعقدا ومدينة . ولا مرأ في ان روبرت اون حاول تغيير شخصية الفرد بتغيير نظام معيشته والظروف الاجتماعية التي تكسبه . وهذا ما قصد اليه الاسناد « لسرف » .

وورد « (Lester Frank Ward) حين قال « ليس هناك داع الى انتظار
تطور بعلىء تنغير فيه شخصيه الفرد كما يرى (سبنسر) بل يمكن ان نصل
الى هذا الغرض بتغيير النظم البشرية » (١) »

ولما كان التقدم الصناعى يحتل مغيرا لا نظير له فى الجانب المادى للثقافة
الاجتماعية فان ما ظهر فيه من احتراعات كثيرة غريبة جعل هم العلماء
وانبياهم بوجه كله نحو الآلات ومصادر القوى المختلفة والتصنيع فى نطاق
واسع . فى تلك الفترة الصناعية لم يتناس العلماء الجانب البشرى فى الصناعة
(أى العمال) فحسب بل انهم فى كثير من الاحيان تصوروا العمال كآلات
ومطالبهم بحياة آليه داخل المصانع باسم « لاتقان الصناعى » . وجم عن
ذلك وضع غريب لى الغرابية : فالآلات تعمير تدريجيا لكى تحاكي الانسان فى
افعاله . والانسان يعمير تدريجيا او يظلم منه ذلك لكى يحاكي الآلة فى افعالها
وجمودها . والانتقاص الصناعى حركه يزعمها الدكتور « آرثر شادول »
(Arthur Shadwell) الذى حاول ان يحقق الانس فى ميدان الصناعة على
ايدى العمال . وكان نشر آراءه فى جريدة « لندن تيمز » سنة ١٩٠٢ ثم تلاه
فى هذا الميدان « فردريك ونرولسلر » (Frederick Winslow Taylor)
الذى اهتم بوصف الخبرة فى امرئنا وعرف الادارة العلمية للصناعة وتحديد
اعراضها ٢ . وهو يرى ان الانتقال الصناعى لاهى سقلم العمليات
الصناعية وتحديد حركات العمال وسكانتهم انشاء العمل فحسب بل يشمل
اذا الاحساس السليم للعمال الصالحين للعمل ودرستهم بطرق علمية وكذلك
ايجاد التعاون الوثيق بين الادارة والعمال .

وله تكدر تظهر هذه الآراء الجديدة حتى انتشرت بسرعة غرسة وبخاصة فى
الولايات المتحدة الامريكة التى تزوج فيها كل فكر جديد . وقد اكدت
حركة الانتعاش الجديدة ضرورة الهواء النقى والور الكافى فى المصانع وفترات
الراحة للعمال حتى لا يجل بهم التعب بسرعة فتؤثر فى اناسهم . وكذلك بينت
ضرورة لامصاد فى الحركة والنقل بين آله واخرى حتى لا يضيع العامل
وقتا بدون فائدة . واوضحت اهمية الملاوات التى تعطى للعمال كحافز على
ان يبدلوا كل ما يستطيعون من جهد . واخيرا نصحت بكيفية اجسام العمال
للعمل نفسه وذلك بتدريبهم على اساس علمية . ومهما يكن من امر تلك
الحرمة القائمة على البحث العلمى فى كل نواحي الصناعة فانها لم تتجع فى
شئ واحد على جانب عظم من الاهمية وهو استنارة العوامل التى تدفع
العمال لاتقان الاساع وربادته وهى تنحصر فى ميل العمال الى الصناعة وانزاهم

(١) انظر : 1906. p. 336. « Applied Sociology »

(٢) انظر : 1911. « The Principles of Scientific Management »

واقترانهم قيمة الجهود التي تبذل في هذا المضمار . والسبب في عدم نجاحها انها اهتمت العمال انفسهم كبشر ولم تشاركهم في الامر لتقف على وجهة نظرهم . وكيف يتسنى للادارة العمالية النجاح اذا لم تقم على دعائم ديمقراطية واداء لم يكن للعمال صوت مسموع في وضع خططها ؟

ومن الطواهر الاجتماعية اللازمة للعمل تلك المتعلقة بتقسيمه . فالعمل ينقسم حسب طبيعته الى عمل جسمي وعمل عقلي ، وينقسم حسب وسائل أدائه الى يدوي وآلي ، وينقسم حسب اغراضه الى انتاجي يحقق المنفعة تناول المادة وتاديبه خدمات تحقق المنفعة بدون تناول المادة . وكذلك ينقسم من حيث المهارة والحرة الى عمل فني اي يتطلب قدرة خاصة وتدرسا طويلا وحرة . وعمل غير فني اي لا يتطلب كل ذلك (١) . ويرى " كارل ماركس " ان الفارق بين العمل الفني والعمل غير الفني " يرجع جانب منه الى الاوهام او الاختلافات لم تعد حقيقته وانما تعبير في العقائد والعرف . هذا من جهة ومن جهة اخرى يرجع هذا الفارق بين نوعي العمل الى عجز طوائف معينة من الطبقة العاملة عن انتزاع قيمة ما يملكون من قوة العمل . ويلعب الصدق دورا عظيما في ذلك بحيث ان نوعي العمل يحل كل منهما محل الآخر احيانا . ومثال ذلك انه اذا انحطت صحة الطبقة العاملة بحيث تصعب قوتهم الجسميه فان الاشكال الدتبا من العمل والتي تتطلب بدلا كبيرا للعضلات تعد كأيها عمل فني وذلك عند موارنتها بالانواع الاخرى للعمل التي تعسر اعطيه دونه واكثر رقة والتي تهبط في هذا المثال الى مستوى العمل غير الفني " (٢) وهذا الرأي على جانب كبير من الصحة . ومن أهم انواع تقسيم العمل ذلك النوع المتعلق بالجنسين الرجال والنساء . وتقسيم العمل بينهما موجود عند البدائيين كما هو موجود عند المنحصرين . ولكن هذه العرفة بين الجنسين في مسدان العمل مسائله اجتماعيه ترتبط ارتباطا وثيقا بالثقافة أي بالتراث الاجتماعي الذي يتألف فيه الفرد . وما يواريه الخلف عن السلف من عادات وتقاليد وعرف وآداب شعبيه (٣) . وقد ثبت في الحرب العالمية الاحيرة ان المرأة في استطاعتها ان تؤدي من الاعمال ما كان الرجال يعتقدون انه من اختصاصهم وحدهم . وقبل ان نترك موضوع تقسيم العمل يجب الا ننسى ان التخصص الفردي يجعل العامل بالتدريج أكثر اعتمادا على المجتمع ومع ذلك يضعف تماسكه في التركيب الاجتماعي كله لان العامل في هذه الحالة

(١) انظر " الاقتصاد السياسي " للأسناد على عبد الواحد وافي . طبعة رابعة ، ١٩٤٦ ص ١٠٣ و ١٠٤ .

(٢) المصدر نفسه - الجزء الاول ، ص ١٥٣ .

(٣) انظر Ralph Linton, «The Study of Man» 1936 pp. 113 — 131.

يصح أقل وعيا لمركزه في البناء الاجتماعي . ذلك كتاب المسئلة التي كشفها ووضحها الاساد اميل دوركايم (E. Durkheim) في كتابه عن تقسيم العمل في المجتمع (١) . وما تقسيم العمل في الواقع الا التعاون في صورته المعقدة . ويصف ذلك اني خلدون بشكل واضح حينما يقول بضد ضرورة الاجتماع الاساسي « الا ان قدرة الواحد من البشر فاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه ، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت وم من الحنطة مثلا . فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطح وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواعين وآلات لاشم الا بصاغات متعددة من حداد ونجار وفاحوري . وهب انه يأكله حيا من عمر علاج فهو ايضا يحتاج في تحصيله ايضا حيا الى أعمال أخرى أكثر من هذه ، من الزراعة والحداد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ، ويحتاج كل واحد من هذه الآلات متعددة ومصانع كثيرة أكثر من الأولى بكثير وسجل ان تفي بذلك له او بعضه قدرة الواحد ، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من اناء حنسه ليحصل لقوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف » (٢) .

ورسط بدائرة تقسيم العمل امران اساسيان احدهما نظام الطبقات (٣) والاسى تدبير العمل بمعنى احترامه او احقراره . فتقسيم العمل من حيث التخصص في حرف معينة يؤدي الى اتسام المجتمع راسيا الى طوائف مهنية تتحد كل منها وتعمل على اصلاح شئونها وهذا يقتضى التعاون بين الافراد ويؤدي ذلك الى تحسين المجتمع عامة باشاعة التماسك الاجتماعي فيه . ولكن تقسيم العمل من جهة أخرى يؤدي الى تفاوت في الدخل ، ويؤدي بعد فترة

غير قصيرة الى اتسام المجتمع افقيا الى طبقات بعضها فوق بعض ولكل منها مصالح ود تدعو معارضة مع مصالح الأخرى . ويؤدي ذلك الى تعكك المجتمع سحقه البعض المباديل بين طبقة وأخرى . اما من ناحية تدبير العمل وعلاوة بظاهرة تقسيمه فالشائع أن الأعمال التي تؤدي الى اتساح العامل تصنع محقرة بالمقارنة بالأعمال الأخرى الطيفة . ولذلك كانت الأعمال الكساية أكثر احتراماً من الأعمال الصناعية . وليس ادل على ذلك من رغبة

* On the Division of Labour in Society, trans. by G. Simpson 1933, pp. 200 — 229, 353 — 373

(١) أنظر

(٢) المقدمة ص ٤٢ و ٤١ .

(٣) أنظر « الطبقات الاجتماعية » للاستاذ محمد ثابت الفندى ، الفصلين الثالث والرابع ، ١٩٤٩ .

العمال الملحة في تعليم أطفالهم ليسفلوا وطائف كتابية بدل ان يخلّفوهم في مهتهم التي قد تكون أعلى أجورا منها .

وقد يهمل العمل أو يحتقر جملة ونوجه عام في عصر من العصور ويحترم ويعد في عصر آخر تبعا للانظمة الاجتماعية السائدة . فالتكنولوجيا مثلا ترى ان العمل وسيلة للمعيشة الشريفة ونشاط لازم لحرير الجسم من الشهوات والرغبات الجسدية الماحه اى ان خلاص الروح في العمل . كما انها ترى في العمل عقابا لابناء آدم الذي اعواد لشيطان فأخرجه من الراحة الابدية . ويشجع الدين الاسلامي والمذهب البروسسائي على العمل لانه اساس التعاون والتعامل اللدن يكشف عن فساد الفرد او صلاحه . وسنما نجد لعمل محقرا في النظام الارستقراطي والنظام الاستبدادي المطلق براه محسوما في النظام الديمقراطي الذي سود فيه الحرية والمساواة السياسية الى حد كبير (١) . ومما ادى الى احترام العمل في العصر الحديث ظهور كبير من المهنعات في الميدان الصناعي جعلت العمل اكثر سهولة وامل ماعب عن دى قبل كما ان نظامه المصانع وتسهل منطف عمالها فيها بل مغادرتها قد ادى الى احترام العمل والعمال . ومن المبادئ المقررة ان ارتفاع مستوى معيشته العمال رفعتهم في نظر غيرهم اد صعب التمييز بينهم وبين الطوائف الاخرى . ونلمس ذلك بشكل واضح في الولايات المتحدة المتقدمة في امرها . ويجب الا ننسى ان العمل كان يكافا مكافاة كبيرة في الدول الغاشية لانها تقوم على اكناف العمال وانتاجهم . ويحتر العمل في هذه الدول شرفا كبيرا الى درجه ان العمال كانوا يفخرون على العلماء الناعمي الابدى . والمجتمع بدوره يصع العمال في أعلى مرتبه وذلك مبالغة في احترام العمل . وهذه فكرة جديدة نشأت في الديمقراطيات الشعبية التي وصل فيها العامل الى مرتبة الحكم والقيادة مثل أدولف هتلر وأيرلست بيغن .

ولقد خلقت لنا الصناعة شكلها الحديث القائم على تكتل العمال بين جدران المصانع نوعا غريبا من التجمع البشري يمكن ان نطلق عليه اصطلاح « مجتمع المصنع » وهو مجتمع فريد في تركيبه وصفاته . حقا ان التعليم والدين منذ اقدم نظامان اجتماعيان مرتبطان بظاهرة تجمع الافراد بين جدران المدارس والمعابد المخلمة . ولكن التجمع التعليمي او التجمع الديني يختلف تمام الاختلاف عن التجمع العمالي من وجوه كثيرة . فطلاب العلم يظرون الى

(١) تناول الموضوع بتوسع الاسناد (ز . الرح) (Z. Ullrich) في كتابه

« Osvobození Práce » - A Sociological Analysis of the Ideas on Labour, Prague, 1947-

مدارسه ومعاهده على انها مراكز تجمع تقضون فيها فترة من حياتهم تؤهلهم للعمل في المجتمع كما انهم لا يسادون المنفعة مع اساتذتهم في هذه المراكز العلمية بل يأخذون ولا يعطون . وكذلك حال المعبدين في دور العبادة سواء كانت ادره او كنائس او مساجد لا يجمعون فيها الا بصفة مؤقتة لا وطبعا للمغفرة والرحمة والسعادة دنيا واخرى . وليس في هذه الجموع الاجتماعية صراع من اى نوع كذلك الذى نحده في الجمع الصناعى بشكل وضع . والعامل اذا اندمج في حياة الصناع فانه لا يفصل عنها الا اناوغه سن التعاقد او لوفاته كما انه في هذا المجتمع الصناعى تتبادل المنفعة بشكل ظاهر مع صاحب العمل الذى ينقده اجره نظير عمله .

واذا درسنا اى مصنع كبير دراسته عمقه دفعه نحده بركبها اجتماعيا من مراهق صغيرا من المجتمع الاخر . والما راى القدم القى والصاعى طرب دلائل كثيرة صراع وعدم الانجام في المجتمع الصناعى كما انها تظهر غالبا في حال جدية مغلقة . ففى ان مصنع وجد سبيح معقد من العلاقات الاجتماعية يربط الافراد بعضهم بعض . فلكل منهم مكانه ووظيفته في هذا السطح الاجتماعى ويربط به تماما ويكون معه وحدة متكاملة الى درجة ان اى تغيير يحدث في اى جزء من اجزاء هذا السطح يؤثر عليه وعلى عمله من نواح كثيرة .

ومن الامثلة التي يربط ما بين العمال في المصنع الواحد : علاقات شخصية وحرف غير شكلية . اما العلاقات الشكلية فخاصة بوظيفة الفرد وما يربط بينا من حقوق وواجبات والعلاقات غير الشكلية تظهر نتيجة ظروف خاصة كالتلازم في ساول الهداء او السلبه او المهي او الحى او وسائل المراسلات او العلاقات المصطنعة . ونشأ عن هذه العلاقات بطبيعة الحال صداقات وعداوات لاسباب مجاهدة . ولذلك فترها توى على الافراد الى درجة انها تشكل سلوكهم وتحدد لها تمام الحدود . فولاء العامل لمخالفات اجتماعات التي تندمج فيها اعظم من ولاته لاجتماعات الصناعية الشكلية التي تكونها الادارة المصنعة حسب تطلعه معين . وفي بعض الاحيان يكون هناك تعارض بين رغبات الجماعة غير الشكلية ورغبات الادارة التي تحس بدورها ان الرأى غير السكى غريب عنها لم يشترك في وضع خطته كما انه في نظرها يعيق العمل وتقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ خطط الادارة . ولذلك

١١ ماعدا الاديرة الى عيش فيها الراهب متنسكا طول حياته التى تعتبر في نظره فترة انتقال الى الدار الباقية .

تعمل جاهدة لأعضاء على التنظيم غير السكلى ، ولكن دون جدوى لانه من طبيعة الجمع والحياة الاجتماعية فيه (١) .

كذلك هناك صفة أخرى من مميزات العمل فى المصانع وهى وجود أنواع معقدة من المستويات القائمة على انظمه معينة . فلو درسنا الوظائف المختلفة فى مصنع من المصانع نجد انها تتبع نظاما طبيعيا يكون فيه المدير رئيس الوكيل والوكيل رئيس الملاحظ والملاحظ بدوره رئيسا للملاحظين العمال وهؤلاء بدورهم رؤساء للعمال . ومعنى ذلك ان كل فرد منهم الا من فى أسفل السلم ، يظهر على غيره كما يظهر عليه غيره . وهو فى الحال الاولى ذو نفوذ ويظهر له من هم دونه احتراماً وطاعة . وهذا لنوع من التسييم الوظيفى المدرج صورته بصغرة للتنظيم العسكرى ولكنها ماطعة مخففة . ولست الفروق بين العمال قائمة على هذا التسييم فحسب بل انها تقوم ايضا على نوع العمل الذى يؤده العامل ، فمثلا هناك فارق واضح بين الموظفين دوى "الراقاب البيضاء" الكسبة والرؤساء ، والعمال على اختلاف انواعهم . ولا مرأى فى ان الموظف الذى يكتب بالقلم على الورق ويحلى الى مكتبه بصرف الامور فى المصنع يعتبر فى مركز اعلى من اولئك الذين يشتغلون بأنديهم امام الآله او منصبتهم العمل . وكثيرا ما يقال ان العمال غير متعلمين ولا مهنيين وانهم حشرون صاخبون . ونجد ان الموظفين تحببتهم وعرضون على الاشرار معهم واوجه النشاط الاجتماعى سواء داخل المصنع او خارجه . وبالنسبة نجد ان العمال بدورهم يتبعون الموظفين لادلتهم وترسمهم . ويكفى انهم يعملون صاحب العمل وحاقدون على مصالحه . وكل محاولة تهدف الى انعاص مركز اى فرد او امة جماعة تبدل سخط شديد كما ان كل محاولة لاجداث اى تغيير فى العمليات الصناعية تقابل بامتناع كبير . ومن الحقائق التى اظهرها البحث العلمى فى المصانع ان كل جماعة فيها تحاول ان تبدل اقصى جهدها لارضاء الادارة التى سيطرت دائما مزبدا من الجهود للوصول الى نتيجة مفيدة للمصنع كما ان كل جماعة فى نفس الوقت تحمى نفسها بل تنافس الجماعات الاخرى . ولذلك نجد نراعا كبيرا ما بين العمال والادارة ، والاسطوانات والملاحظين . والعمال والاسطوانات (٢) . والصراع الصناعى يظهر باحلى صورة فى موقف العمال متكئين من اصحاب الاعمال الذين استعملوهم فى الماضى ولازال بعضهم يفعل ذلك الى الان . والسبب الرئيسى فى هذا الصراع ينحصر فى ان كلا من الطرفين لايفهم وجهة نظر الآخر

(١) انظر Moore, W. E., «Industrial Relations and the Social Order, » 1951, pp. 173 ff.

(٢) اقرأ وصفا دقيقا لذلك فى Hader & Lindeman : «Dynamic Social Research, » 1933.

تمام الفهم . ولما كان لأصحاب العمل دائما اليد العليا لاعتمادهم على رؤوس أموالهم وماكنهم المتسارع وما فيها من آلات وأدوات فإن العمال وجدوا من مصلحتهم أن يحدوا ويبعدوا في شكل نقابات عمالية . وقد مكنتهم ذلك من الوقوف من أصحاب الأعمال موقف اليد لليد إلى حد كبير ، إذ اكسبهم الاتحاد قوة وجعل صوبهم مسموعا وأرغم أصحاب الأعمال على اجابه كثير من مطالب العمال التي تنحصر في زيادة الأجر وانفاص ساعات العمل وتحسين احواله داخل المصانع وخارجها ، وفيما نظمتههم على مصالحهم في الحال والاستقبال . وودعهم عن الاهتمام بشؤون العمال واحابه مطالبهم بتحقيق مطالب أصحاب الأعمال أنفسهم التي تنحصر في زيادة الاساح واتقانه مع قلة الاستهلاك الذي يحدث في المصانع الصناعيه . ومعنى ذلك وجود تعاون وثيق بين العمال وأصحاب الأعمال مادامت بمصالح الغنيتين مشتركة .

ذلك نظام العمل في ميدان تسود فيه الملكية الفردية والمنافسة الحرة والحرية المناسبة إلى درجة كبيرة جدا مع تدخل حكومي لصالح طرفي الإنتاج ، أصحاب الأعمال والعمال . اكثلا تعني فئة على أخرى . والدخول الحكومي في هذه الحالة يأخذ شكل السريعات المخلفة التي تسن بالطرق الديمقراطية المعروفة . تلك السريعات التي قضت على تكهيات «ماركس» التي منى بها العمال في مستقبل الصناعة بالتؤنس والاضطهاد والعودة والحطه والاستغلال في ظل النظام الرأسمالي . ذلك لأنه اعتقد أن تشغيل الأحداث والنساء لأبد منه سبب تناقص ربح رأس المال . ولئن كان وصفه لمفاسد الصناعة قد صح في اجلها في القرن التاسع عشر فإن تكهياته بعيدة عن الصحة تمام البعد في تلك الدولة ودول أخرى معانته في العصر الحاضر الذي ارتفع فيه مستوى معيشة العامل بشكل ظاهر (١) .

أما في ظل الحكم الفاشي فال حكومة قد مضت على كثير من الانظمة النفعانية السائدة في ميدان العمل كالنقابات والتعاون واتحادات أصحاب الأعمال وسبب سرعات بخاص العمال من استغلال أصحاب الأعمال وتحمل أصحاب الأعمال من عبء العمال . وحججها في هذا الاجراء أن العمال وأصحاب الأعمال أفراد مجتمع واحد يرتبطهم بروابط قومية لا يصبغ إجاداية فرصة لفصمها بترك أنواع الصراع المختلفه نمو في المبدان الصناعى وتنشر الى أن تؤدي الى تفكك المجتمع الذي يعمل جاهدا لكي يسود المجموعات الأخرى بتماسكه الشديد وبكثرة مسجانه وحصه لاغراض حربية . ولئن الديمقراطيين معارضون هذا الاجراء أشد معارضة وروا انه مضى على الحرية الفردية ويحرم العامل على

وجه الخصوص نعمه التعبير عن رأيه في مدنيه مقدة اعظم تعفيد ترداد فيها
الفرص في كل يوم لالوان من التفسير الاجتماعى .

وبختتم هذا المقال بالاشارة الى ما اذاه الدكتور «التن ميبو» (Elton Mayo)
الاستاد بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة في ميدان البحث الاجتماعى العلمى
في العالم الصناعى من جهود كللت بالنجاح في النهاية واصبحت نقطة البداية في
فرع علم الاجتماع الصناعى . بدأ «ميبو» أبحاثه في المصانع الكهربائيه الغربيه
في «هوثورن» (Hawthorne) من ضواحي شيكاغو . وكانت طريقته تعتمد على
ملاحظة عمليات الانتاج المختلفه يدقه ، والعمال في اوقات عملهم ورفاههم كما
كان لاحظ ايضا سلوك جماعات صغيرة من العمال ويسمع الى احاديثهم .
وكذلك استعمل الاستبصار الشخصى لكى يعرف من كل عامل على حدة افكاره
وأماله واحساساته في المصنع الذى يشتغل فيه . وقد وضع «ميبو» الى
جانب ذلك خطة لكشف آثار يوم العمل القصير الذى يحلله شراب راحه
يساؤل انشاءها العمال المرطبات والنساي . فوجد ان الاسخ قد راد والنساي
صار اقوى وأكد نتيجة تحرير العمال بعض السوء من النظام العادى الضارم
لرتيب وتخلصهم الى حد كبير من السلطة الخافه الخشيه . وقد اهم «ميبو»
ايضا بالكشف عن تعاليد العمل في المصانع وما يسود فيها بين العمال من عرف
وأداب عمالية ورموز جميعيه وهلم جرا ١ . وقد احرزت أبحاث كثيرة من هذا
النوع في اجلنرا امدت المعنيين بهذا الفرع من الدراسة بمعلومات اجتماعيه
قيمه عن مجتمع المصنع كانت مجهولة تماما من قبل ٢ . ولاسى قبل انهاء
هذا المقال ان نذكر اسم عالم امريكى تفرع لدراسة علم الاجتماع الصناعى هو
الاستاد «ولبرت مور» (Wilbert Moore) الذى اخرج في هذا العلم سقرا قما
اشار في اوله الى اغراضه لنى هدف النها من وضعه وهى ننحصر في فهم
السمات الفرسي للمجتمعات الصناعيه وأهميه الصاعه للدولة والهيئه الاجتماعيه
والجماعات المختلفه والفرد الذى يكسب عيشه بعرق حسنه . كما انه محاوله
الى تحليل منظم للتركيب الصناعى (Industrial System) كنظام اجتماعى
وطريقة الحياة في المجتمع الصناعى . ذلك في نظره ميدان علم الاجتماع
الصناعى بصفة مؤقتة لانه ميدان يرحى له النمو والازدهار ٣ .

ذلك ميدان الصناعة الذى يحتاج من الاجتماعيين عنايه خاصة . لانه

Elton Mayo: «The Social Problems of an Industrial Civilization.» (١) انظر
1945

Marie Jahoda: «Some Socio-Psychological Problems of Factory (٢) انظر
Life.» Brit. Journal of Psychology, Jan 1941.

« Mass Observation : People in Production.» 1942 وكذلك

(٣) انظر المصدر نفسه ، ص ٣ وما بعدها .

ميدان جديد لم يدرس دراسة اجتماعية كافية ، على الرغم من التفسيرات
الواسعة النطاق التي حدثت فيه في فترة قصيرة من الزمان .

المراجع المشار اليها

عربية

- ١ — ابن خلدون : « المقدمة » .
- ٢ — على عبد الواحد وافي : « الاقتصاد السياسي » . طبعة رابعة ، ١٩٤٦
- ٣ — محمد ثابت الفندي : « الطبقات الاجتماعية » ١٩٤٩
- ٤ — كارل ماركس : « راس المال » ترجمة الدكتور راشد البراوي ، ١٩٤٧

اجنبية

- 1 — Durkheim, E. : « On the Division of Labour in Society » Trans by G Simpson 1933.
- 2 — Florence, P.S. : « Labour . » 1950.
- 3 — Frankel K. & Others : « The Human Factor in Labour. » 1920.
- 4 — Hader & Lindemar : « Dynamic Social Research. » 1933.
- 5 — Jahoda, Marie : « Some Socio-Psychological Problems of Factory Life. » Brit. Journal of Psychology, Jan. 1941.
- 6 — Linton, Ralph : « The Study of Man » . 1936.
- 7 — Mayo, Elton : « The Social Problems of an Industrial Civilization » 1945.
- 8 — Miller, D.C. : « The Social Factors of the Work Situation, » American Sociological Review, June, 1946.
- 9 — Modlin, G.M. & De Vyver : « Development of Economic Society. » 1946.
- 10 — Moore W.E. : « Industrial Relations and the Social Order. » 1951.
- 11 — Taylor, F. W. : « The Principles of Scientific Management » . 1911.
- 12 — Ullrich, Z. : « Osvoženi Práce, » A Sociological Analysis of the Ideas on Labour. Prague, 1947.
- 13 — Ward, L.F. : « Applied Sociology. » 1906.

النقد والكتب

النقد والكتب

Catalogue of Dated Fabrics (Umayyad, Abbassid, Fatimid) by
Ernest Kuhnel; Technical Analysis by Louisa Bellinger,
Washington, National Publishing Company, 1952.

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

أصدر متحف المنسوجات The Textile Museum في مدينة
وشنطن ثبوتا علميا بما فيه من المنسوجات الاسلامية المؤرخة التي ترجع الى
العصور الوسطى يقع في ١٣٧ صفحة من الحجم الكبير وبه ٥٢ لوحة على
ورق مصقول بها ما يزيد على مائة وستين صورة •

ومؤلف الكتاب هو الاسناد الدكتور ارنست كونهل استاذ الآثار
الاسلامية في جامعة برلين ورئيس القسم الاسلامي في متاحف الدولة
ببرلين • وهو أحد العلماء الاقذاذ في الآثار الاسلامية • ومن أوائل من
اشتهروا بهذه المادة علميا وعلميا • فقد قام بخفائر أثرية كثيرة من أهمها خفائره
في مدينة « سرمن رأى أو سامراء » في العراق ، كما أن له مؤلفات وأبحاث
قيمة يكاد يخطئها العد ويكفى لتصورها أن من أقدم ما كتبه مؤلفه عن الفن
الاسلامي في بلاد المغرب والاندلس الذي أخرجه في سنة ١٩٢٤ ، ومنذ ذلك
التاريخ حتى الوقت الحاضر وهو متوفر على البحث دائب الانتاج في هذه
الناحية التي تدين له بالكثير من الآراء السديدة والنظريات التي يؤمن بها
أكثر المشتغلين بالآثار الاسلامية في الوقت الحاضر • وقد تتلمذ عليه أغلب
الذين يشتغلون بهذا الموضوع في الشرق والغرب سواء كانوا في الجامعات
أو في المتاحف •

والكتاب الذى نحاول أن نعرف القراء به هو آخر ما أخرجته هذا العلم العظيم يتناول دراسة طائفة من المنسوجات الاثرية الاسلامية المحفوظة فى المتحف سالف الذكر . وهو وان كان فى مظهره وكما يدل عليه عنوانه ثبت للمنسوجات الاسلامية المؤرخة فى ذلك المتحف الا أنه فى حقيقته دراسة جامعة مانعة كما يقول رجال المنطق — لهذه الناحية من نواحي الحضارة المادية عند المسلمين .

واسواق أن مصر قد أفردت عين الباحث فى الآثار بما امدته به من تراث الاولين الذى يكاد ينتظم كل العصور التى مرت بالعالم قبل التاريخ وبعده . ذلك التراث العظيم الذى احتفظت به قائما على سطحها أو مطمئا فى بطنها بفضل ذلك الجو الجاف الذى حبتها به الطبيعة . ثم بفضل أرضها تلك الام الرءوم التى حافظت بطبيعة تكوينها على ما أوتمنت عليه فى جوفها وكأنما كانت فى ذلك حريصة على أن ترينا عظمة السلف الكريم فذب الامانه على أحسن وجه . وقد كان من أهم بمايا الماضى تلك المجموعات البقية من المنسوجات الاثرية التى أظهرتها الحفائر الاثرية منذ عصر الحملة الفرنسية والتى هى فى حقيقتهما سجل لتاريخ مصر منذ العصور السحيقة حتى القفح التركى .

وقد كشفت حفائر دار الآثار العربية — أو متحف الفن الاسلامى كما أصبحت تسمى أخيرا — عن كميات وفيرة من المنسوجات الاسلامية التى استخرجت من البقاع التى اتخذها المسلمون فى العصور الوسطى مكانا لدفن موتاهم حول مدينة القسطنطينية . وتكون هذه المنسوجات سلسلة متصلة الحلقات تنتظم كل عصور التاريخ الاسلامى فى مصر ، وتمكن الباحث من أن يقف على التطور التدريجى فى تلك الناحية التى داعت فيها شهرة مصر قبل الاسلام وبعده . وقد تسرب من مصر — بوسائل شتى — جانب كبير من هذه المنسوجات واتخذ طريقه الى متاحف أوروبا وأمريكا حيث استقر هناك ، ولئن كان يؤسفنا حقا أن يخرج تراثنا الاثرى من بلادنا الا أنه

يعزينا عن ذلك أن هذا التراث هو في الحقيقة سفير دائم لنا في الخارج يطلع
اعبر على صفحات مشرفة من مجدنا النالد هذا الى أنه ينال في موطن غربته
من التقدير والاحلال نصيبا ملحوظا . والكتاب انذى بين ايدينا دليل على
هذا التقدير والتمجيد .

والاقسام الرئيسية في هذا الكتاب سبعة : الاول مقدمة ألم فيها المؤلف
بنشأة نظام الطراز ونضوجه ثم تكلم على تطور الزخرفة على المنسوجات
عبر العصور الاسلامية المختلفة .

والثاني هو ثبت وصف فيه المؤلف القطع المؤرخة وصفا نهج فيه منهاجا
جديدا . ذلك أنه لم يثقل على القارىء بالنفاصيل التى قد تضعيع بينها المزايا
الحقيقة للقطعة فاكفى باثبات الصورة الفوتوغرافية للقطعة ثم لخص في
كلمات قليلة المعالم البارزة للزخرفة ان وجسد . ثم أثبت النص العربى
الموجود على القطعة معقبا عليه بتحاليل محكم لما جاء فيه ومناقشة مدلوله
ونختم كلامه بالاشارة الى القطع المعاصرة الموجودة في المتاحف أو المجموعات
الآخري .

والقطع التى تناولها ترجع الى عهد الخليفة مروان الثانى آخر خلفاء بنى
أمة . ثم الى عصر المنوكل والمستمين والمعز والمعتمد والمعتضد والمكفى
والمقتدر والناصر والراضى والمكفى والمنكفى والمطيع والقادر من خلفاء
بنى عباس . ثم المعز والعزير والحاكم والظاهر والمستنصر والأمر والحافظ
من خلفاء الدولة الفاطمية في مصر .

ومن أهم ما جاء في هذا القسم من الكتاب وصف قطعة من الكتان مطرز
عليها نص يشير الى أنها عملت بالاسكندرية في عصر الامام المعتمد بالله
الخليفة العباسى سنة اثنين وسبعين وماينين بعد الهجرة وبها شريط من
زخرفة هندسية جميلة قد ديجب بالحرير الازرق والاصفر . واذا عرفنا أن
هذه القطعة هى الوحيدة في العالم التى تعطينا فكرة واضحة عن زخرفة
أفشة الاسكندرية في العصر الاسلامى وعرفنا أيضا أن المتحف الاسلامى

بالقاهرة الذى يعد أغنى المتاحف فى المنسوجات الاسلامية ليس به قطعة من
نسج الاسكندرية تجمع بين الزخرفة والكتابة التاريخية استطعنا أن ندرك
مدى ما يمكن أن يفيد الباحث فى تاريخ حضارة الاسكندرية من هذا
الكتاب •

والقسم الثالث يتناول بالدراسة قطعا من المنسوجات على الرغم من
أنها لا تحمل نصا تاريخيا الا أن لها قيمتها فى دراسة النواحي الفنية من شتى
زواياها فنذكر على سبيل المثال لا الحصر العصائب السنية *Ikat*
والطنافس المصرية والاقشة الهندية المتخذة من الفطن والمزينة بزخارف
مطبوعة •

والقسم الرابع خاص بالاحياء الصناعية *Technical Analysis*
وقد كتبه السيدة بلنجر ودلت بكتابها على سعة اطلاعها فى هذه الناحية
كما برهنت على أن الكشف عن طريقة الصناعة يعاون الى حد كبير المشتغلين
بالتاريخ الفنى فى دراستهم وقد يجلى لهم بعض ما غمض من جوانبها •

والقسم الخامس جداول قد رتب فيها اقطع الموصوفة ترتيبا تاريخيا
وبنت فيها مادة القطعة (الكتان أو الفطن أو الصوف أو الحرير) ونوع
الفرز *stitches* المستعملة واسم الطراز الذى نسجت فيه القطعة
ونوعه (خاص أم عام) واسم الخليفة واسم الوزير واسم صاحب الطراز
والتاريخ الهجرى للنسيج وما يقبله بالتاريخ الميلادى •

والقسم السادس بحث فيه المؤلف فى دور الطراز وفى المشرفين عليها
بحثا وافيا أضاف به الكثير الى ما كان معروفا من قبل فى هذا الصدد •

والقسم السابع والاخر هو ثبت واف بأهم المراجع فى هذا الموضوع
سواء ما كتب منها باللغات الاوربية أو باللغة العربية ويأتى بعده كثاف يسهل
على القارئ سبيل البحث • هذا وفى الكتاب خريطتان احدهما لمصر

والاخرى لبلاد العرب والعراق وايران قد نبذت فيهما مراكز صناعة النسيج في
العصر الاسلامي .

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الكلمة الموجزة قد وقفت الى توجيه
ال نظر الى هذا الكتاب افسم . ولعل في صدوره ما يحفز أولى الامر في متحف
الفن الاسلامي بالقاهرة الى العمل على نشر ما في ذلك المتحف من كنوز
مجهولة للكثيرين . فان في هذا النشر أكبر خدمة للباحثين لاسيما المشتغلين
بالتاريخ الاسلامي عامة وبالتاريخ المصري الاسلامي خاصة الذي لا يزال
يفتقر الى الكثير من العناية والدراسة .

**المكانة الادبية لفيرجيل
شاعر اللاتينية
كما نراها نحن وكما يراها النقاد**

للدكتور حسن عون

لم يحظ بالشهرة أحد من شعراء العالم قديماً بمثل ما حظى هومروس .
شاعر اليونانية . و فيرجيل شاعر اللاتينية . هذه حصة ينبغي أن تقدم بها
البحث . وتقررها أولاً قبل أن نبحث عن مصدرها وتعرض لمناقشتها . بل
أنا لا نبالغ حين نقول أن شهرة فيرجيل بالنسبة لشاعر اليونانية كانت أبعد
مدى وأعرق أثراً : أبعد مدى لأنها لم تجعل منه شاعراً ممتازاً فقط ولا شاعراً
إنسانياً فقط بل جعله نبياً من أنبياء الشعر يتحدث عن المستقبل فلا تكذبه
الاحداث كما سيبين ذلك بعد قليل . وعمق أثراً لأن كل من جاء بعده من
شعراء اللاتينية حتى العصور الوسطى . بل وكثيراً من شعراء العصر الحديث
يعتبرون تلامذة له وعالة عليه .

كانت شهرة فيرجيل مبكرة . إذ أنه بدأ يسرعى الانظار وهو لا يزال
تلميذاً في مدرسة Grémone . ثم أنه حين أحس . وهو الفقير البتة
والرقيق الحال . بأن المنطقة كلها التي نشأ فيها تضيق بشهرته وبما كان
يمتني به نفسه من مكانة أدبية رفيعة . لم يردد في الذهاب الى روما . عاصمة
العلم والسياسة والادب .

وهناك في هذه المدينة الصاخبة وفي ذلك الوسط الزاخر بأعلام الادب
والشعر لم تتعثر شهرة فيرجيل بالرغم من ضعة أصله ومن صغر سنه . بل
درس على أكبر الاساتذة واتصل برجل الحكم وبرز في ميادين الادب ولم
يمض عليه سوى بضع سنوات حتى وقف في مسرح العاصمة ينشد الناس
من شعره فصفت له روما بأسرها ونادى به الشعب زعيم الشعراء وهو لم
يتجاوز فينا وعشرين سنة (١)

(١) هداما ذكره المؤرخ اللاتيني — P. Cornelius Tacitus — في مقدمة كتابه —
Dialogus de oratoribus . وكذلك — Suetone. Donat — في الفصل ١٣ من كتابه
عن فيرجيل . وكذلك Servius في الفصل ٦ من تعليقه على Bucoliques

ومنذ تلك اللحظة يسابق رجال السياسة في التفرّب اليه وفي بذل ما يستطيعون من وعود وأموال لكي يعتنق مبادئهم ويستخدم داعية من دعائهم . وأخيرا نجح أنصار الامبراطور أوغسطس في أن يجتذبوه اليهم ويكلّوا اليه رسالة روما السياسية والاجتماعية يفف نفسه عليها ويسحر ملكاته الشعرية في الدعوة اليها .

أصبح فيرجيل بعد أن احتضنه السياسة شاعر الشعب الروماني بأسره يقول فردد صدى قوله مدن ايطاليا كلها . ويدعو الى الاصلاح المنشود فيفعل صدى تلك الدعوة في أعماق الريف . الا أنه قد أصبح أيضا منذ ذلك الحين لا يعمل الا بوحى من السياسة وبالهام من رجال الحكم . فنراه ينظم ديوانه Bucoliques بوحى من Polion وديوانه Georgiques بوحى من Maecenas وأخيرا ملحمة « Eneide » بوحى من الامبراطور أوغسطس « ١ » .

وفوق ذلك فقد بلغ من أثر السياسة عليه أن استباح نفسه التثكير لبعض أصدقائه الذين آرروه في أوقات مجتته « ٢ » . ولتترك هذه المسألة جانبا وندعها لمن يريد أن يدرس أثر السياسة في الأدب وما ينبغي أن يكون عليه موقفه الاديب بالنسبة لرجال الحكم .

لم نعتز في تاريخ الادب اللاتنى ولا فيما تركه الكتاب اللاتينيون على نص يفهم منه أن واحدا من الشعراء المعاصرين لفيرجيل كان ينافسه الشهرة

(١) بروى ان Polion اقترح على فيرجيل ان ينظم ديوانا في الشعر خاصا بحياة الرعاة على نمط ديوان شاعر يوناني من جزيرة صقلية يسمى Théocrite وان Maecenas اقترح عليه نظم ديوان خاص باعمال الفلاحة ، وان اوغسطس اقترح عليه نظم ملحمة في تاريخ الشعب الروماني فلبى الشاعر كل ما طلب .

(٢) اشارة الى Cor Gallus الذي كان من اصدقاء فيرجيل حينما تولى هذا ولاية مصر ونزع الى الاستقلال بها غضب عليه اوغسطس فانتحر وكان فيرجيل قد سب ثناء عن هذا الصديق في ديوان Georgiques ولكن بعد هذه الحوادث حذف من الديوان هذا الجزء واستبدله بموضوع آخر

أو يسامييه في المادة الادبية ، ومعنى هذا أن الكل كان يعترف له بالاولوية في الشعر ويسلم له أمر الرعامة فيه . ولذا فقد استمر طول حياته محاطا بهالة من الاحترام وموضعا للتقدير من جميع الطبقات : أما رجال السياسة فكانوا يرون فيه الداعية المسموع الكلمة . وأما رجال الادب فكانوا يرون فيه الشاعر الانساني الفنان ، وأما طبقات الشعب فكانوا يرون فيه الشاعر القروي المؤمن . ولقد ظهر أثر ذلك كله بعد الموت مباشرة ، ولعل أول مظهر من ذلك هو ما أبداه الامبراطور أوغسطس من الحرص الشديد على نشر ديوان Eneide دون أن تضاف اليه كلمة ولا أن يغير فيه موضع بيت من الشعر مهما كان منه من اضطراب ومهما بدا عليه من نقص في بعض الابات . وذلك بالرغم من صحة اشاعر نفسه بأن يحرق هذا الديوان بعد موته « ١ » . ولم يكذ فيرجيل مواري عن الا نظار حتى أصبح دواوينه الثلاثة ميدانا للبحث بين العلماء والادباء ، وموضوعا للدرس بين الاسانذة والطلاب فالادباء اتخذوها مثلا أعلى لفن اشعر ينهجون بهجها في الافكار والمعاني . وبقدونها في كثير من الالفاظ والبراكب « ٢ » . والنحاة اتخذوها مثلا أعلى في نقاء اللغة وجمال الاسلوب يبنون كثيرا من قواعدهم عليها ويستمدون أمثلهم منها . وأما الطلاب فقد اتخذوها مثلا أعلى كدك في سهولة المعاني مع فخامة الالفاظ ، وفي عذوبة الموسيقى مع صحة الاوزان الشعرية يحفظون منها ما يقوم لسانهم . ثم يعدون من محفوظهم في مختلف المناسبات ما يقوى حجتهم ، ويزين أحاديثهم . بل أن هذا التروع الى تقدير الآثار الشعرية لفيرجيل قد ظهرت بوادره وهو لا يزال حيا ، إذ قررت دراسة ما ظهر منها ضمن ما كان يدرس في المدارس للطلاب « ٣ » .

(١) انظر ما كتبه Suetone-Donat في الفصل ٣٩ من كتابه عن فيرجيل ، وكذلك ما كتبه Servius عن حياة فيرجيل ، ثم ما كتبه في هذا الموضوع Fredric Plessis في كتابه La poésie latine ص ٢١٩ - ٢٢٠ .
(٢) كثير هم الشعراء المقلدون لفيرجيل ، وهم يخلفون في درجات التقليد ولعل اخصهم في هذا هو الشاعر Silus Italicus الذي عاش في أيام حكم الإباطرة وقد لعب دورا سياسيا هاما تحت حكم Vespasien Néron .
(٣) انظر Histoire illustrée de la lit. latine للاستاد Jules Humbert ص ٢٠٢ .

وهكذا أصبحت آثار فرجيل قرآنا بالسبب للغة اللاتينية ، اذ أنها بواسطة ما كان يحفظ منها منعت هذه اللغة من الانحلال ، وحفظت لها سلامتها وبمائها بالرغم مما أصاب الشعب الرومانى من تدهور واضمحلال ومما تعرضت له اللغة نفسها من ضعف نتيجة للصراع اللغوى مع الشعوب الأخرى .

ولقد صبب هذه الآثار محفوظة بما فيها من حيوية وبما لها من مكانة أدبية أثناء العصور الوسطى . بل لقد زاد من هذا ذلك المطهر الروحى الذى بدأ الناس يحيطون به فيرجيل . فكانوا اذا أرادوا الافدام على أمر أو اكتشاف ما يحبه الغد لجئوا الى دواوين فيرجيل ففتحوها منها صفحة عن طريق الصدفة ثم فروا أول بب من الشعر ، وما يدل عليه ذلك البيت كان بالنسبة لما يسوسحونه بشيرا أو نذيرا . وهذا المعنى هو ما يشير اليه ذلك الاصطلاح : *sortes virgilianae* الحظوظ أو الاقدار الفيرجيلية » .

وفقد دعم المسيحيون فى العصور الوسطى هذا المعنى حينما جعلوا من فرجيل شاعرا منبئا . اذ أنه بشر بالمسيح قبل مولده . ذلك أن الشاعر فى القصيدة الرابعة من ديوانه *Bucoliques* الذى نظمها بين سنة ٤٢ و ٣٧ قبل الميلاد . يتحدث عن مولد طفل يحكم الدنيا ويعيد الى العالم السلام ويكون عهده ايذانا بعوده العدل الى الارض . والنصر الذهبى الى الانسانية كلها . ولم يعرف على وجه التحقيق حتى الآن ماذا كان يقصده الشاعر من ذلك الطفل . وقد اختلفت وجهة نظر العلماء والباحثين فى ذلك المقصود ولكن يعنى أن نسجل هنا وجهة نظر المسيحيين لرى الى أى حد كان فرجيل تتمتع بالشهرة أثناء العصور الوسطى . والمسيحيون كثرة لا قلة ، ولم يكن ذلك فى الغرب وحده ولكن فى الشرق أيضا .

ثم اذا أشرفنا على العصور الحديثة رأينا الشاعر ينعم بمثل ما كان ينعم به من شهرة ومكانة أدبية فى العصور القديمة والوسطى ، ورأينا آثاره

الادبية كدلك تحفظ بما كان لها قديما من حبوبة وعظمة وتمدير . فها هو
ذا دانث Dante « ١ » صاحب — المسرحية الالهية — La Divine Comédie
يقتفى أثر فيرجيل في ميدان الشعر ويتخذة أستاذًا في تحير الالفاظ . وسعة
الخيال . واقتان الصور الفنية . ثم أنه في مسرحيته هذه ينحده هاديا ومرشدا
في زيارته للدار الآخرة كما تصورها . وهو في تصويره لها يستمد . من غير
شك . كثيرا من أفكاره وأوصافه من تلك الصورة الرائعة التي رسمها
للجحيم فيرجيل في جزء من أجزاء ملحمة Eneide .

وكلما تغلغلنا في العصور الحديثة مفترين من القرن العشرين وجدنا
مكانة الشاعر اللاتيني تسمو . ومجده الادبي يزيد مع الزمن . فيسجه العرب
الى العناية به ودرس شعره . ويسابق الناس على حفظ آثاره والاقباس
منها ، ولا توجد جامعة من جامعات الغرب دون أن يكون فيرجيل هو أساس
الدراسات القديمة فيها . ولا يكاد يوجد مثقف من مثقفي الغرب دون أن
يكون قد عرف شيئا عن فيرجيل وعن آثاره الشعرية .

وهكذا أصبح فيرجيل هدفا لانواع عديدة من الدراسات . ومهلا
للمثقفين من العلماء والادباء فالمؤرخون ومن يعيهم أمر الدين عند القدماء
يجدون في آثاره دائرة معارف . والادباء الكلاسيكيون يذوقون فيه ، المثل
الاعلى لجمال الذوق . وحسن السبك . وعذوبة المعنى . وبél الأفكار .
والرومانطيقيون يدهشهم ما يجدونه فيها من تلك العاصفة الحربية . ومن
ذلك الخيال الحالم . ومن هذا الحب العنيف للطبيعة وما تجمل به من
سهول وغابات وأنهار وجبال .

(١) يعتبر Dante شاعر إيطاليا العظيم في انشاء القرن الرابع عشر . ولد
سنة ١٢٦٥ ومات سنة ١٣٢١ م . وأثره الادبي الحالد هي تلك المسرحية
الالهية Divine Comédie وهي تنقسم الى ثلاثة فصول : الاول يساؤل
وصف الجحيم والثاني يتناول وصف الاعراف او دار الطهير من الخطايا
والثالث يتناول وصف الفردوس .

وان الاحتفال الذى أقيم فى سنة ١٩٣٠ ميلادية لمناسبة مرور ألفى عام على مولد فيرجيل ليعتبر دليلا يينا على أن شهرة الشاعر اللاتينى لم تنقطع ، وان عبية الناس به وآثاره لم تضعف ولقد صورته الادباء فى هذا الحفل كالعنوان البارز للادب اللاتينى . والممثل الاول للفكرة اللاتينية ، والمعبر الصادق عن روح الشعب اللاتينى ، ولذا فقد كان هذا الحفل عيدا للاتينية كلها ممثلة فى شاعرها الكبير «١» .

وهناك ظاهرة أخرى بعيدة الدلالة على ما كان يحفظه الشعب الرومانى لفيرجيل من مكانة أدبية سامية وما يكنه لى من قداسة واحترام ، ذلك هو موقف الرومانيين منه بعد الموت ونظرتهم الى مقبرته ، فقد كادوا ينخذونه اليهم اقرب له العرايين . ويجعلون من قبره معبدا تهرع اليه الناس بالدعوات . مكانة لم تتوفر لشاعر من قبله . ومنزلة لا تنقل عن منازل القديسين . وهامى ذى أمارات ذلك التقدير :

مات فيرجيل فى *Buthoe* وهبط رذته الى نابلى . ثم دفن فى ضواحي هذه المدينة على الطريق الى *Pouzzoles* سنة ١٩ قبل الميلاد . وفى القرن الاول بعد الميلاد قرأ وصفا لهذه المقبرة فى شعر *Statius* حيث يقول انها ليست مقبرة ولكنها معبد «٢» .

وهناك شاعر لاتينى آخر . هو *silus italicus* كان كثيرا ما يفخر بأن المقبرة التى تضم رفات فيرجيل تقع فى ممتلكاته وبذهب فى تقديسه لهذا الرفات الى درجة أن يقدم لهذه المقبرة فى كل سنة قربانا «٣» .

هذه صورة عاجلة لمكانة فيرجيل الادبية أثناء حياته وبعد موته . وعرض سريع لما حظيت به آثاره من العناية والدرس فى العصور القديمة ، والوسطى

١ - *Histoire illustrée de la litt. latine* مؤلفه *Jules Humbert* ص ٢٠٢
(٢) البيت ٥٤ من المقطع الرابع فى الكتاب الرابع من ديوانه « شعر المناسبات » : *Blives, IV, 4, 54*

(٣) *J. Humbert - Hist. illustrée de la lit. latine page 179 et page 297.*

والحدیثة وقد تحاشینا فیہما . ما أمکن . الاطاعة بضرب الاملة وذكر
النصوص واكتفيا بسرد الحقائق مجردة عن الاطناب .

وبعد فما هو سر تلك العظمة ؟ وبأي الوسائل استطاع فيرجيل أن يكون
لنفسه هذه المكانة الادبية الخالدة ؟ وما هو مصدر ذلك التقدير الذي ناله
من طبقات الشعب الروماني على اختلافها : تقدير من الطبقة الحاكمة ،
تقدير من الطبقة المثقفة ، تقدير من الطبقات البسيطة ما بين زراع . وصناع
وملاك صغار ؟ هذه هي الاسئلة التي يعيننا أن نجيب عنها الآن . وقد كما في
أثناء اطلاعنا على الآثار اللاتينية لا نملك الا الدهشة لما نجد في مبادئ
الثقافة اللاتينية من اجماع على تقدير فيرجيل والاشادة باسمه . والعسى
بآثاره . وفي الاجابة عن هذه الاسئلة سنحاول جهدنا أن نعبر عن احساسنا
الحاص . وتقديرنا الشخصي للذين — نسج لانفسنا أن نقول — اكسبناهم
نتيجة اطلاع عشر سنوات متوالية لا في دائرة الادب اللاتيني وحده . ولكن
في دائرة المعارف اللاتينية كلها من لغة ومبشولوجيا . وفلسفة . وتاريخ .
وقانون .

لم يكن فيرجيل ملهما . ولا نبي كما ذهب بعض المسيحيين في العصور
الوسطى ، وأمر الطفل الذي تحدث عنه لا يعدو أن يكون جولة من جولات
الخيال عند الشعراء . وما ينبغي للبحث العلمي أو النقد الادبي أن يفيد
بمثل هذا . ولا أن تكون مكانة الشاعر الادبية مستمدة من مثل ذلك
الخيال . ولكنها النزعة الدينية عند رجال الدين الذين يريدون أن يروا
أثرها في كل شيء وأن يتبنوا من أجلها كل عظيم .

لم يكن فيرجيل أيضا مفطورا على قول الشعر حتى يغدو ما لكا لزاما
متصرفا في أمره ، ولكن كان هو نفسه ملكا للشعر يسخر له احساسه .
وعواطفه . وخياله . وكل مألديه من معارف . وطريقته في نظم الشعر تصوره
صانعا لا مفطورا .

نظم فيرجيل أكبر وآخر ديوان له في الشعر . وهو ملحمة Enelde
في خاتل عشر سنين تقريباً . من سنة ٢٩ الى ١٩ قبل الميلاد ، وقبل أن يبدأ
في النظم وضع هيكل الملحمة وكتبها ثرا ، ثم أخذ ينظم هذه الافكار ،
وبعد عشر سنوات في سبيل النظم والمراجعة والتهديب والاصلاح لم يستطع
أن يفرغ من الملحمة بالطريقة التي يطمئن اليها ويرضى عنها ، ولهذا فقد رغب
في احرارها قبل موته ولما تعذر عليه الحصول عليها أوصى بأن تحرق بعدموته
ولولا حرص الامبراطور أوغسطس على هذه الملحمة . وعنايته بها أو رفضه
لسميد وسيرة فيرجيل لحرم الادب اللاتيني من أجل أثر فيه . ولكن حينما
جمع قصودها ونشرت كما هي دون زيادة ولا اصلاح وجد فيها ٥٧ بيتا
من الشعر لم يكن قد انتهى من اكمالها وصوغها .

وأما ديوانه في ديوانه الآخرين . اذ انه نظم Bucoliques في المدة
المحصورة بين سنة ٤٢ . سنة ٣٧ قبل الميلاد . مع أن الديوان جميعه لا يزيد
عن ٨٣ بيتا من الشعر . أما ديوانه الثاني Georgiques فقد نظمها في المدة بين سنة ٣٧ ، ٣٠
قبل الميلاد وهو لا يحتوى على أكثر من ٢١٨٧ بيتا من الشعر .

المسألة ادن واضحة لا تحتاج الى تفصيل أكثر ولا الى تعليل آخر لكي
تثبت أن فيرجيل لم يكن مفطوراً على قول الشعر يقوله دون تكلف وينظمه
دون عناء . وإنما تعلم أسسه . ومارسه ثم سخر نفسه في صنعته حتى برع
فيها الى درجة لا يسمو اليها سواه . وهذا في الواقع سر عظمته الادبية
كما سنشرح ذلك بعد قليل .

لم يكن فيرجيل أيضاً من ذوي العبقریات الخالقة فينعكس على نفسه
بشخصه أو يسجل في عالم من احساس المجتمع الذي يحيط به فتترامى
اليه موضوعات الشعر ويسج بوحى من نفسه . ولكنه كان واحداً من أولئك
الشعراء الذين لا يعملون الا بوحى من غيرهم ، وشاهد ذلك أنه نظم ديوانه
Bucoliques بأرشاد Pollion فهو الذي وجهه الى هذا النوع

من الشعر . وطلب اليه أن يظم للشعب الرومانى ديوانا من الشعر على نمط
ديوان الشاعر اليونانى الصقلى Théocrite وكذلك ديوانه Géorgiques
كان بتوجيه ووحى من Maccenas وأما ملحمة Enéide فكانت
تلبية لرغبة الامبراطور أوغسطس (١) .

لم يكن فيرجيل اذن متصفا بواحدة من هذه الصفات التى كثيرا
ما هيئت لاربابها من الشعراء سبيل الخلود الادبى . ولكنه مع ذلك قد أخذ
لهذا السبيل عدة أخرى شق بها طريقه . ووصل بواسطتها الى غايته : ذلك
أنه كما نراه نحن . كان شاعرا فنانا . وادا وصفناه بالفنان فانما نعنى بذلك
أوسع معنى تتحمله كلمة افن . ومن هنا فقط كانت عظمته فى الشعر .

كان فيرجيل مرهف الحس . جميل الذوق . نبيل العاطفة . اسانى
الادراك . واسع الخيال . قوى البان وهو مع ذلك قد طبع نفسه على
الحزن . تستشره المآسى . لانها فسم مشاع بين الكائنات . ولا تهيج الافراح
لانها حظ بين الطبقات . وقد تمكنت منه كل هذه الصفات حتى استطاع
أن يسخرها طوعا فى خدمة فنه .

(١) يضاب الى هذا ان كثيرا من افكاره . ومعانيه . ومناظره الطبيعية التى
وضعها فى هذه الدواوين . ماخوذ من الشعراء اليونانيين الذين قراهم واراد
تقليدهم . ومصادره فى ذلك معروفة مشهورة .

انظر J. Humbert : Hist. و Fredric Plessis- la poésie latine p. 217

illustrée de la Lit. Latine, p. 178—196.

اميل برهيه وكتابه الآخر في الفلسفة المعاصرة

للدكتور نجيب بلدي

الاساذ اميل برهيه أستاذ الفلسفة السابق بجامعة باريس وعضو المجمع العلمي الفرنسي . ومن أقطاب الفلسفة وتاريخها . كان أول أستاذ للفلسفة بالجامعة المصرية . عند افتتاحها عام ١٩٢٥ . ثم جاءها عام ١٩٣١ . وكان له أعظم الأثر في توجيه أول فوج من الطلاب المصريين في الفلسفة في مصر ، وفي فرنسا ثم غرس في نفوسهم حب الفلسفة . وأوقد فيهم الحماسة لموضوعاتها ومنهجها ومشكلاتها .

توفي هذا الرجل في سن الخامسة والسبعين في أوائل عام ١٩٥٢ . وكان حتى نهاية حياته شابا في تفكيره . حيا في أحاديثه . قويا في دفاعه عن المثل العليا ، متحمسا للفهم الروحية . غنيا في معارضته لاعدائها . مستعدا للبحث عن الحقيقة واتخاذ شتى المناهج في ذلك . مضحيا بما اعتاده الفلاسفة من طرق ، دأبا على اختيار أحدها ، وأبعدها عن المؤلف حيثما وجد ضرورة لذلك . ولم يكن من بين الفلاسفة الفرنسيين من استطاع مثله مسيرة اليار العنيف الذي أحدثته في العشرين سنة الأخيرة مخلف النظريات الفلسفية والعلمية الجديدة ، بل كان له سبق أجابا على المفكرين الشبان أنفسهم في التنبؤ عن خطر منهج جديد أو ثمرة بحث طريف .

وقد رأينا أن نقول كلمة في مجلة كلية الآداب عن آخر كتاب «أ» نشر له قبل وفاته ، يقص علينا فيه التغير العميق الذي اعتري الفكر الأوروبي المعاصر . والتغير ظاهر له في موضوع الفلسفة ، في منهجها ، وفي مختلف المواقف التي انتهت إليها .

Emile Bréhier : *Les Thèmes Actuels de la Philosophie* (Presses Universitaires de France, Paris 1951).

وأغرب ما تظهره دراسة الفلسفة المعاصرة لهو مع تقارب أوجه المظهرين المحدثين والقدماء . تباعد مواقف المعاصرين عن أولئك وهؤلاء : نعم قد اتخذ ديكارت « الانسان أو الأنا » نقطة بداية في الفلسفة . من ناحية أخرى ، برنامج الفلسفة القديمة والوسيطة التي أرجعت خصائص الانسان وطبيعته الى مبادئ الكون العامة والاساسية . الا أن ديكارت رأى في الانسان كائنا حائزا على سلطة فكرية عظيمة وعلى فوائن ثابته تجعل منه مركز الكون وأساس الموضوعات والعلوم معا . فكان مبادئ الكون هي بحث عنها القدماء والوسيطون . فد انقلب عند المحدثين الى العدل الانساني . فطبعت عليه علامات الحقيقة الموضوعية طبعا نهائيا .

أما منهج المحدثين وخاصة ديكارت . فهو بلا شك ابتكار طريف لم يعرفه القدماء ولا رجال العصور الوسطى : ولكنه مع ذلك ليس الا مظهر اكتمال العقل الواثق بنفسه . الشاعر يتبعه . المؤمن ببيات بسانته . تركيبه . فاكشافه . مشى مع النظام الميت الذي أجمع القدماء والمحدثون على أنه أساس العلم والمعرفة .

نعم . قد انتهى الفلاسفة المحدثون وديكارت في طليعتهم الى مواقف فلسفية تعارف نظريات الاقدمين شدة مماثلة . وأبلغ مظهر لهذا الاختلاف ، تلك النظريات التي أطلق عليها اسم « المثالية » ايديالزم (idéalisme) . بعضها يرجع العالم الى معاني النفس القطرية . والبعض الآخر يفترض الموضوعات ثمره تركيب العقل لمادة خاضع لا يدري عن أصلها شيئا . والبعض الاخير يرى فيها ثمره تقدم العقل الانساني وتطوره المطرد . الا أنه مهما كان من أمر هذا الاختلاف فان مواقف الفلسفة الحديثة من ديكارت حتى هيكل . فيها دلالة واضحة . على ايمان بالعقل الرشيد ، وبقوته وسيادته . هذا العقل الذي رأى فيه بعض الاقدمين . غية العالم العليا . والبعض الآخر مبدء الحجة السارية في الكون بأكمله .

أما المعاصرون. فجاءوا نادمسون لذلك العقل المنظم المشروع سبيلا، فلم يجدوه . أما الانسان . ففى نظره . غير ذلك الذى تكلم عنه ديكارت .

يجمع المعاصرون على دراسة الانسان فى وجوده الواقعى ، وينكرون ادعاء انذين رأوا فى العقل سلطة قائمة بذاتها ، حاكمة فى الانسان والعالم . وليس الانسان كما تصور ديكارت كائنا مفكرا حصر تفكيره فى ذاته . وأعلق على نفسه نوافذ العالم اغلافا محكما . كلا ! ان الانسان فى صلة مستمرة «^١» : فى صلة مع العالم المادى : جذور الانسان منبعثة منه . متصلة فيه . فى صلة مع البدن . فلافوا بين خاصة بالبدن وحده . ولا بالنفس وحدها . وإنما حصة مشتركة . فى صلة مع الغير : حتى أن المعتكف فى مخدعه لمدين الآخرين بحياته المادية . وموضوعات فكره وعلمه .

أنظر لفيلسوف مثل هوسرل (Husserl) تجده قد رفض ارجاع المعرفة الى فعل النفس وحدها أو الى فعل الموضوع وحده ، واعتبر المعرفة حصة مشتركة . واعتبر الذات مركز علاقات فى تغير مستمر لا يخرج النفس من احداها حتى تدخل فى أخرى .

أنظر الى جبريل مارسيل . لم يفهم لأننا معنى ملم يثبت. أمامها «أنت» ولم يقرر لأننا وجودا الا لأنها قابلة لأن تصبح «أب» — أنظر الى الفلاسفة الوجوديين . وفى مقدمتهم هيديجر . تجددهم قد نبذوا الجوهر المفكر ، المفصل عن الجسم فى تفكيره . بل قد نبذوا الجوهر اطلاقا ، وأحلوا محله وجودا هو أشبه الاشياء بالحقل المغنطيسى ، مجال تأثر وتأثير «^٢» . درسوا الانسان كائنا « ملقى فى العالم » «^٣» كما قل بسكال ، فى مغامرات مستمرة . لا يخلص منها الا ليلقى نفسه وجها لوجه أمام الموت .

لو انتقلنا الآن للمنهج . لاحظنا أنه لا سبيل لمعاصر أن يتخذ سنن راتبه مننامقة . كما هو الامر عند ديكارت ؛ وان حل المشكلات لا يفترض عناصر بسيطة تركيبها العقل تركيبا منتظما . بل لابد من بحث كل مشكلة

(1) *Thèmes* p. 18

(2) p. 105

(3) p. 58.

على حدة . في ضوء المبادئ الصالحة لها . دون سواها . وأمر هذا بين في دراسة المعاصرين لمشكلات النفس أو المجتمع . وفي هذا الصدد يقارن الاستاذ برهيه بين منهج رجل مثل دوركهام في دراسة الظواهر الاجتماعية وطريقة عالم معاصر مثل ليفي ستروس : فبينما كان منهج دوركهام استدلاليا تركيبيا . نجد ليفي ستروس يعتمد في الاغلب على ملاحظات مباشرة . ويقف طويلا في مرحلة وصف الوقائع ، دون الاستعجال الى تفسيرها . أو الى ارجاعها لمبادئ عامة - ولا نجد عند المعاصرين أيضا تلك الروح الطموحة التي نلاحظها عند هيجل . ولا الثقة الوطيدة في المستقبل . ولا ارادة توجيه السياسة أو الاقتصاد حسب نهج عقلى عام . ان نظره الفيلسوف المعاصر ضيقة محدودة . غير أنها في بعض الاحيان نور وهاج يلقيه على الانسان وعلى النطاق الضيق القائم حوله .

وليس هناك أدل على اتخاذ طريق جديد . من اخفاء عده دراسات كانت شائعة عند المحدثين : فاختفى التحليل الذاتي البحت للنفس . وحل محله وصف للانسان في اتصاله بالبدن والعمر والله . ولتقارن في هذا الصدد بين يوميات رجل مثل أمييل (Amiel) عاش أثناء القرن التاسع عشر . ويوميات المعاصر جبريل مارسيل «^١» . فد اختفى أيضا ما سمي منذ كنط « نظرية المعرفة » . أي محاولة تحديد مبادئ أولية توحه العقل في معرفة أى موضوع . ثم اختفت أخيرا جميع المحاولات العامة للتفسير . كالنظرية الترابطية associationisme التي ترجو اقامة العالم على وفائع نفسية نافهة كالاحاساس وتداعى الخواطر «^٢»

الا أن أهم ما نلاحظه هو اخفاء المثالية « ايديازم » في مختلف صورها . وكان من بين آخر ممثليها الاستاذ لبون براشيج صديق برهيه وقد توفي عام ١٩٤٤ . كان هذا الاخير موقنا باستقلال العقل الداخلى . وقدرة النفس على حياة جميع القيم وعلى ادراك الله تعالى . دون أن تضطر في ذلك

(1) Thèmes p. 19-20.

(2) p. 21

الى الخروج عن ذاتها ونهديد استقلالها الداخلي . الا أن التحليلات المعاصرة
لاحوال المعرفة والمواقف دلت على أن التعدي «¹» transcendence أو خروج
النفس عن ذاتها ونطاقها ، هو في أصل النفس . ظاهر في الادراك الحسي ،
في الحب والكراهية ، في الصلاة والعبادة .

وبالجملة فحدث الفلسفة اليوم غير حالها بالامس : ولو رجع فيلسوف
توفي من خمسين سنة الى الحياه والتفلسف ، وجب عليه ابتداء كل شيء
من جديد . وأغرب الامور أن الاستاذ برهسه كان عائشا وفيلسوبا من
خمسين سنة أو أكثر . وكان في بداية تفكيره مسابرا للزغاب عصره . مرتابا
في قيمة الفلاسف الجديدة الناشئة . ولكن سرعان ما رأيناه في العشرين
سنة الاخيرة من حياته ، تراجع موافقه الواحد بعد الآخر . وسرعان ما رأيناه
يمعجب بطرق ومناهج لم تدخل تفكره في حساب . ويسلم بتناجح كان أبعد
السن عن السلم بها . ولم يكن مناقضا لنفسه في ذلك . بل كان دائما على
تحقيق رأى الاعترق في الفلسفة . وهو أنها حياه قبل أن تكون فكرا أو
نظرا .

.....
فجيب بلدى

وليام پپر

(WILLIAM POPPER)

المستشرق الامريكى

تلك كنوز عزيزة سوربال عطية

فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ اجتمع كلمة رهط من كبار امستشرقين
والعلماء الامريكيين على اصدار مجلد " ضخم يقع فى قرابة خمسمائة
صحيفة لاهدائه الى أسنادهم وزميلهم وليام پپر فى مناسبة بلوغه الماء
الخامس والسبعين من حياته الخصبة المليئة بحلائل الاعمال واحداث
العلمية فى ميدان الدراسات الشرقية بوجه عام . وابتعدت السامية والغربية
بوجه خاص ، فى أمريكا . وهم بهذا انما يقدمون تحية التحنن الجديد الى
الجيل القديم . ويضربون مثلاً رائعا من مثل الاخلاص والولاء واتصديق
ودكر الجليل لشخ من شيوخهم . لا عن طريق الخطبة والنقطة الاجوف
ومصيره الى الزوال . وابما عن طريق البحث والتقيب والكشف عن
غوامض العلوم والفنون . التى طرق هو بابها من فهمها فتفتح أمامه على
مصراعيه . فولجته وولجته من بعده تلاميذه الذين شئت الاقدار والاخلاق
أن يكتب لاسمائهم العلود الى جوار أسنادهم تحليل اسمهم فى هذا
السفر الجديد .

وقد قام بالاشراف على نشر هذا المجلد خفنه فى كرسى اللغات السامية
وآدابها بجامعة كاليفورنيا بيركللى (Berkeley) المستشرق المعروف الاسد

(١) ظهر هذا المجلد بعد ذلك بحوالى سنتين تحت العنوان الآتى :

Semitic and Oriental Studies Presented to William Popper, University of
California Publications in Semitic Philology, Vol. XI. University of California
Press (Berkeley and Los Angeles 1951).

الدكتور والتر شيل (Fischel) . واشترك في بحيرة أوبسكة وثلاثون
 باحثا . طاح الدهن عند استمراس بحثهم . التي أدت بشمل المشق
 والمغرب من اليابان ، الصين على شاطئ المحيط الهادى الى الامموريسا
 وسان فرانسيسكو على شاطئ الآخر من ذلك المحيط . والى غير العلمين
 القديم والجديد .

وان مجلدا كهذا استمدح الاسان بعدد مساحى موضوعاته . وتبين
 طبائها . وتباعد مادها . الى حد يدفعنى الى الاعتقاد بحرينى من الآراء
 المؤلفة . ومما ادهش به مسجحاته فى حاشيتها مضاعفة مسجحاته من تأليفها
 لآخرها . وهذا المجلد ان دل على شيء اذن فهو انما يدل على قدر المحدثين
 الى وعده . وقسلة . اثره فى سجل العلم . محدود .

فلبس ولباسه بين بعد ظهر يوم من ايام الرابع المساء بعمره الحشيش
 على رهوة من روى مدينة بركلى الجامعية . تعبط به الحدائق الغناء .
 وشدة الهدوء من الدكتور فوشل فى مساحى . فستعيد . مسجحاته
 المسجحة رغم . كل ما لاد من ثم . منى على اثر كسر فى نظره مسجحة . وهو
 يتسلل بين أرجاء الجامعة سعيا وراء الكتب والمراجع سريعة لم تتعلمها منه
 يوما . حمى غفلة اعلى . وكان من مسجحاته مريحة . مريحة . مسجحاته .
 محدث افراف . تحدث رهاء السنة . الاحمرية والعريسة على "سواء" .
 وول الى ان تسلب الاعمال التي يضطلع بها فى شجوخته بشت فكرته عند
 وهو فى صدد نشر كتاب "نحوه" اثره . منذ ترحيل عام حلت . وتم
 يسعفه الرمز والجدل تحقيقه مع اثباته الجامعية . انما وقد تقدمت من الجامعة
 فهو الآن يسعى فى تحقيقه واخراجها الى حيز الوجود . ويؤمل دراساته
 فى ابن تفرى يردى . كذب مقاييس السيل .

وكان ولده يبرق فى السبعة والسبعين عاما . وهو قصير القامة ؛
 نحيل الجسم . حليق الوجه . كبير الرأس . شيب الشعر . عاش للمعلم
 واساميت . كما يعيش لها اليوم فى خلوته . ولد فى مانتويس (St Louis)

من مقاطعة مسوري (Missouri) في يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧٤ . ودرس اللغات السامية بجامعة كولمبيا في نيويورك تحت اشراف الاساد رتشارد جوتيل (Richard Gottheil) . وأحرز فيها درجة البكالوريوس (A.B.) سنة ١٨٩٦ . ودرجه الماجستير (M.A.) سنة ١٨٩٧ . والدكتوراه (Ph.D.) سنة ١٨٩٩ . وبعدئذ أمضى أعواما ثلاثة في جولات واسعة بأوروبا والشرق الاوسط . حضر أثناءها على جهابذه العصر من المشرقين الاوربيين أمثال يوتنج (Euting) ونولدكه (Noldake) ودرنورج (Derenbourg) وغيرهم ، ثم قضى السنة الاخيرة (١٩٠١ - ١٩٠٢) من تلك البعثة في زيارة بعض أقطار الشرق الاوسط وهي مصر وسوريا وفلسطين والعراق . حتى يسبح بذلك لنفسه فرصة تطبيق العلم على العمل . وفهم لسانه في الحديث بالعه العربية مع أهلها من الناطقين بالضاد في أوطانهم الاصلية .

فلما عاد الى وطنه . بدأ حياته الاكاديمية بجامعة كولمبيا حيث اشغل بالمحاضرة في اللغات السامية مع أستاذه القديم . كما انتدب رئيسا للسم الشرفي من مكتبة نيويورك العامة . واستمر في هاتين الوظائفين حتى سنة ١٩٠٥ . حينما انتقل الى جامعة كاليفورنيا التي قضى فيها بقية أيام خدمته . فعين مدرسا للغات السامية بها في تلك السنة . وأمضى بهذه الوظيفة عشرة أعوام كاملة حتى نضج نضوج العلماء . وترقى ستادا مساعدا في سنة ١٩١٥ ثم أسنادا لكرسى اللغات السامية وآدابها سنة ١٩٢٢ وقد قارب الخمسين من عمره . وظل يشغل هذا الكرسى حتى سنة ١٩٤٥ . فلما تقاعد عن العمل بالجامعة انتجبه رملأؤد بالاجماع في السنة ذاتها أسنادا فحريا يسهم (Professor Emeritus) لكي يكون له في الجامعة مالهم من الحقوق . وعليه من الواجبات مايضمن لهم الانتفاع بطول خبرته وصائب توجيهاته .

وفد اتجه پير منذ بداية عهده بالساميات الى الانصراف لدراسة أصول اللغتين العبرية والعربية ، وقطع في هذا الميدان شوطا بعيدا ، وكتب ونشر فيهما الشيء الكثير . وله نظريات وبحوث تحليلية في أدب اللغة العبرية

القديم . أهمها مؤلف معروف عن سفر أشعيا النبي «^١» من كتب العهد القديم ، وقد كان لأرائه صدى هائل في توضيح غوامض الفكر العبراني ومعاني الاساليب الادبية «أشعار نبوة أشعيا» . ولكن عمله الجبار انما يقع في دائرة الدراسات العربية حيث قام بنشر كتاب « النجوم الزاهرة » في ملوك مصر وانهضة ، لابى المحسن يوسف بن تغرى بردى «^٢» من كبار مؤرخى القرن الخامس عشر الميلادى (توفى سنة ١٤٧٠ م) .

الكتاب ابن تغرى بردى هذا قصة قديمة . فقد كان أول من استلم الانظار اليه المستشرقان المولسدون خونبول (Juynboll) وماتثاس (Matthes) في أواسط القرن الماضى . فشرأ منه القسم الاول «^٣» ، ثم انطعمانه الى أن ظهر المستشرق الفرنسى باربييه دى ميسار (Barbier de Meynard) فشر « استعراجات » منه بالعربية صحبها بترجمة فرنسية في موسوعة الوثائق الخاصة بالحروب الصليبية «^٤» بباريس سنة ١٨٨٤ - وبعدئذ أسدل اسار على كتاب « النجوم الزاهرة » . وظل في زوايا النسيان الى أن أحياه بير بمواصلة العمل الاصلى الذى بدأه المستشرقان الهولنديان فأخذ في شر الجبر ، تلوا الجزء . منذ سنة ١٩٠٩ ، حتى أتم اصدار احد عشر مجلدا منه في سنة ١٩٣٩ . وقد أرفقه بكتاب آخر انتهى من نشره في سنة ١٩٤٢ ويشتمل

(١) Parallelism in Isaiah University of California Publications in Semitic Philology Vol I, Nos 3 - 5 pp 267 - 552 (Berkeley 1918 - 1923)

(٢) University of California Publications in Semitic Philology (Berkeley 1909 - 1942)

بدأ كتاب النجوم بالقسم الثانى من الجزء الثانى وانتهى في الجزء السابع سنة ١٩٢٩ وقد دبله بمختصات من كتاب « حوادث الدهور في مدى الايام والشهور » لابن تغرى بردى ايضا - انظر كذلك البحث الذى نشره المؤلف في موضوع لابن تغرى بردى وعنوانه :

« Hilāl as Sabī in ibn Taghri-Birdī's "Nujūm Az-Zāhira" », in Mélanges Hartwig Derenbourg 1844 - 1908 (Paris 1909) pp. 237 - 243

(٣) T.G.J. Juynboll and B.F. Matthes, vols. I and II part I. (Leiden 1855, 1861).

(٤) C.A.C. Barbier de Meynard Extraits du Noudjoum ez Zahireh Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux (Paris 1884). Vol. III, pp. 475 - 509.

على مسجبت من كتاب «حوادث الدهور في مدى الأيام والسنين» الذي يعبر
مكملاً لكتاب «النجوم الزاهرة» . وقد قصد ابن تغري بردي أن يجعل منه ذيلًا
لكتاب «الساؤل لمعرفة دول الملوك» للمفردى . ونظرا لأهمية كتاب «النجوم
الزاهرة» كمنبع من مساجع التاريخ المصري الوسيط . عمدت دار الكتب
في القاهرة إلى إصدار طبعة مصرية «^١» منه لنجعله في متناول القراء
المصريين .

وللاسفاذ ببر رسالة أخرى في سبب تفاديه . وإلا فإداه عن السدريس
والاعباء الجامعية . والفرغ للعمل العلمي البحت . وتدور هذه الرسالة
حول ابن تغري بردي . فهو برمع إصدار سلسلة من الدراسات والبحوث
التاريخية التي استوحاها من نشر نص «النجوم الزاهرة» . وقد بدأ هذه
السلسلة بمجلد أول موضوعه «مقاس النيل» «^٢» . وهو أكمل ماكتبه
كاتب عن المقباس . سماه مؤامره في أسلوب علمي ينسار بالدقة الرياضية
التي بناها على منطق الأرقام . فجاء هذا الكتاب اعجب نموذجا من
نماذج البحث في التاريخ والآثار والجغرافيا التاريخية يكاد لا يداني . وقد
قسم المؤلف هذا الكتاب إلى قسمين كبيرين : الأول عن تاريخ المقباس
ووصفه منذ أقدم العصور ؛ والثاني عن الاحصاءات المتعلقة بمياه البحر في
ارتفاعها وانخفاضها . وقد جمعها منذ الفتح العربي ٦٤١ م إلى آخرات
القرن الماضي في سنة ١٨٩٠ م .

ويذكر في صدر القسم الأول تطور المقباس وانفصاله من مكان إلى
مكان . ويتضح من روايته أنه أسست في عصور مختلفة سبعة مقاييس
مستقلة بمنطقة القاهرة وما حواليتها . وهي الآتية :

(١) ظهر من هذه الطبعة من سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٤٩ عشرة مجلدات وأحر
ما وصلت إليه سنة ٧٥٨ هـ .

(٢) The Cairo Nilotometer. Studies in Ibn Taghri Birdi's Chronicles (٢)
of Egypt I University of California Publications in Semitic Philology, Vol.
12. (Berkeley and Los Angeles 1951.) Pages xl, 269.

(١) مقياس مص . وكانت آثاره لازال ظاهرة حتى القرن الخامس عشر . وقد قبل ان فراءاته كانت تؤخذ زهاء قرن ونصف قرن بعد الفتح العربى لمصر سنة ٦٤١ م .

(٢) مقياس « قيسارية الاكسية » وكان واقعا بمصر القديمة على مقربة من حصن بايلون . وأمره غامض ، وقد ورد ذكره فى ياقوت والمقريزى وابن عربى نردى . ثم غف محله فى صدر العصر الاسلامى .

(٣) مقياس « قصر الشمع » أو حصن بايلون بمصر القديمة وكانت مياه النيل واصله اليه فى ذلك الوقت .

(٤) مقياس حاوان . أشاءه عبد العزيز بن مروان عندما نزع بعاصمة البلاد من مصر القديمة الى بقعة تبعد عشرة أميال جنوبها . فابتنى المقياس الحديد بالعاصمة الجديدة هناك ما بين سنتى ٦٥-٨٦ هـ ، ٦٨٥-٧٠٥ م .

(٥) مقياس الروضة الواقع على الطرف الجنوبى من الجزيرة . بناه أسلا فى سنة ٧١٥ م . تسميته زيد السوخى أمير الحراج فى عهد الوليد (٨٦-٩٦ هـ ٧٠٥-٧١٥ م) وسليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ ، ٧١٥-٧١٧ م) ، ثم تجدد أو بنى آخر غيره فى نفس المكان فى عهد المتوكل سنة ٨٦١ م .

(٦) مقياس الروضة العربى بناه أحمد بن طولون ما بين ٨٦٨ و ٨٨٣ م على مسافة قدرها نصف ميل من المقياس الجنوبى على شاطئ الجزيرة العربى حيث يقال أن آثاره ظلت شاخصة للعيان حتى سنة ١٨٠٠ م ، وكان المقصود من بنائه ضبط القياس عندما تهب الرياح الجنوبية وتعلو الامواج فى المقياس الجنوبى .

(٧) مقياس الخازن عند مرسى السفن على شاطئ مصر القديمة ، بنى فى عهد الاخشيديين بين ٣٢٣-٣٥٧ هـ ، ٩٣٥-٩٦٨ م ، ويقال ان اسم

بأنه أبو بكر محمد بن عبد الله الخازن . وذكره يعقوت وابن دقماق
وابن تغرى بردى وغيرهم . وقد عقت معاملة ولم يعثر له على أثر .

ولاشك أن أهم هذه المقاييس وأبداها هو مقياس الروضة الجبوى .
وقد أقرده المؤلف فصلا جمع فيه ما دل في وصفه من الأصول التاريخية .
واتبع في علاج موضوعه طريقة لها طرافها . اذ بدأ بالكتاب المحدثين في
القرن التاسع عشر ورجع المهقرى الى القرن السابع الميلادى . فآخذ من
لوپير (Le Père) ومارسيل (Marcel) سنة ١٧٩٨ - ١٨٠٠ في الحملة الفرنسية .
ثم الاسحقافى سنة ١٦٢٣ . فالفيرزى في القرن الخامس عشر . وابن دقماق
حوالى سنة ١٤٠٠ . وابن ابيك سنة ١٣٣٣ . وابن خلكان سنة ١٢٥٦ .
والقزوينى في القرن الثالث عشر . وابن جبر سنة ١١٨٣ . والادريسي
حوالى ١١٥٤ . والمسعودى سنة ٩٥٣ - ٩٤٤ م . واحمد بن الحاسب
سنة ٨٦١ م . وديونيسيوس الانطاكى بطريرك البعاجة سنة ٨٣٢ .

وبعد أن يتحدث المؤلف عن النقوش الى على المقياس . وعن ارتفاع
انفيضان الى الستة عشر ذراعا التقليدية لجباية الجراح . وعن شق الخليج .
وغير ذلك من الموضوعات . ينتقل الى القسم الثانى وهو القسم الاكبر من
الكتاب . جله عن أحصاء أرقام ارتفاع مياه النيل من الأصول التاريخية
في بابين : أولهما يشمل على الأرقام التى وردت في كتابات ابن تغرى بردى
وابن الحجازى وابن اياس وابن ابيك وابن القرات وابن الفجرى والمقرزى
والقلقشندى وعبد اللطيف البغدادى والمسعودى عن الفترة التالية للفتح
العربى من سنة ٦٤١ م الى سنة ١٥٢٣ م . وثانها من سنة ١٥٢٣ م الى
سنة ١٨٩٠ . أخذ أرقام جداولها عن على باشا مبارك والامير عمر طوسون
وبعض الرحالة الاوربيين .

وعلى ضوء تلك الجداول يدرس المؤلف الهيايات العظمى والصغرى
للانفيضان بالذراع والاصبع . ويفارن بعضها ببعض . من عام الى عام . ومن
عصر الى عصر . ويطلع من هذه البحوث الطويلة المضنية بست نتائج

يجملها في مقدمة الكتاب لنصحيح الاوضاع الشائعة عن المقياس ، والذبذبة
الحاصلة في ضبط طول الذراع والاختلاف في تقديره من عهد الى عهد ،
وعن تحديد نقطة الصفر التي يبدأ منها القياس في قاع بئر المقياس ،
وسلسلة التقاويم التي يرتبط بها تاريخ الفيضان ، والحكم على تكامل
انفيضان عندما تصل مياهه الى الستة عشر ذراعا التقليدية ، والارتفاع
المضطرد في قاع النهر بتراكم الغرين وما يترتب عليه من ارتفاع سطح
مياهه . وكل هذه مشكلات كبرى يعجب القارىء كل العجب اذ يدرك أن
كاتبها وصل الى تحقيقها من مصادر أدبية في وقت لم تكن العلوم الرياضية
والهندسة المدنية قد بلغت فيه شأوا يمكن الباحث من معالجة هذا الموضوع
دون كبير عناء .

لاغربة اذن أن يكون وليام بير في شيخوخته موضع تبجيل تلاميذه
وزملائه وأصدقائه الكثيرين الذين لم يترددوا لحظة في المساهمة في ذلك
المجلد العلمى الكبير في الدراسات الشرقية والسامية لاهدائه اليه . ويشتمل
هذا المجلد على أربعة وثلاثين مقالا ليس من اليسير أن نلم بتحليلها في هذه
الصفحات العارة ، ونكتفى بالتدليل على بعضها «أ» مما نظن أنه يهم أغلبية
قراء العربية فيما يلي من السطور :

Peter A. Boodberg : Three Notes on T'u- chüch Turks. Pages 1 — 11.
Walter J. Fischel : Ibn Khaldûn's Activities in Mamlûk Egypt (1382 — 1406).
Pages 103 — 123.

William M. Green : Augustine's Use of Punic. Pages 179 — 190.
Ernst H. Kantorowicz : Dante's « Two Suns ». Pages 217 — 231.
A.L. Kroeber : The Novel in Asia and Europe. Pages 233 — 241.
Wacław Lednicki : Ex Oriente Lux (Mickiewicz and Pushkin). Pages 243 —
261.

C. Grant Loomis : The Genesis and the Influence of the Metrical Psalms of
Martin Opitz. Pages 285 — 296.

Henry L. F. Lutz : Plaga Septentrionalis in Sumero - Akkadian Mythology.
Pages 297 — 309.

Otto Maenchen - Helfen : Arabic Nomenclature in the Characters of Lope
de Vega's Plays. Pages 339 — 343.

(١) ذكرنا البحوث التي لها علاقة بالشرق الاوسط مع اسماء مؤلفيها
والصفحات التي ظهرت عليها في هذا المجلد .

Leonardo Olschki . The Wise Men of the East in Oriental Traditions. Pages 375 — 395.

George Rentz . Pearlning in the Persian Gulf. Pages 397 — 402.

Edward H. Schafer . Iranian Merchants in Tang Dynasty Tales. Pages 403—422.

H.R.W. Smith . A Meeting of East and West. Pages 423 — 427.

Ronald N. Walpole . Charlemagne's Journey to the East. The French Translation of the Legend of Pierre de Bauvais. Pages 433 — 456 .

ومهما يكن من شيء فإن هنالك ملاحظة أخيرة لا بد من تسجيلها في ختام هذا المقال . ألا وهي أن ظهور هذا الكتاب التذكاري الذي نحن بصددده جاء في نفس العام — عام ١٩٥١ — الذي طلع فيه وليم بير على الناس بكتابه « مقياس النيل » . ولهذا الاتفاق معناه ومغزاه ، فالرجل اذن لم يطمح سجل جهاده العلمي بهذا التكريم أو اسويج ، ولو أن ذلك أصبح أمرا طبيعيا بعد أن توافر على نشر المجلدات تباعا زهاء مدة تربو على نصف قرن من حياته الزاخرة . بل أننا نراه اليوم في شيخوخته يواصل يومه بأمسه في الجهد والاجتهاد والاتاج العلمي ، وهو يجاهر بأن كتاب المقياس الذي نشره وقد قارب نهاية الحلقة الثامنة من العمر انما هو الحلقة الاولى من سلسلة من الدراسات التي يعمل على اتمامها اذا أسعفته الايام وأمهلته الاقدار .

عزيز سوربال عطيه .

تعليقات

على بعض الاشارات الفارسية في الأشعار العربية

للدكتور طه ندا

في الأشعار العربية كثير من الاشارات التي تتعلق بتاريخ الفرس أو ادبهم أو نظمهم أو بيان ما كان لهم من حضارة على وجه عام . وفي هذه المقالة مثال لما في هذه الأشعار من اشارات :

يقول خالد الفياض :-

والمك كرس شهنشاہ تقمصه	نهم بریش جناح الموت مقطوب
اذا كان لذته شبيذ يركبه	وغنج شیرین والدياج والطيب
بالنار آلى يميننا شد ما غلظت	ان من بدا فنعى الشيديز مصلوب
حتى اذا اصبح الشيديز منجدلا	وكان ما مثله في الخيل مركوب
ناحت عليه من الاوتار اربصة	بالفارسية نوحا فيه تطريب
ورنم البهلبد الاوتار فالتهبت	من سحر واحتة اليسرى شائب
فقال مات فقالوا انت فنت به	فاصبح الحنث عنه وهو مجدوب
لولا البهلبد والاوتار تنديه	لم يستطع نعى شيديز الازيب (١)

١. معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٢ ط ليبزج .

الشهينشاه : الإشارة الأولى في هذا الشعر هي « الشهينشاه » . والشهينشاه الذي يعنيه الشاعر هو خسرو پرويز أو كسرى أبرو ركما يسميه العرب . وكسرى أبرويز شأن يذكر في حوادث العرب والمسلمين . وقد روى أنه لما سمع ما لبثت النعمان بن المنذر ونساء أسرته من الحسن والجمال أراد أن يصهر إليه وأرسل زيد بن عدى يفتحه في الأمر وهو يفتن أن النعمان سيلي الظالم فخوراً بهذا الشرف الذي بمنحه إياه كسرى الطليق . ولكن النعمان خيب ظن كسرى واعتذر لرسوله . ووجد زيد الفرصة سانحة فأوعز على النعمان صدر الملك الذي بيت له الشر وأرجأ التنفيذ حتى لا يعطن إلى ما أراد به . وبعد زمن ورد إلى النعمان كتاب كسرى يدعو فيه فجمع النعمان أهله وماله وسلاحه وسار حتى نزل عند بني شمران في ذي قار . وآمان سيدها هانيء بن مسعود ابن عمرو الشيباني فأودعته ما جمعه وبوجه إلى كسرى الذي طرحه تحت اقدام القيلة فداسته حتى مات ١١ . واستعمل بعده على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي وكلفه أن يجمع ما حلقه النعمان وأن يرسله إليه . فبعث إياس إلى هانيء يأمره أن يقدم إليه ما لديه من ودائع النعمان . فأبى هانيء . فأرسل إليهم كسرى جيشاً كثيفاً لقيه العرب عند ذي قار . ودارت بين الفريقين المعركة التي انتهت بانتهزام العجم والتي تعرف في تواريخ العرب بسوم ذي قار . وأشعار العرب في ذكر هذه الواقعة والفخر بها كثيرة . وقد ذكر ابن أبي صلي الله عليه وسلم لما بلغه هذا النصر قال « هذا أول يوم انتصف العرب من العجم وبني نصرنا » (٢) .

وكسرى أبرويز هو الذي يسبب إليه أغلب المؤرخين أنه بنى أوال المدائن المعروف . ولما فرغ من بناءه عقد عليه طاقاً (٢) . وكان في هذا الطاق حلفاء كبيرة من الذهب يبدل منها سلسلة من الذهب الأحمر مرصعة باللؤلؤ والجواهر فإذا جلس الملك في الأوال على ناحية من هذه السلسلة فيجلس تحت الساج على تحت الساج ٤ . وكان عند كسرى عدد كبير من التماسيح والسحرة والمدمجين يجمعهم كلما أحزنه أمر لينظروا في سببه وليجدوا له مخرجاً منه . ولما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم تداعى هذا الطاق فجرع كسرى ودعا كهانه

(١) في رواية أخرى أنه تجنسه حتى مات .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) الطاق ما عطف من الإبيية معرب « نا » وهي العلية أو النخبة .

(٤) الشاهنامة قصة بناء خسرو الطاق ج ٩ ص ٢٨٧٧ . ص ٢٨٨٦ ط

بروخيم . طهران . والترجمة العربية ص ٢٤٤ ج ٢ .

وسخاره ومنجميه ليبحثوا الامر . وكان بين كهانه رجل من العرب اسمه السائب فبات ليلة ظلماء على ربوة من الارض فرأى برقاً قد ومض في الحجار واستطار حتى سمع المشرق فادره ان امراً خطيراً قد حدث هناك . ولما خلا الكهان بعضهم الى بعض وحدثهم السائب بما رأى قتلوا « انه لئن بعث او هو معوث يسلب هذا الملك ويكسر « ١١ . واتفقوا فيما بينهم ان يكتموا الامر من كسرى خوفاً على حياتهم . وبصحوه ان يعيد بساء الطاق ففعل ولم يكند يدخل البناء ويجلس مع اساورته حتى انقض من جديد وكاد يهلك ، وعاود البناء مرة ثالثة فعاد البناء الى الاسفاض . وكان ذلك نذيراً بزال ملكه . وهذا الايوان هو الذي قال عنه الجعفرى : —

وكان الايوان من عجب الصنعة جيبوب في جنب ارض جلس

عكست خطه الليالى ولباب المنرى فيه وهو كوكب نحس

فهمو يبدى تجلداً وعليه كل كل من كلاكل الدهر مرسى

ليس بدرى اصنع انس لجن سكوه ام صنع جن لانس (٢)

وكسرى هذا هو الذي جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة السابعة والثلاثين من ملكه (٢) بدعوه الى الاسلام فعجب من جرأة محمد « كيف يقدم اسمه على اسمي في كتابه (٤) » ومرق الكتاب فدعا عليه النبي مزق الله ملكه كما مزق كتابي . ويقول حمد الله المستوفى انه بسبب هذا الدعاء عليه اضطرب ملكه بعد ذلك وخرج عليه ابنه شيرويه وقتله (٥) .

وكان كسرى يحيا حياه غايه في السرف ويكفى ان ننقل هنا ماورد عنه في النباهات « كان من عادته اذا ركب ان يناد له لائمهائه حية بعدة الذهب ويحصى بين يديه الف وستة وسبعون راحلاً بأيديهم المراكب ، والف واربعون بأيديهم الخيول والعنى وخرج معه سبعون من البارذاريه ١ . وللائمهائه

(١) ابن الاثير ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) دوان الجعفرى ج ١ ص ١٦٩ ط الاديه بيروت ١٩١١ .

(٣) مدة حكمه ثمان وثلاثون سنة .

(٤) فارس نامه ص ١٠٦ ط ليسترانج ونيكلسون .

(٥) تاريخ كزیده ص ١٢١ ط براون .

(٦) حملة صقور الصيد .

من الفهادين وسبعون اسدا ونمرا معلمة مجللة بالدياح مشدودة الافواه بسلاسل الذهب ، ويستصحب الف عواد على رؤوسهم اكاليل الذهب ومائتي غلام على يد كل واحد منهم مجمر يوقد فيه العود والعنبر في الموكب ومائتي نفس من الشبان معهم الترجيس والزعفران يتقدمون الموكب حتى ترد الريح ريحها الى مشام الملك وقدام هؤلاء مائة سقاء مهمم قرب الماء يرشون الطريق حتى لو هب هواء لم يحمل غبارا من الاض فيمسه به " (١) . وحديث ترفه طوبل نكهي منه بما سبق وبما يأتي من شرح الاشارات الواردة في النص العربي .

شبيد ن : والاشارة الثانية في هذا النص هي شبيدز . وكان شبيدز هذا فرسا تام الخلقة بديع التكوين كامل التدريب والاعداد ، فكان لما اجتمع فيه من الصفات البادرة احب دواب كسرى الى نفسه . وحدث ان اعتل شبيدز والحت عليه العلة ، وعرف ابرويز ما يعانيه فرسه المحبوب من اشتداد المرض ودنو الاجل فاقسم ليقطن من ينميه اليه . فلما تفق شبيدز خاف صاحب خيله ان يسأله ابرويز عنه فيجبره بنعوقه فيكون في هذا هلاكه . ولجا الى بربد مفضي الملك واحصره بموب شبيدز . واغراه بالظائل من الاموال حتى يحال له حيلة تنقذه من موقعه وتحفظ عليه حياته . ولم يجد المضي - وان كذلك شاعرا - خيرا من ان يظلم الحبر ويدسه في بعض اغانيه التي يهيبها امام الملك . وقد استطاع بربد مراعاته في النظم والعناء ان ينهي الى الملك خبر نعوق شبيدز في اسلوب غير مباشر وعارة غير صريحة . فلما سمع الملك الاعنيه فهم ان شبيدز قد مات فصاح « مات شبيدز ! » ففزع بربد على الفور « لم اقلها بامولاي . انت فسها » فقال الملك « ره ما احسن ما لجأت اليه . ست بعك وخلصت غيرك » وجزع على فرسه جرماعا عظيما واراد ان يحسد ذكره فامر قطوس بن سنمار (٢) الذي تحت له تمثالا في الصخر (٣) بلغ من دوه الصاعه وروعة التصوير مبلغا عظيما بحيث لم يكن يفرقه عن الاصل سوى الروح ، وصور بجانبه شيرين محبوبه الملك كما صور الملك وقد ركب فرسه . وحين شاهد الملك التمثال اذهلته دقة صناعته فخضع امامه واستعبر وذكر حال الدنيا ومصير الاحياء .

(١) الشاهنامه ح ٩ ص ٢٨٩١ ط بروخيم طهران والترجمة العربية

ص ٢٣٦ وراجع ايضا تاريخ كزیده ص ١٢١ .

(٢) سنمار هذا هو الذي بنى الخورنق .

(٣) في جبل بيستون بين حلوان وقرميسين .

شيرين : والإشارة الثالثة هي « شيرين » (١) . وكانت شيرين محبوبة كسرى أبرويز . وقد اختلف في أصلها فالتأهامة تعتبرها فارسية . وحمد الله المستوفى يعتبرها أرمينية وذكر أن أبرويز حين ذهب إلى بلاد الأرمن عشقها وكانت له ملكة ٢ . ومنهم من يقول أنها كانت روميه ، وأن شيرين قد حُرقت عن « إيريتي » أو « سيريا » (٢) .

وكان كسرى قد أمر فأعدوا له حديقة عظيمة قصوا في أعدادها سبع سنين وجمعوا فيها من كل أصناف الطير . ولما فرغوا من أعدادها احتفل أبرويز بافتتاحها (٣) . وشرب وسكر ، وقال لمحبوته شيرين في نشوة سكره سليني حاجبك . فطلبت منه أن يكون لها في هذا البستان العظيم نهران من حجارة يجري فيهما الخمر واللبن ، فوعدها بذلك . ولكنه لما أفاق نسي وعده ، وخجلت شيرين أن تذكره به فلجأت إلى مغيه بريد الذي هي أغنية ذكر الملك فيها بما نسيه . وقد وفي الملك بوعده وبني الهيرين (٤) .

وفي أبرويز وشبديز يقول أبو عمران الكسروي : —

وراكه برويز كالبدر طالع	وهم نقروا شبديز في الصخر عبدة
بخال به فجر من الأفق ساطع	عليه بهاء الملك والودع عكف
وتعطو بكف حسنتها الأشاحع	تلاحطه شيرين واللحظ فان
ويلقى قوم الجسم واللون ناصع (٥)	يدوم على كر الحديدين شخصه

وبروي أن بعض الملوك مر هناك فراقه المكان وأعجبه التمثال فطلب الخلق والرعايا فخلق وجه شبديز وشيرين والملك فقال بعض الشعراء : —

أد شبديز أن يحمحم لما خلق الوجه منه بالرعايا

(١) التأهامة قصة خسرو برويز وشيرين ج ٩ ص ٢٨٦٨ ط بروخيم . طهران .

(٢) تاريخ كزیده ص ١٠٢ ط براون .

(٣) تعليقات عزام على الترجمة العربية ج ٢ ص ٢٣٦ .

(٤) في المكان المعروف بقصر شيرين .

(٥) مختصر البلدان لابن الفقيه ص ١٥٨ ط ليدن .

(٦) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٣ ط ليبزج .

وكان الهمام كسرى وشيرين مع الشيخ موبد الموبدان (١)
من خلوق قد ضمخوهم جميعا اصبحوا في مطارف الارجوان (٢)

ويقال ان شيرين كان لها عاشق آخر اسمه فرهاد . فلما سمع الملك بأمره كلفه
ان يشق طريقا في جبل بيستون ووعدته ان انه العمل ان يزوجه شيرين . وكان
على ثقة انه لن يقدر . ولكن فرهاد استطاع ان يشق الطريق ولم يظفر رغم
هذا بشيرين . وكان مثله مع شيرين مثل المجنون مع ليلي . وفي ذلك يقول
الشاعر -

صمبلت شيرين من نصيب خسرو

وفرهاد يقطع الاخجار عبثا (٣)

البهليذ : اما البهليذ فهو بريد نفسه مفسى كسرى الذي سبقت الاشارة
اليه (٤) . ويقال له في المصادر العربية باربد . بريد . بهيد ، بهليذ ، فهيرد ،
فهيرد . وكان بريد هذا آية زمانه في الموسيقى والغناء . وكان يقول الشعر
ايضا ولكن علب عليه الغناء والموسيقى . ولم يعتبر عوفى اذنيه من النهر لانها
في نظره يعوزها الورن والقافية . ولو كان عوفى قد قدم لنا مثلا واحدا من
اغاني بريد لافادنا فائدة كبيرة ، ويسر لنا سبيل الحكم عليها حكما قد يكون
اقل قسوة من حكمه . وعلى العموم فان المؤرخين قد اجمعوا على تعديم بريد
وطلوغه الغاية في فنى الغناء والموسيقى . وذكر صاحب تاريخ كزنده اساتذة
الموسيقى كانوا يتخذون آراءه في هذا الفن حجة ويغرفون من فيض علمه
كما يذكر انه قد ألف ثلاثمائة وستين اغنية يفنى واحدة منها كل ليلة في
مجلس الملك .

والبهليذ هذا هو الذي يعنيه البحترى في قصيدته السابقة التي مطلعها
« صنت نفسى عما يدنس نفسى » حين يقول :-

(١) ذكر الموبد موبدان ، وهو كبير رجال الدين الان خسرو كان قد دعاه
وامره ان يزوجه شيرين .

(٢) معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥٢ ط ليبزج ١٩٠٥ .

(٣) لعل شيرين نصيب خسرو شيد

سنتك يهوده من كند فرهاد

(٤) الشاهنامه ج ٩ ص ٢٨٨٢ ط بروخيم . طهران ١٣٠٥ هـ

(٥) لباب الالباب ج ١ ص ١٢ ط براون و . ١٣٠٥ هـ

فقد سقاني ولم يصرد ابو الفوثن على العسكرين شربة خلس

من مدام تقولها هي نجم
اضوا الليل او مجاجة شمس
وتراها اذا اجسدت سرورا
وارتياحا للشارب المتحس
افرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبوة الى كل نفس
وتوهمت ان كسرى ابرويز معطى والبهلبيذ انسى (١)

ومما يذكر ان الفرس في العهد الاسلامي قد ساروا على نمط الساسانيين، فكان كبار الشعراء يجمعون الى فن الشعر البراعة في فن الموسيقى والفناء كالرودكي شاعر السامانيين والفرخي شاعر الغزنين . وكان بين الرودكي شاعر السامانيين في العهد الاسلامي وبين برید (بهليذ) شاعر الساسانيين ومغنيهم فيما قبل الاسلام كثير من اوجه الشبه . فقد كان كل منهما شاعرا ومغنيا وملحنا . وكان كل منهما ينشد الشعر مصحوبا بالفناء والموسيقى . كما كان كل واحد منهما عالي المكانة عند مليكه ينهى اليه ادق الاخبار في ابرع قالب . وكما اسعان رجال كسرى ابرويز برید ليخبره في ثابا اعانيه بموت فرسه الشديز اسمعانت حاشية نصر بن احمد الساماني بالرودكي ليفري الامير بالعودة الى بخارى . وكان الامير في ذلك الوقت مقيما في هراة وقد اعجبه ماؤها وهواؤها . وطلب له جوها وثمرها فاطال الاقامة فيها . واجل الرحيل عنها من فصل الى فصل حتى انقضى عليه هناك اربع سنوات فسئم رجال الحاشية والجند ، وحسوا الى دويهم وديارهم في بخارى عاصمة الملك . وهداهم المفكر الى الاستمانة بالاستاد الرودكي . فعرصوا الامر عليه . ووعدوه بحمسه آلاف دينار ان استطاع ان يصرف هوى الامير عن هراة . وان يحرك فيه الحنين الى بخارى فيرحل اليها . وبغول النظامي العروصي ان الرودكي كان يعرف مراح الامير . وان النثر لا يؤثر فيه . فاتجه الى الطم . واعد قصيدة دخل بها على الامير وقت الصبح . واتخذ مكانه في مجلسه حتى اذا سمح له بدا يغني في لحن العشاق :-

مازال يهب علينا ارج نهر جيحون
وما زال يهب علينا عرف الحبيب (٢)

(١) ديوان البحرى ج ١ ص ١٦٩ ط الادبية بيروت ١٩١١ .

(٢) بسوى جموى مولىسان آيد همى

بسوى يار مهربان آيد همى

— آلی ان قال —

ان الامیر قمر و بخاری هی السماء
والقمر نحو السماء بنجیه
ان الامیر سرو و بخاری هی البستان
والسرو یقبل نحو البستان (۱)

و بیاع النظامی روایتہ فیقول : و هنا انفعّل الامیر و نزل عن عرشہ متأثراً ،
فرکب حصانہ ، و قد نسی ان یتعل من العجلہ ، و اتجه علی الفور الی بخاری ،
فحملوا الیه حذاءه حتی یروته علی بعد فرسخین ، و هاک لبسه . و لم یعرج
علی مکان حتی طلع بخاری (۲) .

و قد اعترف معاصرو الرودکی و یرید لهما بالنسق فیما مارساه من الوان
الفن . و لشدة ما بین الاثنين من شسبه فی المکاة و الظروف قرنهما المجلدی
الجرجانی فی قوله : —

من منع هذه الدنیا المنوعة
مادا بقی لال ساسان و آل سامان
بقی ثناء الرودکی و مسدحه
و بقت اغانی یرید و قصصه (۳)

(۱) میرماہست و بخارا آسار
ماہ شوی آسمان آید همی
میر سرواست و بخارا بوستان
سرو سوی بوستان آید همی

(۲) جہار مقالہ ص ۲۹ ط طهران .

(۳) از آن چندان نعیم این جہانی
کہ ماند از آل ساسان و آل سامان
ثنای رودکی ماندست و مدحت
نوائ باربد ماندست و دستان

تقرير

عن أعمال الحفر والتنقيب في موسم ١٩٥٠ - ١٩٥١

بمنطقة حفائر جامعة الاسكندرية بأهرام الجيزة

للدكتور عبد المنعم أبو بكر

بدأت أعمال الحفر بمنطقة الاهرام مآخرة في هذا العام لانشغالي بأمر
تتعلق ببدء الدراسة وتنظيم أعمال القسم بالكلية .

وكان بدء العمل في الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٠ في الجبانة
العربية التي عازت الجامعة بالحصول على ترخيص من مصلحة الآثار المصرية
بالحفر في المنطقة الشمالية العربية منها وهي تدخل ضمن المنطقة التي كانت
مخصصة لبعثة جامعة هارفارد الامريكية التي عملت بمنطقة الهرم بالجيزة
منذ عام ١٩٠٢ برئاسة العالم المشهور المرحوم الدكتور رايزنر .

والجامعة تحفر في هذه المنطقة في موسميها الثاني وتركز العمل في هذا
العام حول المصطبة الكبيرة للشريف « نى حنب خنوم » والتي عثر عليها في
الموسم الاول .

وقد عثر الى الشمال من المقبرة السالفة الذكر على مصطبتين كبيرتين :

الاولى : وقد شيدت من اللبن وتمتد من الشمال الى الجنوب ، ويحوى
جانبيها الشرقى عدة أبواب وهمية كانت كلها مصنوعة من لوحات
من الحجر الجيري الابيض وثبتت في فجوات فرغت خصيصا
لها في الجدار الشرقى للمصطبة . ولكن للأسف عثر عليها مهشمة
ومنزوعة من مكانها الاصلى وبعثرت بقاياها ها وهناك أى في
المر وحجرة القرايين .

والثانية : مصطبة كبيرة بنيت من الحجر الجيري الابيض المستخرج من
محاجر المنطقة نفسها وبها باب وهمى واحد وهى لرجل اسمه
« سبرى » •

وليس من شك فى أن أهم ما عثر عليه فى هذا الموسم هو مقبرة الامير
« برسن » والمجموعة الضخمة من المصاطب المختلفة الاحجام التى تجمعت
حول هذه المقبرة الكبيرة . ومن الغريب أن هذه المجموعة الضخمة قد
أحيطت سور عظيم يمتد حولها من جوانبها الاربعة ، وهو غير مرتفع ، ثم
هناك داخل هذا السور سور آخر يمتاز بأنه شيد بمدخل ومخارج على
هيئة مشكاوات (Louclis) وهو يذكرنا بالسور الذى يحيط
بمنطقة الملك زوسر بسقارة • وسورنا هذا يحيط بثلاث مصاطب توسطت
المجموعة السالفة الذكر اثنتان منهما بنيتا من الحجر الجيري الابيض
والثالثة - وتقع بين المصطبتين السالفتي الذكر - شيدت من اللبن •

والاولى : وهى الواقعة الى الشمال هى للامير « برسن » وهى مبنية
من الحجر الجيري الابيض كما قدمنا • وحجرة القرايين بها لم
تبين ملاصقة للجانب الشرقى كما كانت العادة فى هذه الجبانة
بل فرغت فى داخل بناء المصطبة السميط وريئت جدرانها
بنقوش جميلة ورسومات تبين صاحب المقبرة وزوجه وأولاده فى
أوضاع مختلفة • وعثرنا على السرداب وهو عبارة عن حجرة
كبيرة اخفيت فى بناء المصطبة الى الشمال من حجرة القرايين
وتتصل بها بواسطة فتحة كبيرة كالمعتاد . ويبدو أن السرداب
كان يحوى أربعة تماثيل لم نعث على أى واحد منها . والدليل
على أن عددها كان أربعة أن الحائط الشمالى من هذا السرداب
يحوى أربعة سطور رأسية كتب فى كل منها ألقاب واسم صاحب
السرداب « برسن » . ويفصل كل سطر عن الآخر مسافة تبلغ
أكثر من سبعين سنتيمترا •

والثانية : تقع الى الجنوب من هذه المصطبة وهى مشيدة من اللبن كما ذكرنا ومن الطراز الذى اصطللحنا على تسميته « ذو المر » ، ولم نعر فيها على أبواب وهمية تبين لنا اسم صاحبها .

والثالثة : تقع الى الجنوب من الثالثة . وهى مبنية من الحجر الجيرى الابض وحجرة القراين فيها مفرغة فى مبنى المصطبة ، ولم نعر فيها على نقوش ما . ولا نعرف اسم صاحبها .

والى الشرق من هذه المصطبات اثلاث وبداخل السور ذى المشكاوان عثرنا على مجموعات من ابنية متقاطعة متشابكة . الجزء الشمالى منها يحوى حجرات لم تتبين حتى الآن العرض منها الا أن احداها كانت جدرانها مغطاة بطبقة من الملاط الابيض عثر فى بعض أركانها على آثار ضعيفة لرسومات ملونة كما عثر فى حجرة أخرى على كمية كبيرة من أوانى فخارية مهشمة وهى من النوع الذى يتضمنه ما نسميه « الاثاث الجنازى » ، والذى اعتدنا أن نعر عليه بكثرة فى حجرات الدفن من عصر الدولة القديمة وفى حالتنا هذه عثرنا على هذه الكمية الضخمة التى تشمل أطباقا وأوانى مختلفة الشكل كلها صغيرة الحجم ومصنوعة من الفخار المحروق .

ولهذه المجموعة الكبيرة من الحجرات السالفة الذكر مدخلان رئيسيان أحدهما يقع فى أقصى الشمال من السور والثانى الى الجنوب منه وبالقرب من المدخل الشمالى عثرنا على عمودين من الحجر الجيرى الابيض فى حجرة صغيرة كل منهما ينهى فى أعلاه بطبق من النوع الذى يستعمل فى حرق البخور وكلاهما يحمل اسم صاحبه « كا - ايو - خوفو » ويحمل لقب « كبير العشرة بالجنوب » . والى الغرب من هذه الحجرة عثرنا على سرداب أخفى بمهارة فائقة ومكون من حجرة من اللبن مستطيلة الشكل تمتد من الشرق الى الغرب وتسنند فى غربها على الجدار الشرقى لمصطبة « برسن » وترتفع جدرانها الى أكثر من مترين وفى هذا السرداب عثرنا على تماثيل

لكاتب يعد من أروع التماثيل التي عثر عليها مشثلة لهن الأسرة الخامسة .
ويبلغ في ارتفاعه ٦٧ سنتيمترا ولا تزال ألوانه كلها باقية كما أن أجزاءه
كاملة .

الابنية الواقعة الى الجنوب من هذه الحجرات فهي عبارة عن حفر مربعة
على هيئة الآبار الغير العميقة اد لا تتعدى في عمقها المتر الواحد ولم نعر في
واحدة منها على أى بقايا بشرية ويبدو أنها استخدمت كمحازن لحفظ الاواني
الفخارية . اذ عثر في أكثر من واحدة منها على مجموعات كبيرة من النسوج
المعروف الذي كان يستعمل لحفظ المواد الغذائية .
وكانت كلها مهشمة .

والى الغرب من المصاطب الثلاثة الكبيرة التي وصفناها آتفا عثرنا على
مصطبة ضخمة شيدت من اللبن وهي من الطراز ذى المر وحجرة القرايين
فيها مهشمة ولم نعر على نقش واحد يبين لنا اسم صاحبها الا أن قوالب
اللبن التي استعملت لبناء هذه المصطبة قد طبع على الكثير منها اسم
« برسن » ثم عثر في الجزء الجنوبي منها وعلى ارتفاع يبلغ أكثر من ١٧٠
مترا على تماثيل غير منقش الصناعة ومن الحجر الجيري الابيض يمثل سيدة
لا نعرف اسمها لعدم وجود أى نقش على التمثال .

والى الجنوب من هذه المصطبة والى الغرب من المصطبة المشيدة من
اللبن والتي سبق ذكرها في المجموعة الاولى كشفنا عن مجموعة المصاطب
الصغيرة مبنية كلها من اللبن وحجراتها وحجرات القرايين فيها غير منقوشة
ولم تحو واحدة منها بابا وهما يمكن أن نستدل من كتاباته على اسم صاحبه
ولكننا لحسن الحظ عثرنا في سرداب لاحداها على تمثال من الحجر الجيري
الابيض جميل الصنع لا زالت ألوانه الى حد ما باقية ويمثل شخصا جالسا
فوق كرسي يرتفع مسنده الخلفى الى ما يقرب من أعلا الرأس واسم صاحبه
« سخم محى » ولقبه « صانع الجعة » .

ويمكن لنا مبدئيا أن نعتقد أن هذه المنطقة كانت مخصصة لذلك الرجل
الشهير « برسن » الذى بلغ نفوذه حدا كبيرا بحيث تمكن من أن يحيط نفسه

بعدد ليس بقليل من أقاربه كما أفرد لخدمه مكانا متسعا حول مصطبه
ومصاطب أقربائه والدليل على ذلك تمثال الكاتب وتمثال السيدة الغير متقن
الصنع وتمثال صانع الجمعة • وأود أن أكون هنا متحفظا في رأى هذا حتى
أتم دراساتي على أستطيع اما تأييد هذا الرأى أو العثور على ما يجعلنى
أنقضه •

عبر ما أنيت على وصفه سراعا فقد كشفنا عن حجرتين كبيرتين مستديرتين
من اللبن الكبير الحجم الذى يصير من خصائص الدولة القديمة • ونقد
حاولت مستعيا بكثير من الاختصاصيين وعلى رأسهم المهندس الاثرى المشهور
الدكتور ريكه مدير المعهد السويسرى للآثار المصرية تفسير الغرض الذى
من أجله شيدت هاتان الغرفتان • ولكننا لم نصل الى نتيجة ولقد بلغ من
اهتمام الدكتور ريكه بهذا الكشف أنه تردد على منطقة الحفر أكثر من مرة
ولكنه أيضا لم يصل الى نتيجة •

ولكل حجرة منهما مدخل قليل الارتفاع يمكن غلقه بوساطة كتلة خشبية
تزلق من أعلا الى أسفل فى مجرتين نحتتا بشكل خاص فى كتفى المدخل
ويتصل بكل حجرة غرفة صغيرة مستطيلة الشكل قليلة الارتفاع ومسقوفة
بالواح حجرية كما أنه عثر بداخل الحجرة المستديرة على حوض صغير
يتصل بوساطة قناة تخترق الجائط وتمتد الى الخارج وتنتهى بحوض
آخر صغير من الخارج ويوحى هذا كله بأن الحجرة المستديرة كانت مكانا
يحتفظ فيه بحيوان كاسر لا يستطيع خادمه أن يقدم الماء له مباشرة فيسكبه
له من الخارج ويجرى فى القناة الى الحوض الداخلى ولكن يقف أمام هذا
الرأى وينقبه أن مدخل هذه الحجرة لا يبلغ فى ارتفاعه أكثر من ٤٥
سنتيمترا كما أن الحجرة المسقوفة الصغيرة لا ترتفع الى أكثر من نصف متر
وعلى ذلك يحسن بنا أن نتظر حتى يكشف الامر أمامنا •

وقبل البدء فى أعمال الحفر بهذه المنطقة قمنا بعمل مجسات فى أقصى
الشمال استعدادا لايجاد مكان يصلح لالتقاء الرمال المختلفة من الحفر فاذا

بهذه المجسمات تكشف لنا عن مجموعة فريدة من مصاطب صغيرة شيّدت من اللبن وتمتاز بأن أبوابها الوهمية المصنوعة من الحجر الجيري الأبيض وقد نبتت في فجوات بنفس المبنى ويعلو كل باب فتحة مقوسة على شكل قبو •

كذلك عثرنا في المنطقة الشرقية من مصطبة « نى خوم حتب » على مجموعة من المصاطب المشيّد باللبن ذات الممرات وأهمها مقبرة المدعو «هنى» أو « ثنى » وهى ذات حجرات للقرايين يعلوها قبو شيّد من نوع خاص من اللبن وهو من طراز المصطبة التى عثر عليها فى الموسم السابق للمدعو « نهرى » وكادت تعتبر فريدة فى نوعها الى ذلك الوقت • ويلاحظ أن الممرات قد تم تسقيفها بهذا النوع الخاص من اللبن الذى يعتبر تقليدا للحزم من ميقان البوص التى كانت تسقف بها الاكواخ فى المصور العريقة فى اقدم •

تقرير

عن بعثة معهد فؤاد الاول للصحراء الى شمال سيناء

(١٥ اغسطس - ٩ سبتمبر ١٩٥١)

للدكتور محمد السيد غلاب

نظم معهد فؤاد الاول للصحراء بعثة لدراسة شمال سيناء ، حشد فيها نخبة من رجال العلم بالجامعات المصرية والمصالح والوزارات التي يعينها أمر تعيين سيناء ، والواقع أن الغرض من البعثة كان أكاديميا بحثا ، ومن رأيا أن الروح العلمية الأكاديمية البعثة هي خير مهده للوصول الى أى غرض عملي أو تعمي فيما بعد .

كانت البعثة بقيادة سكرتير عام المعهد ، الاستاذ الدكتور محمد متولى أستاذ الجغرافيا بجامعة فؤاد الاول وكان يعاونه في قيادة الرحلة المستر مري مستشار مصلحة المساحة المصرية ، وكان أعضاء البعثة يشتملون على أربعة جيولوجيين ، وجغرافي طبيعى ، وثلاثة نباتيين . وأستاذ في علم الحيوان . وأستاذ في علم الاراضى (التربة) واخصائيين من وزارة الزراعة ، وأستاذ في علم الحشرات (البعوض بصفة خاصة) وجغرافي بشرى وقد لحق بهم فيما بعد اخصائى في الهيدروليكا وهو أساذ ومهندس من السويد ، هذا غير المساعدين في علم الحيوان وعلم الحشرات ومصور .

وكانت تقطع البحث تشمل بحثا جيولوجيا تفصيلا لبعض مناطق شمال سيناء ، وهى المناطق المحيطة ببئر الحسنه ، وجبل الحلال . وبحث امكانيات المياه الباطنة ودراسة الكثبان الرملية ووسائل تثبيتها ، وبحث طبيعة الاراضى وأنواع التربة وتوزيعها على خريطة ودراسة نباتات المنطقة من ناحية التصنيف لانتماء كتاب « نبات مصر » الذى يقوم بوضعه عضوان

في البعثة . وهما اسناده في النبات بجامعة القاهرة واختصاصي من وزارة الزراعة . ودراسة النبات من ناحية علاقته بالتربة . وطرق استصلاح الاراضي الجافة واستثمارها . وجمع أنواع الزواحف والثدييات الصحراوية لتكملة مجموعة تحف المعهد . وتحليل مياه الآبار والينابيع لمعرفة مقدار صلاحيتها للرى . وعلاقة ذلك بانتشار الامراض التي تنقلها الحشرات ولا سيما الملاريا . وأخيرا دراسة أنواع النشاط البشرى ومقدار تلاؤم الانسان مع البيئة . والعلاقات بين البدو والحضر . وتوزيع القبائل البدوية ودراسة عاداتها وتقالدها ودراسة مشاكل الجغرافية الاجتماعية في العريش وما حولها .

هذه الدراسات الطبيعية والبشرية يكمل بعضها بعضا . وينصل بعضها ببعض الآخر . بل ويتداخل بعضها في البعض . ولعل المعهد الذي يجمع شتات الدراسات المتصلة بالصحراء . قد قصد الى جمع هذا العدد من رجال العلم في مختلف الفروع في مسجد واحد . لدراسة منطقة واحدة . من وجهات نظر متنوعة . لكي يستمين كل بكل . ويطلع على وجهة نظره وعلى أسلوب بحثه ، ولكي يقف كل على مايكمل دراسته مما يقوم به فرع آخر من العلوم . ولذلك فان هذه التجربة تعتبر في نظرنا ناجحة بالرغم من أنها الاولى من نوعها في مصر ، وبالرغم من نشوء بعض عقبات أو تصادم رغبات بعض الاعضاء مع البعض الآخر — الامر الذي لامندوحة منه في مثل هذه البعثات فبالرغم من كل شيء فاننا نشعر أن الاعضاء جميعا كانوا مرتاحين في هذا المجتمع العلمي الصغير الذي جمعهم فترة من الزمن . ونأمل أن يظهر أثر ذلك في الابحاث التي ستنتشر عن نتائج أبحاثهم المختلفة .

بدأت البعثة من ميدان الاوبرا في القاهرة . اذ اجتمع الاعضاء في الصباح الباكر يوم ١٥ / ٨ / ٥١ واستقلوا السيارات (وكان عددها ست) في تمام الساعة الخامسة والنصف صباحا ميمين نحو الاسماعيليه حيث وصلوها الساعة التاسعة والنصف . وفي تمام الحادية عشرة بدأوا المرحلة الثانية من الرحلة من الضفة الشرقية لقناة السويس ، في طريق مرصوف

يبلغ طوله ٢٥٠ كيلو مترا . متجهها نحو الشمال الشرقى . فى سهل مبوج يرتفع وينخفض . تغلب فيه الاحراش القصيرة المتناثرة ولا يكاد يسكنه انسان . ثم ارتفع الطريق فوق هضبة منramية الاطراف ثم أخذ ينحدر تدريجيا الى السهل الشمالى . الذى تقطعه الغرود والكثبان التى تنحدر بصفة عامة من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى . ثم قطع انتظام السهل جبل المعارة فى الشمال . ثم جبل لبيى . والجبل الاول يشغل منطقة اوسع . واكبر ارتفاعا من الثانى . بعد جبل لبيى (عند الكيلو ١٠٠ من العريش قريبا) وصلنا الى أول نقطة من نقط الحدود . التى تدل على وجود العمران . وهى نقطة أبو عويقله وهى تقع على الضفة اليمنى لوادى العريش على بعد ٤٥ كيلو مترا من العريش . وشاهدنا أول آثار التخريب التى أحدثها الجيش اليهودى داخل الحدود المصرية فى الحرب الاخيرة وهى نصف كوبرى مقام على هذا الوادى . ونصف مقر النقطة القديمة . كما شاهدنا حطام دبابة صهونية كانت قد اجتازت على تدنيس ارض هذا الوطن .

ابتداء من عويقله تبدأ معسكرات الجيش المصرى ونقط المراقبة حتى تشرف على العريش نفسها التى كانت تحرسها مقابر الشهداء على يمين الداخل الى الطريق المؤدى اليها مباشرة ، ويحمى العريش جسر يمتد من الشمال الى الجنوب عند مصبى وادى العريش ، الذى يفيض فترة محدودة فى الشتاء عقب سقوط الامطار .

وصلنا العريش فى تمام الرابعة والنصف مساء . وكانت هذه المدينة — عاصمة محافظة سيناء — مقر البعثة الذى تبدأ منها نشاطها وتأوى اليها مع المساء .

فى صباح يوم ١٦/٨/٥١ اتجه الاعضاء الى الساحل الشمالى نحو رفح ثم عبر الحدود المصرية الى مدينة غزه ، مارين بخان يونس ، وقد ظهر لنا

الفرق الشاسع بين شمال سيناء وجنوب فلسطين من ناحية استثمار الارض، فمنذ أن نخطو وراء الحدود الفلسطينية يتغير المنظر العام، من صحراء مجدية ومراعى متناثرة الى حدائق مسورة تروى بماكينات المياه الجوفية وتؤتي ثمرها من أنواع الفواكه والمواالح المختلفة حدائق يملو بعضها بعضا، بينها حقول الشعير والقمح حتى نصل الى غزة . ولعل في هذه الجولة الاستكشافية، ما يثر في الاعضاء الرغبة الصادقة في تحويل شمال سيناء الى ما يشبه جنوب فلسطين . حقا هناك ظرف مناخى يحمل المقارنة غير كاملة، وهى أن غزة تقع شمال خط ١٠٠ مم من المطر فى العام . الا أن هذه الكمية لا تكفى قط لرى البساتين التى تعتمد على المياه الباطنية . وما نظن أن الماء الباطنى ينقص الساحل الشمالى لسيناء، أو أنه يقل جودة عن مياه جنوب فلسطين الباطنية .

منذ اليوم الثالث بدأ كل فريق يعمل فى نطاق بحثه الخاص . على أن السيارات انقسمت الى قسمين . كل اثنين مع مجموعة من البعثة . واحدة بدأت بدراسة الساحل الشمالى دراسة منظمة . بحيث تقسمه الى أجزاء، تقطع فى كل يوم جزءا بعينه . ومجموعة أخرى كانت تعمل فى القطاع الجنوبى .

الا أن الافراد جميعا اشتركوا فى زيارة معالم العمران فى شمال سيناء . وتشمل مشروع سد الروافعة، ومنطقة وادى الضقة وزممع اقامة سد عنده يغزى السد الاول . ومزارع وزارة الزراعة عند الروافعة وفى رفح ومزارع الاهلين الاخرى وهى ملكية مبعثرة . ويحسن أن نشير الى هذه المعالم بشئ من التفصيل .

سد الروافعة :

كان الاثر اك أول من فكر فى اقامة هذا السد على وادى العريش، فى نقطة تبعد ٤٥ كيلو مترا من مصبه، وذلك أثناء حملتهم المشهورة فى الحرب العالمية الاولى، ويبلغ طول السد ٥٥ مترا على قاعدة من الحجر الجيرى

ويبلغ عمق الماء في قاعه ٣ أمتار ويمكن تخزين ٤ مليون متر مكعب من الماء فيه . وقد بدى في انشائه سنة ١٩٤٧ وهو يمتلئ بالماء بعد كل سيل ، (آخر سيل كان في مارس سنة ١٩٥١) وقد قدر حدوث فيضان كبير مرة كل سبع سنوات وعندئذ يمتلئ بالماء أمام السد حتى حافته ويمكن خزن ٢.٤ مليون مترا مكعبا من الماء .

الا أن السيل يجرف أمامه كمية هائلة من الطين والطين مما قلل كمية الماء المخزون أمامه من ٥ مليون مترا مكعبا الى ٣ مليون مترا مكعبا ولذلك فانه يخشى أن يأتي اليوم الذي يمتلئ فيه السد بالطين والطين وتنعدم فائدته مالم يظهر الطين من أمامه باستمرار .

يخرج من أمام السد ترعتان لرى ٣٠٠ فدان ربا دائما من الجانبين ، ولما كان مستوى الارض أعلى من مستوى الماء المخزون في السد (وعمقه لا يزيد على ٣ أمتار) فان الامر يتطلب رفع الماء الى الترعتين بواسطة المضخات .

مشروع سد الضيقة :

يقع وادي الضيقة - وهو جزء من وادي العريش - جنوب الروافعة بمقدار ٢٥ كيلو مترا تقريبا وهو وادي أخدودي بين جبلي ضلفع والحلال من الشرق والغرب على التوالي ، ويبلغ عرض الوادي ٥٠ مترا تقريبا ويرتفع الجبلان حوالي ٣٠٠ مترا على الجانبين ويغطي الوادي طبقات سميكة من الطين والطين (بلغ عمق الطين ٣٥ مترا في إحدى الحفر دون أن يبلغ اليه مستوى الرمل أو الصخر الجيري) .

مشروع سد الضيقة يبلغ ارتفاعه ٢٠ مترا ويمتلئ بالماء أمامه حتى خط كنتور ١٨٠ مترا وستكون قدرته على الخزن حتى طاقة ١٦٠ مليون مترا وفي هذه الحالة يستعمل سد الروافعة كمنظم للخزان الاول . والمأمول أن يستطيع هذا المشروع رى نصف مليون فدان من التربة الرملية التي لا ينقصها غير الماء لكي تجود بأجود المحاصيل .

زيارة بعض الحدائق والمزارع :

قام أفراد البعثة مجتمعين بزيارة بعض المزارع والحدائق في منطقة العريش ، والاستغلال الزراعى في هذه المنطقة يختلف في طبيعته ووسائله عنه في وادى النيل فليس هناك مساحات واسعة متصلة قابلة للاستغلال كما هي الحال في وادى النيل . انما الوحدة الزراعية هنا هي البقعة الصغيرة التى تتراوح مساحتها من بضعة قراريط الى عشرة اعمار وقد لا ترقى الى الافدنة وذلك طبقا لنوع التربة ولتوفر الماء الباطنى (الآبار) ونستطيع أن نقول أن التربة الرملية المحتلطة بالرواسب السيلية هي السائدة في معظم شمال سيناء ، ويمكن أن تعتبر جيدة اذا توفر ماء الرى . والماء هنا مستخرج من الآبار . ويختلف العمق الذى لا بد أن تخفر اليه الآبار للوصول الى ماء « الفَجْرَة » أى مستوى الماء الباطنى وهو يختلف عن المستوى السطحي الذى تتسرب اليه أمطار المطر . وهذا المستوى يتراوح بين ٢٠ متر و ١٥ متر على الساحل .

- نامحسب كمن من ابنى حـمـد . وشى . الاشجار ملى
تزرع مرة وتمكث في الارض سنوات تغل ثمرتها . وتوجد في العريش اشجار
الزيتون وأشجار الفاكهة مثل التفاح والكمثرى .

وتقدر القطعة التى يمكن أن تستغل في جرف وادى العريش التى يصل عمق الماء الباطنى فيها ١٥ مترا ، بحوالى ربع مليون فدان . لم يستغل منها في الوقت الحاضر سوى خمسين فدانا . ويبدو أن هذا التقدير مبالغ فيه . ولكن المسألة هي الى أى حد يمكن الاكثار من حفر الآبار دون أن يؤثر ذلك في مستوى الماء الباطنى ؟ فهذه نقطة تحتاج الى بحث وعلى ضوءها يمكن تقدير المساحة التى يمكن أن تستغل من جرف وادى العريش .

وقد زرنا أيضا بعض المزارع النموذجية لوزارة الزراعة في هذه المنطقة ، وهي جميعا تدل على أن أشجار الزيتون والسكروم والتين والكمثرى والتفاح والفول السودانى توجد في هذه المنطقة ولا أمل طبعاً في المحاصيل

السَّنوية • وتمتد هذه المزارع النموذجية المزارعين من الأهالي بالأشجار التي تسعمل لحماية المزارع من الرياح والتي تساعد على كثرة الظل في المزرعة كما تمنهم بالمعونة والإرشاد الفني •

القضية والحسنة : مما لا يخفى على احد ان

زار أفراد البعثة على دفعين كلا من القصيمة والحسنة . وهما من نقط
المران القبلية في قسم سيناء الوسطى . وكانت كل قافلة مكونة من ثلاث
سيارات قامت من العريش في الصباح الباكر وتزود أفرادها بما يلزمهم من
عذاء وشراب وغطاء . لمدة ثلاثة أيام . أما الغذاء فكان من الأنواع الجافة
أو التي تحفظ في علب . وأما الماء فقد ملأنا الزمزميات وتزودنا بكمية كبيرة
من البطيخ الذي يوجد نوعه في شمال سيناء بصفة خاصة وقد أثبت أنه أفضل
ما يروى الغليل في الصحراء وأضمن ما يمكن أن يؤكل . وه كمية كبيرة من
الخبز . وأخرى من لبن البقر الذي نستعمله بصفة خاصة . كلوا مراً
بعضهم بعضاً في طريقهم . وبعد يومين من السير بدأنا نرى بعض
الصحراء من جبال ووديان ونخيل
وكتبان رملية ومساحات تغطيها الصخور التي تنقلها السبيل ومساحات من
الحصى والحصباء . وتلال جيرية وأخرى طباشيرية . فكانت كأنها كتاب
من الجيومورفولوجيا - مفتوح عن فصل التعرية في البلاد الجافة لمن
يعرف قراءته . وكنا نبع في ذلك طريق الملاحظة المباشرة والتصوير من
مواقع مختلفة لأظهار ظواهر السطح المختلفة ومعرفة ميل الطبقات
وتتابعها واتجاه الشيبات المحدبة والمنقره وامتدادها . ولا سيما في منطقة
الضيقة التي أزرناها فيما بعد زيارة خاصة .

أما القنسية فهي قرية صغيرة لا يزيد عدد منازلها عن عشرين منزلا من
دات الطابق الواحد وبها مسجد صغير واستراحة حكومية كان قد بناها
الأتراك أثناء حملة مصر المشهورة في الحرب العالمية الأولى وأمامها حامية
مصرية صغيرة . وليس في الاستراحة ما يدل على اسمها . فهي مجرد مبنى

حجرى جميل ولكنه خال من الاثاث تماما ، حتى من الكراسى الخشبية
فيما عدا حجرة لضابط الحامية وما ذلك الا لان البدو اتهموا قرصة
توغل اليهود من العوجه الى القصيمة ، وهى أول مركز على الحدود المصرية
الى أبو عويقيله ، على أبواب العريش ، فهجموا على الاستراحات
الحكومية كلها فى شمال سيناء ، فى القصيمة وأبو عويقيه والحسنه ونهبوها
نهباً تاماً ، فهم فى الواقع لا يشعرون بأى نوع من أنواع الشعور الوطنى ،
ولا يرتبطون بأى رابطة غير الرابطة القبلية ، فى حالة فقر مدقع لا يجدون
ما يقيم أودهم خصوصاً فى سنوات « المخل » التى يمرون بها الآن ،
يحرثون نفع الارض المستوية أنى وجدوها فى الصحراء وينتظرون هبوط
الامطار . والا فلا محصول ولا غذاء ، الا ماشيتهم التى يقل عددها وتجف
أثداؤها بمرور سنوات المخل . ولم تعرهم الحكومة المصرية أى اهتمام ،
ولذلك لا تعجب اذا لم يشعروا نحوها بأى عاطفة ، وظهر هذا جلياً أثناء
حرب فلسطين ، فقد كسبهم اليهود بينا خسرهم مصر ، ولذلك فهم يكونون
خطراً جاثماً على أبواب مصر ينقلبون عليها أو يشتغلون بالجاسوسية
لحساب اليهود فى وقت الخطر .

والقصيمة سوق للاغراب ، ومنهم قبيلة العزازية التى تعيش عبر
الحدود الفلسطينية ، والذين يشتغلون بالجاسوسية الصهيونية . أما الاهالى
المستقرون فهم من أهل العريش هاجروا اليها منذ حوالى عشرين سنة
عندما بدأ تنظيم الرى وتوزيع ماء عين الغديرات وزراعة واحتها التى تبلغ
مساحتها ١٥٠ فدانا ، وعين الغديرات ، من العيون النادرة فى سيناء ، تنبثق
بالماء وسط تلين مرتفعين ، تكون بينهما سهل صغير منبطح اسمه وادى
الغديرات ، وقد أمكن انشاء خزان صغير يشبه الحوض وتوزع الماء منه
فى قنوات صغيرة من الاسمنت المسلح لا يزيد عرضها عن ٣٠ سم وأمكن
غرس أشجار الكافور والسرو والزيتون والليمون والرمان والعنب ، هذا
عدا بعض المحاصيل السنوية مثل الذرة ، والظاهرة الجديرة بالتسجيل أن
أى أرض يمكن أن تزرع وهذه لا يشترط فيها سوى خلوها من الصخور

والحصى والحصباء ، وأن تكون مستوية ، مملوكة للعرايشية فهم
العنصر الفلاح والتجارى فى سيناء ، فهذه واحة لا يزرعها أو يهتم بها البدو
مطلقا ، بل يهبطون الى مائها ويحدقون فى قنواتها كأنما شقت بيد ساحر ،
ويزرع بعضهم الذرة . ولكنهم يكتفون بعملية وضع البذور فى الأرض ثم
انحصاد ، وقد بدأت الحشائش الطفيلية تزاخم الذرة غداها ، ولكنهم
لا يكلفون خاطرهم بانتزاعها وحرث الأرض وقد جرت تلك المناقشة بينى
وبين أحد البدو

بـ لماذا لا تنظف الأرض من الحشائش ؟

بـ لا أستطيع

بـ وهل يستطيع العرايشى ؟

بـ نعم هو يستطيع ، أما نحن فلا !

هؤلاء هم البدو . يحرقون الزراعة ، وإذا اضطروا لشيء منها لا يبدلون
لها الا أقل عناية ممكنة ، فالبدوى دخیل على هذا الفن الراقى القديم ، ولكنه
يستطيع أن يجوب الصحراء ليالى تتلوها ليالى ، بحشا عن ناقة شردت ،
ويستطيع التعرف اليها بسهولة . ويحفظ طرق الصحراء ودروبها كما يحفظ
علامات كف يده . عنصر يجب أن تستفيد منه مصر ، وتضمه اليها ، وخصوصا
وهناك عدو جائم على أبوابها ، والوسيلة لذلك هى رفع مستواها . ومدته
بالشعير والقمح فى سنوات « المحل » والعمل على رفع مستوى حيوان
الرعى وتهينة المراعى الصالحة بالطرق العلمية ، أى رفع مستوى البدوى
اقتصاديا داخل حدود بيئته الطبيعية والاجتماعية ، بهذه الوسيلة تكسبه
الى منفعة مصر ولا تخسر .

وقد لاحظنا أن رجال الجيش ينظرون بريية وحذر نحوهم ، بالرغم من
أنهم يستخدمون بعضهم فى أعمال المخابرات . ولهم حق فى ذلك ، فقد
خبروهم فى حرب فلسطين ، وهم فى الوقت نفسه لا يعرفون عنهم أو عن

حقهم في حماية مصر لهم الشيء الكثير . أى أن مصر في الواقع تطلب منهم أن يكونوا مواطنين صالحين وهم لا يشعرون بأن مصر عملت لهم شيئا في سبيل رفع مستواهم . وهذه مسألة يجب أن تدرس بعناية .

والقصة أول نقطة مصرية على الحدود المصرية وهي على الطريق الذي يصل سيناء بفلسطين ويمر بالعوجة . ومثل هذا المركز الدفاعي الهام يجب تقويته عسكريا وتحصينه .

أما الحسنة . أو بير الحسنة فهي إلى الجنوب الغربي من القصيمة . والطريق إليها غير معبد ووعر والوسون إليها ليس سهلا . وهي تقع عند بئر . المبرر الوحيد لوجود محلة في الصحراء . ولاتكون مبنى هذه القرية إلا من أربعة بيوت لعساكر الحدود واستراحة حكومية وبها بئر ترفع ماءه طاحونة هواء ويفيض بالماء ولا تجد من يستخدم هذا الماء !

وقد نشأ في هذه المنطقة من الحسنة وكان بها من الأسماء والقبائل
نومير . بمساحة جردية . ومن أهم مخطوطاته . وهو من حركة أخرى مع بجانب
وزرة المدفع في أحد السرايا من طريق معبد عبر صحراء سيناء
لكل تشمل حركات الجيوش فيها ويسمى على انحصار هذه الحركة في
طرق معينة قليلة ومعروفة بحيث إذا سيطر العدو عليها شلت حركة الحش
المدافع

هذا مجمل التغيرات البعثة في شمال سيناء .

طرق البحث والعمل :

ذكرنا أن أفراد البعثة كانوا موزعين على فروع مختلفة من العلم ، وكان
العرض من البعثة دراسة الاقليم من الناحيتين الطبيعية والاجتماعية . وقد
سار العمل على النحو الآتي :

١ - اهتم الجيولوجيون ببحث مناطق معينة . مثل منطقة ريسان عزيزه .
بالقرب من أولاد على . على بعد ٤٥ كيلو متر تقريبا من العريش من الناحية

الجنوبية الغربية ، ومثل منطقة الحسنة ، وكان اهتمامهم برسم خرائط جيولوجية ودراسة الطبقات . أما الجغرافيا الطبيعية فكانت تهتم بطواهر السطح مثل الكثبان الرملية والقيادات والوديان الجافة ومسطحات الحصاء والحصاء الى غير ذلك وكانت الطريقة هي استخدام خرائط ١ : ١٠٠٠٠٠ والبوصلة والمشايدة ورسم الاشكال التخطيطية والتصوير الفوتوغرافي .

٢ - كان أحد الاعضاء مهتما بدراسة الكثبان الرملية والماء الباطني ، وكان يأخذ عينات من رمال الكثبان لتحليلها . وكان متصلا أيضا بهيئة الاعانة التابعة للامم المتحدة التي كانت تتبع طريقة فيزيائية لتعرف الطبقات الحاملة للماء بصدق وضع مشروع لتعمير هذه الجهات واسكان اللاجئين الفلسطينيين فيها .

٣ - استعان أيضا مهندس سويدي في مشكلة المياه الباطنية : وكانت مريضته السويدي في رجب ، لا بد ، واحد معومات عن معنى الماء الصبي (الفجره) او المستوى الذي يوجد فيه الماء . من الزوايا الذين قاموا بحفر ابار . ثم حددت من مبد الابار تحسنت تحليلها ومعرفة كمية الاملاح الذائبة فيها . وبهذه المناسبة تلقت النظر الى ابحاث مشابهة قام بها الاستاذ بليك G. S. Blake وجولد شيت ، وهما كانا من الجيولوجيين الرسميين لحكومة فلسطين ايام الانتداب البريطاني . وقد قاما بمساحة دقيقة للماء الباطني في فلسطين . وكانت طريقتهما تنقيب الارض Boring في تقع مختلفة ودراسة الضبقات للوصول الى الطبقة الحاملة للماء وتعيين عمقها . ثم تحليل الماء الباطني لمعرفة درجة ملوحته . ثم رسم خرائط كنتورية للاعماق التي توجد بها مستويات الماء الباطني وقد تم نشر هذا البحث في كتاب وأطلس خاص تقوم بتوزيعه ادارة مطبوعات الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٥ . ولذلك لا اعتقد أن البعثة ستصل الى ما وصلت اليه حكومة فلسطين في مساحة الماء الباطني لشمال سيناء . فهذا مجهود كبير يحتاج لوقت أطول مما قضته البعثة في شمال سيناء .

٤ - قام علماء التربة بمساحة منظمة دقيقة للساحل الشمالى ، من رفح الى العريش ، ثم لوادى العريش كله ، وهو وادى كبير يمتد من أواسط سيناء حتى يصب شرقى العريش ، ثم لبقع مختلفة من شمال سيناء . وكانت الطريقة هى الملاحظة الشخصية ومعرفة البيئة النباتية أو بالتعبير الدقيق المجتمع النباتى الذى يعيش على التربة ، وأخذ عينات تربة من قطاع يحفر لهذا الغرض ورسم بروفيل للتربة فى هذه البقعة ، وكان الغرض من ذلك رسم خريطة تربة لهذا الجزء من سيناء ثم تقدير قيمتها الاقتصادية فى استغلالها الزراعى . وسيتم تحليل عينات التربة فى معامل كلية الزراعة بجامعة الاسكندرية .

٥ - كان علماء النبات يتبعون زملاءهم المشتغلين بالتربة فى تنقلاتهم ، فجابوا نفس الجهات وارتادوا ذات البقع وأخذوا عينات للنباتات الطبيعية وكان غرضهم تصنيف تلك النباتات وترتيبها فى عائلات وفصائل لاكمال البحث الخاص عن « نباتات مصر » الذى تصدره كلية العلوم بجامعة القاهرة .

٦ - قام مساعدا فى علم الحشرات وعلم الحيوان بإرشاد أحد الاساتذة بجميع الحشرات وتحنيطها ، وتحنيط الحيوانات من أنواع الزواحف بصفة خاصة - التى كان يصطادها لهم البدو وستودع تلك المجموعات من الحشرات والزواحف والجردان والخفافيش بمعهد الصحراء

٧ - قمت بأبحاث اتريولوجية وكانت تشمل : -

أ - التعرف الى قبائل البدو المختلفة وتوزيعها الجغرافى فى شمال سيناء وقد استعنت فى ذلك برجال البوليس من أهل العريش وبمشايخ العرب أنفسهم .

ب - دراسة عاداتهم ونظمهم الاجتماعية والاقتصادية ، وخاصة فيما يتعلق بالرعى والزراعة ونظام الاسرة وعلاقة الفرد بالقبيلة ، ونظام التقاضى

والدية وغيره . وكان ذلك عن طريق الاتصال الشخصي والقضاء الاسئلة والاستماع الى شكاياتهم وقصصهم .

ح - أخذ مقاييس اتروبولوجية للرأس والوجه والاثف والقامة ، وتعيين لون البشرة والشعر والعين وذلك حسب بطاقات لون البشرة والشعر والعين المعترف بها والتي لاتدع مجالا للحكم الشخصي الذي يختلف من باحث الى آخر . وهذه البطاقات هامة جدا ونوصي باقتنائها في قسم الجغرافيا . وقد استطعت جمع ١٠٠ قياس للبدو وأهل العريش وذلك بمساعدة أطباء المستشفى الاميرى وضباط سلاح الحدود ، فقد اتجهت أولا الى المستشفى لهذا الغرض ، ثم الى قسم سينا الشمالى وأخيرا الى سجن سينا الحربى .

د - لاحظت أثناء اقامتى بالعريش علاقة الادارة بالبدو ، ونظام الحكم العرفى السائد ، ولاحظت أن الجريمة الشائعة هنا هي التهريب ، تهريب البضائع الى فلسطين وتهريب المخدرات وخصوصا الخشيش الى مصر .

هـ - قمت بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور حسان عوض بدراسة العريش كمدينة . وذلك بالتجول فيها عدة مرات وملاحظة تقسيمها الى أحياء ، يسكن كل حي قبيلة خاصة ، اذ لايزال أهل العريش مقسمين الى قبائل ، وتوزيع الاسواق ، وملاحظة موقع المدينة القديمة وانتقال مركزها التجارى وتوسعها وعلاقة ذلك بالجيش وانشاء السكك الحديدية وقد أخذنا عدة صور لاجزاء مختلفة من المدينة من فوق احدى المآذن ، ثم صور للشوارع وصور لبيوتها ذات الطابع المعمارى الخاص .

و - دراسة نشاط أهل العريش الاقتصادى وعلاقة ذلك بموقعها الجغرافى ، وعلاقة العريش بفلسطين قبل الغزو الصهيونى وبعده .

هذه هي الخطوط الرئيسية للبحث الاجتماعى الذى قمت به ، ولاتزال المقاييس الاثروبولوجية لدى تحتاج لوقت لحساب النسب المختلفة وتحليلها

توطئة للوصول الى نتائج اتروبولوجية أصيلة ، ونرجو أن تسنح الفرصة
قريبا لكتابة هذا البحث .

توصيات !

١ - أرى أن يقوم قسم الجغرافيا بشراء مجموعة الصور التي أخذت
في الرحلة ، وهي صور للظواهر الطبيعية لشمال شرقى سيناء ، وقد احتفظ
بأصولها معهد فؤاد الاول للصحراء ، وهو مستعد لبيعها لمن يريد . وهذه
الصور توضح ظاهرات جيومورفولوجية لهذا الاقليم ، وهي ذات فائدة
كبرى كوسيلة للإيضاح في محاضرات الجيومورفولوجيا ومحاضرات مصر
الطبيعية والاقتصادية .

٢ - أرى أن يستكمل قسم الجغرافيا وسائل البحث الاثروبولوجي
بشراء الآلات والمقاييس الاثروبولوجية وخصوصا :

Rausenkundliche

(١) لوحات قياس لون البشرة والعين والشعر

Bestimmung Taften

(٢) مقياس طول القامة ، وآلة معدنية لقياس الاتف ، ومقياس فليز

لقياس الرأس .

٣ - مما يؤسف له أن مصر - بالرغم من عراققتها التاريخية ووفرة
الابحاث التاريخية والجغرافية عنها ، تكاد تكون مجهولة علميا من الناحية
الاثروبولوجية ، فليس عندنا مساحة اثروبولوجية كاملة عنها ، وليست
لدى العلماء أرقام عن مقاييس اثروبولوجية لاي جزء من مصر ، اللهم
سوى مديرية الشرقية التي قدم عنها الدكتور عمار رسالته العلمية الى جامعة
مانشستر ، فهذا اذن مجال بحث جديد يصح أن يفتح أمام طلبة الدراسات
العلمية واقتراح أن تمد جامعة الاسكندرية الباحثين في هذا الميدان بما
يلزمهم من مقاييس وآلات وآلات تصوير ، والاتفاق مع السلطات الخاصة
لتسهيل أمر سفرهم وتنقلهم واتصالهم بالاهالى واقناعهم بأخذ مقاييسهم
في الاقاليم المختصة ، وليكن ذلك على أساس اقليمي ، أي مديرية مديرية ،

بترتيب جغرافى ، فهذا عمل علمى جليل اذا استطاعت الجامعة أن تساعد فيه وهو من الاعمال التى لا يستطيعها الباحث بمفرده دون معونة الهيئات والسلطات الادارية . والوسيلة لذلك هى التوجه الى المستشفيات أو المصانع أو المعاهد التى يزيد أعمار تلاميذها على ٢٠ سنة . ومن الصعب اقناع الافراد بقيمة هذا العمل أو أهميته ، الا بتدخل أفراد من جهات معينة ، مثل طبيب المستشفى أو مدير مصنع أو ناظر مدرسة .

وهذا العمل يحتاج الى مران من جانب الباحث أو الى لباقة وصبر ومثابرة فى ميدان العمل ، ثم الى حسابات وتحليل احصائى وقراءة فى مكتبه ، وهو من الاعمال العلمية القليلة التى يتصل الباحث فيها بالجمهور مباشرة وتحتاج لمعاونة مالية وأدبية .

٤ - أرى أن يشترك قسم الجغرافيا بأكثر من باحث واحد فى رحلات معهد فؤاد الاول للصحراء فى المستقبل وأن يحاول - اذا أمكن - دعوة الباحثين فى الجغرافيا من الجامعات الاخرى والقائمين بدراسات اقليمية على الطبيعة لاجزاء مختلفة من مصر ، والخروج بعلم الجغرافيا من نطاق المكتبات أو المعلومات التى تصل اليها بالواسطة ، الى حيز الحقل والوصول الى المعلومات مباشرة . فمثل هذه المعلومات - حتى اذا كانت قليلة - أفضل بكثير من معلومات كثيرة تصل الى الباحث فى صفحات كتاب .

وهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تحتل بها الجغرافيا مكانها بين العلوم فى مصر . والتى نستطيع بها أن نخدم البحث الجغرافى ونقدم للعالم صورة حية جديدة لبيئتنا الطبيعية والاجتماعية .